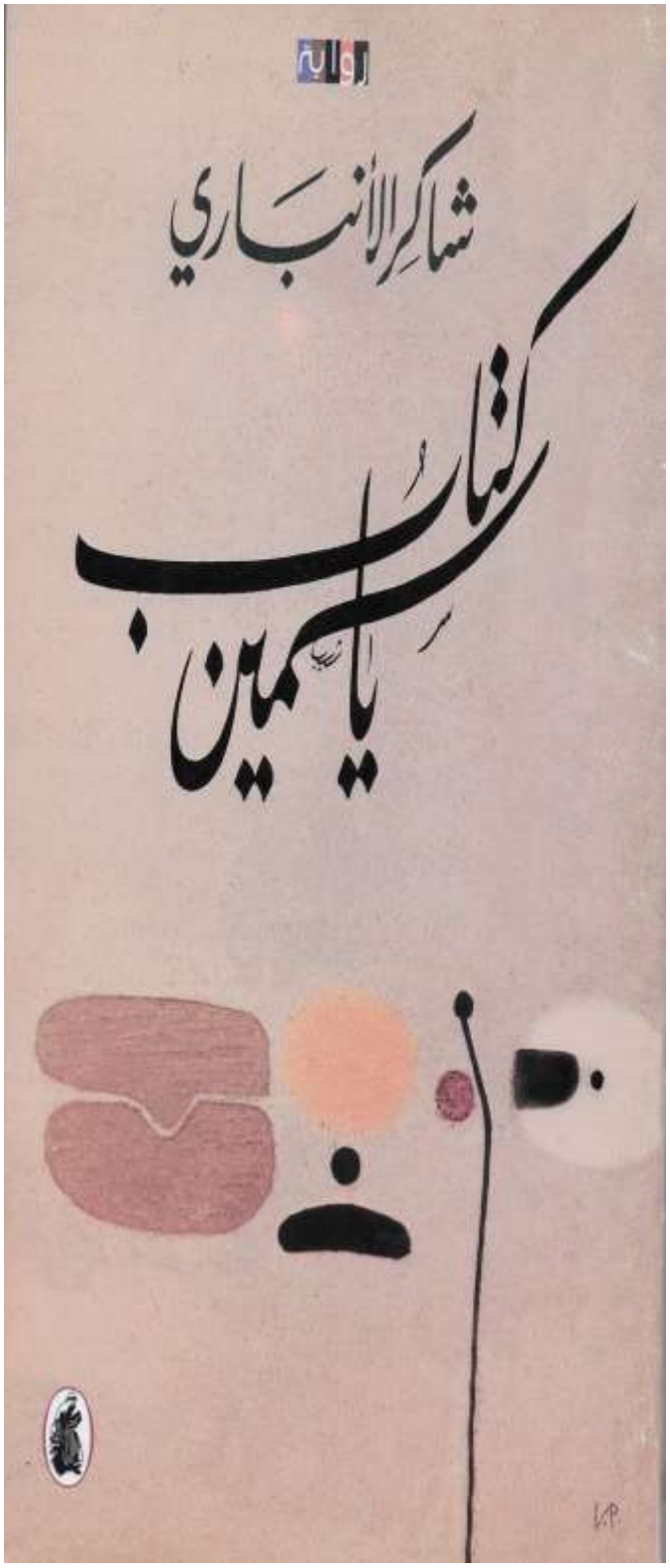
رواية
شاكر الأنباري
كتاب ياسمين

كتاب ياسمين / رواية عربيّة
شاكر الأنباري / مؤلّف من العراق
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف :
ڤكتور ياسمور / بريطانية
الصفّ الضوئي :
المؤلّف + مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

الفصل الأول

في مركز القلب المغني عاش كل الاحداث التي لها علاقة بياسمين . ويستطيع وضعها بأكثر من صيغة وشكل . يمكن ان يجعل بعضها يتوالد من بعض ، تنتهي حكاية او قصة او مشهد فيسلم القياد الى الذي يليه . تستمر الاحداث وتدوّم ، متواترة متلاحقة ، او متوازية دون الخضوع لتسلسل الزمن . الا تكون الحياة هكذا احيانا؟ اذ ان تسلسل الزمن مفهوم غامض ، فكثير من الوقائع التي تجري في الحياة ، تتقاطع او تتوازى او تتداخل . كيف اذن والامر يتعلق بتدوين كتاب عن امور وقعت منذ فترة ماضية ، ويصعب ايجاد تسلسل صحيح لها؟

قد تفقد صيغة مثل تلك الكتاب بؤرته التي يجب توفرها ، او الخيط الرفيع الذي ينتظم فيه كل شيء .عندها يصبح كتاب ياسمين للمتعة فقط : احداث شائقة مكتملة بنفسها ، ليس بالضرورة ان تترابط فيما بينها . تعرض لوحات مبهمة او واضحة ، لحظات سعيدة وغريبة وجوهرية ، في حياة شخص يعيش اليوم في هذه المدينة التي ابرز تفاصيلها القباب بشبابيكها المربعة المنورة باللون السماوي ، والمآذن التي تنتهي بأهلة ، الكنائس والحمامات والأسواق المسقوفة والقباب التي تخفي مراياها وحروفها وأهلتها .

فكر في استعارة الموسيقى كنموذج لبناء الكتاب ، رغم خبرته الضئيلة في فضائها الشاسع الغني . آلات متنوعة ، يقوم عليها اشخاص مختلفون ، وكل آلة تعزف لحنها الخاص . تتآلف الالحان لتكوّن ، في نقطة غير مرئية ، قطعة موسيقية واحدة . ترتفع وتنخفض ، تسيل وتلتم ، تتبعثر وتتجمع . يوحدها ذلك القائد الفذ ، العارف في كل آلة ، الموجه لكل نغمة مهما خفتت . انه قائد الاوركسترا . . . . . هكذا ينبغي للوعي ان يكون . قالت ياسمين :الوعي قائد اوركسترا الروح والجسد ، يوحدهما في كل واحد ، ثم يمضي الى مبتغاه مثل حدس .

يضع الاحداث التي عاشها في مركز القلب المغني دون تخطيط مسبق . كل حدث يروي جزءا من التجربة ، التي اعتبرها مهمة في حياته ، وجعلته يصل الى ما هو عليه .الى مرحلة الصفاء الروحي ، وهي وان لم تكن دائمة ، ومستقرة ، الا انه وصلها ذات يوم ويستطيع الوصول اليها اذا ما استجمع قواه ، وجعل من وعيه قائد اوركسترا الروح والجسد .

وهو لا يستطيع رواية التجربة كما عاشها ، او كما جرت في الواقع ، لذلك فضل ان يرويها كما ترد الى ذهنه ، يدونها على جهاز الكتابة الذي يمتلكه . لقد اشتراه لهذا الغرض . ولانه سيدون ما يحتويه ذهنه عن تجربته مع ياسمين ، فلابد ان ما سيكتب سيكون خلطة عجيبة . فيها الوقائع كما جرت ، وفيها الخيالات التي صاحبتها . فيها الاحلام والتداعيات . يختلط الواقع بالمتخيل فيصبح الفصل بينهما مستحيلا . الاحلام ايضا جزء من الاحداث طالما كانت ذات يوم ، على علاقة قريبة بها ، وسيكون كتاب ياسمين خلاصة لكل ذلك . انه في ذهنه ، يتحين الفرص لتدوينه على شاشة الكتابة . صار يملك عددا من الملاحظات ورؤوس الاقلام والمشاهد مكتوبة على اوراق وضعها في ملف ذي غلاف كارتوني . وهي الخواطر التي كانت تجيؤه اثناء تفكيره بالكتاب . امام المرآة ، او تحت دش الحمام ، او اثناء غسل بيته بالماء والصابون المعطر . وقت استقبال مرام ، او حين يكون مستلقيا في الفراش ، متفكرا بتاريخ حياته الطويل .

***

لا يظن انه سينسى اللقاء الأول له بياسمين .

بعد ان اجتاز الغابة ذات الأشجار الكثيفة والبحيرة المليئة بالطيور ، وجد نفسه سائرا في شارع مسفلت على جانبيه اشجار كثة الورق ، وبيوت خفيضة تشبه لعب الاطفال . انتهى به الشارع الى باب من الخشب ، دعائمه متصالبة ، مد يده وازاح الرتاج ثم مشى في ممر اسمنتي ، وسط حديقة لطيفة ، منسقة ، فثمة ورود وازاهير واعشاب للزينة ، واشجار قزمة لابد انها قد جلبت من جزر بعيدة ، وتليلات مغطاة بالصبار . قاده الممر الى باب البيت ، ووجد الباب مواربا فدخل .

شلح حذاءه في المدخل ، وضعه جنب احذية الزائرين ، واجتاز الممر الطويل . على يمينه حمام البيت ، وثمة صور معلقة لأناس مروا هنا ، ملتحين ومرد ، نساء ورجال ، من كافة الاعمار .صورة كبيرة لياسمين مؤطرة بعقد من الورد ذابل ، شعرها قصير ، عيناها متوهجتان ، وتلك الابتسامة الساحرة تسفر عن نفسها على شفتين مليئتين .عينا ياسمين واسعتان ، جيدها طويل ، لكن شيئا خاصا فيها لفت نظره فتوقف قبل ان يدخل الصالة الواسعة . هناك ملامح خافية تشبه ملامح شخص مر في حياته . الهدوء العميق ، تلك النظرة النافذة ، هالة الحكمة حول الرأس؟ خطر في باله وجه الحكيم الذي التقاه في الطائرة . هل حلّ في هذه المرأة؟ هل كان يمتلك قدرة التحول الى انثى؟

في جو البيت روائح تفتح النفس ، خليطة من اعشاب وبخور ويانسون تخيل ان قسما منها صادر من الحديقة المحيطة بالبيت ، من ازهارها المتفتحة واعشابها العطرية واشجارها الوارفة . او ربما من انفاس الاشخاص الموجودين واجسادهم .

الصالة التي دخلها واسعة ، تتألف من قسمين ، الاول منخفض الارضية فيه شبابيك صغيرة تطل على الحديقة الخلفية . الشبابيك مفتوحة وضوء الشمس يدخل باعمدة مستقيمة ثم ينسكب على السجاد ، وفي النوافذ رتبت اصص لطيفة مزهرة وغير مزهرة :لسان الثور ، قلب العاشق ، دماء الثور ، اقحوانة صغيرة ،

لبلاب مقزم ، وشجرة سرو في اول نموها . كان الهدوء عميقا ، والصالة الاولى خالية من البشر ، وهناك كراس ومقاعد واطئة من الخشب وشراشف مكومة في زاوية الصالة . واجهته السجادة الممتدة من السقف حتى الارضية المكسوة بموكيت رمادي . السجادة مصنوعة من خيوط غامقة اللون ، تبرز فيها مثلثات تتحدر منها سلاسل تنتهي بخرز ملون ، تجاورها عقود من العقيق الاخضر والاحمر ، مرصعة بليرات واقواس مذهبة تشبه حلق الاذن ، ذكرته احدى تلك الحلقات بما كانت ترتديه امه ايام شبابها . وسط السجادة زخارف نباتية تنتأ من ساق طويلة صفراء ، الازهار الحمر تتعنقد من الاغصان ، فيها الوردي والاحمر النبيذي والاصفر المشرب بخضرة خفيفة .لاتحتاج تلك الورود الا نسيمة هواء كي تنتشر في الصالة وتجمل المكان بروحها الفذة . اما الاطار الاعلى فخيط اصفر غليظ يتدلى منه الودع من كافة الالوان ، شكلت مظلة احالت ذهنه الى هوادج البدو ايام زمان . لا يحتاج المخدع سوى عروس ذات وجه صبوح ، وحاجبين مقوسين يمكنان الرموش من تسديد سهامهما . كيف وصلت هذه السجادة الى هنا؟ لابد ان ياسمين جلبتها في واحدة من رحلاتها الى بلاد الهند وسيلان ، او التيبت أوافغانستان . قال مع نفسه بوركت الاصابع التي سوّتها ، والايادي التي حملتها عبر البحار والصحارى لتحط في صالة البهاء هذه . تمتع ابصار القادمين الى كشف اسرار الروح ، المحمولين على اجنحة الرقص والتأملات .

تخلص من سحر السجادة ، وارتقى درجتين عاليتين ، وولج الباب الفاصل بين الصالتين . وجدهم ساكنين . ياسمين تجلس على الارض ، ببنطالها الاخضر الخفيف وعليها كنزة خضراء وقميص اخضر وترتدي حذاء بيتيا خفيفا اخضر هو الآخر . الكل جالس على مقاعد خفيضة من الخشب ، جلسة تأمل . كانوا مغمضي العيون ايديهم في احضانهم ورؤوسهم تحدق الى الامام دون تعابير ، دون حركة . اتخذ مكانه بينهم وجلس على الخشبة . اطرق مغمضا عينيه ، وتوغل في داخله ، وكان ذهنه بياضا شاسعا . قالت ياسمين بملامح هادئة : امحوا كل شيء في الذهن ، كل صورة او وجه او فكرة . حدقوا في اللاشيء ، واغلقوا حواسكم

عن العالم الخارجي . . . .

انه موجود وكفى ، جزء من كون كبير ، لافرق بينه وبين النخلة المعمرة والحصاة على تلة وذرة التراب المختبئة في اعماق حقل اللفت . ابن هذه اللحظة ، لاشيء قبلها ولاشيء بعدها . هامد صامت لا يسمع حتى انفاس الجالسين قربه . صحيح انه يسمع بين حين وآخر صوت كلب في الغابة المجاورة او صوت عجلات في شارع بعيد ، لكنه سرعان ما يستعيد تركيزه ويعود الى حقل البياض . حتى زخارف السجادة الغاها من رأسه ، واغلق انفه عن الروائح الانثوية الطاغية في الهواء . تخطر في رأسه بلمحة ، صور فاضحة واعضاء جنسية سرعان ماتزول ، لان زمام الافكار في يده ، كلما انفلت يعيده الى مكانه . كان عقله مثل حصان جامح ، وهو فارسه ، يهرب الى الهاوية فيعيده الى الطريق . يروم القفز الى جنة الوهم المزركشة بالاطيار النارية والغناء الساحر والفواكه المحرمة والنساء العاريات فيطبق على رسنه ويضغط عليه بفخذيه ليستوي تحته ، يوجهه نحو مبتغاه ، نحو ذلك الهدف البعيد الذي وضعه امامه . سيتعلم كيف يصبح قائد اوركسترا الروح والجسد .

شعر بعينين تسقطان على وجهه . نظرات تحتويه ، فلم يستطع المقاومة وفتح عينيه كي يرى ما امامه . وجد ياسمين تحدق فيه مباشرة ، وابتسامة خفيفة ترفرف على شفتيها الورديتين . قالت بصوت هادئ : افتحوا عيونكم . واذا الصالة تستعيد حيويتها ، البعض يتململ والبعض يتنفس بعمق ويطلق آهة راحة عميقة . مازال هنا ، ستائر الصالة من الموسولين الشفاف ، تتسدل على شباك عريض من الزجاج ، يشف النور عبرها حتى يصبح مثل الكرستال السائل . للمكان سمة حلمية ، تنقل الشخص الى حيز خارج هذه الحياة . يتأمل في وجوه الاشخاص الجالسين ، مشدودين كلهم الى معلمة المكان ، ياسمين الفاتنة ذات الصفاء . بعد ان وزعت ابتسامتها على الجميع ، رجالا ونساء ، صمتت برهة ثم قالت : هذا المكان يسمى ، كما يعرف البعض ، مركز القلب المغني . جاء الاسم من حقيقة بسيطة هي ان الحياة لاتحتاج الا الى الغناء ، الا الى القلوب المغنية ،

الا الى الناس الذين اندمجت فيهم الروح بالجسد ، في كل واحد . وهذا امر لا يوهب للشخص ، عليه ان يصنعه في رحلة طويلة شاقة مع النفس . رحلته هو ولا احد غيره . رحلة قوامها التأمل في الاشياء والرقص والبوح ، ليصبح الانسان بلورة تشف عن ابسط الانوار . عملنا في القلب المغني على مراحل ، الاولى مرحلة التأريض ، وعلاقتنا بالاشياء المحسوسة ، بما نعيشه يوميا ، في العمل والشارع ومع الاصدقاء . الاشجار التي نحسها والهواء الذي نتنفسه والطعام الذي نتغذى عليه . اي بأختصار علاقة الجسد بالارض التي يقف عليها . اننا منها واليها ، عليها نقف بقدمينا وبها نستعين حين نرفع الاثقال . نحن اشجارها المفكرة نربطها بالكون التي هي ذرة منه وخيط في نسيجه . دمج الجسد مع الروح معناه الحب الذي تمنحه الروح للجسد .

كانت تلك قصاصة من ملف ياسمين .

***

فكرة تدوين الكتاب قادته الى مقارنات غير مألوفة ، تجمع بين الكتب والكائنات التي يلاحظها في الحياة ، ومن ذلك الاشجار .ان لكل شجرة شكلها الخاص بها . النخلة ذات هوية متفردة . ساق واحد يمتد الى البؤرة ، انساغ تصب في تاج شاسع اخضر يتكون من سعف وليف وعذوق . ثمة كتب تشبه النخلة . احداثها ساق يغذي بؤرة تعطي الثمار .

عريشة العنب شيء مختلف . ما ان ترتفع عن الارض حتى تتفرع الى اغصان واوراق ، الثمار في كل موضع . قرب الارض ، في الوسط ، عند الاطراف . بعض الكتب مشغولة على هذا النمط . لكن الفراولة لها سيقان لاتعد ، تنطلق كلها من الارض دفعة واحدة ثم تتوازى حتى النهاية . احداث بعض الكتب تظل على امتداد الصفحات متوازية ، لكن ثمة تشابك غير محسوس يضفي شيئا من الهارمونية عليها .

كان طوال اشهر من اقامته في مدينة الحلم هذه ، المدينة التي هجر كل ما يملك للأستقرار فيها ، ما ان ترتعش فكرة ناعمة ، وامضة ، في رأسه ، حتى يسرع مثل من لسعته بعوضة ، الى اوراق موضوعة في جوار الطابعة ، ليمسك اقرب قلم ويكتب تلك الفكرة . يثبتها على الورقة كما تثبت فراشة بدبوس على مفرش مخملي . او كما ثبت فراشته العملاقة على الجدار . ويحدث ان يفيق من النوم ، منتصف ليلة من الليالي بسبب كابوس ، واحيانا بسبب نضوب الخمرة التي شربها اثناء سهرة مع الاصدقاء ، واذا حوار يرن في ذهنه كما كان جرس ياسمين يرن في مركز القلب المغني . وبما ان الحوارات ، حتى المهمة منها ، يمكن ان تنسى ، او تخترم بفراغ الذاكرة الابيض ، يسارع لاضاءة المصباح وكتابة الحوار على قصاصة من ورق يسمّره في الملف الاسود ، الذي سماه كتاب ياسمين .

حوارات ووصف امكنة وملاحقة مصائر لاشخاص اختفوا وتعاليم ، كان يعتبرها مادة اولية لا غنى عنها ، مثلها مثل الطين للمثّال والحجر للنحات والتخطيطات للرسام . وجد هذا الأسلوب افضل للتدوين ، ولا يعرف مقدار نجاحه ، لكن بوصلته هدته الى هذه الطريقة بحساسية عالية . فالانسان لايستطيع بناء بيت دون حجر وملاط وحديد وحصى واخشاب ومواسير ، يضعها جنبا الى جنب ، حتى يحين أوان استخدامها . طبعا كل مادة الى مكانها الصحيح وفي وقتها الملائم . اعد ثبتا باسماء الازهار والحوارات والروائح والمشاعر والوجوه والقصص التي قيلت والتعاليم النيرة ولحظات الرقص ، دون ان يعير كبير اهتمام الى تسلسلها ومواضعها ، سينتظر ما يخرج من بين يديه في النهاية .

وجد في واحدة من تلك الاوراق شرحا حول تمرين اللغة غير المفهومة .

كيف يمكن التكلم نصف ساعة كاملة دون تركيب جملة ذات معنى؟ هذا ما كانت ياسمين تطلبه منهم في مركز القلب المغني . نصف ساعة من الالفاظ والجمل كانت سبعة السن تهدر بها في الصالة ، ولا تعني اي شيء . لابد لمراقب يشهد ما كانوا يؤدونه ان يصفهم بالمجانين . مجانين فقدوا صوابهم ، عقولهم لم تعد مسيطرة على مايتفوهون به . كان الغرض من التمرين هو ان

يتحكم العقل باللسان بشكل صارم فلا يطلق اي جملة ، مدة نصف ساعة . كان تمرينا على قوة الارادة والتحكم بالذهن . . . .مرة وهو واقف مع صديقته مرام تحت دوش المياه بدأ يتكلم تلك اللغة لمدة خمس دقائق .لاحظ الدهشة والخوف في عينيها ، ظنته مجنونا او رجلا غريب الاطوار ، يمتلك شيئا ما غير عادي في داخله .

في ورقة اخرى كتب ملخصا عن ليلة الولادة ، وكانت اعجب ليلة مرت في حياته . شعر خلالها انه ولد من جديد . تقشر جلده عنه وخرج طازجا ، بريئا كما لو كان خارجا من رحم امه . فبعد تنفس متواصل من الفم ، وكانوا مستلقين على ظهورهم ، وكانت هناك موسيقى عجائبية تنطلق من آلة التسجيل ، والصالة معتمة وياسمين تقودهم بالكلام ، تخشبت اطرافه في البداية وفقد الأحساس بها . ثم مع مضي التنفس متواترا عميقا ، من الفم فقط ، اخذ التنمل يدب في رأسه وراح يكبر ويكبر حتى اوشك على الأنفجار . تحول جسده الى فرن ملتهب ، صدره ضاق وبلغت روحه البرزخ . وياسمين تدعوهم الى التحمل ، فعليهم ان يعيشوا لحظة البدء ، لحظة الخروج من رحم الأم التي اختزنوها في مكان ما من اللاوعي . ان يعيشوا لحظة مجابهة مع الألم . لم يرغب بالهزيمة ، فواصل الشهيق والزفير بأقصى عمق ممكن . ثم بدأ جلده كأنه ينسلخ عنه ، وشعر بأنه كائن آخر يختبئ وراء جلد قديم ينبغي الخلاص منه . لم يع وقتها متى اوقفت الموسيقى وكيف خرج من أهابه القديم ، من ايقاع حياة ماضية كانت مليئة بالقسوة والتشتت وضياع الهدف . فتح عينيه على وجه ياسمين تنظر اليه بود وعطف ، ماسكة يده مداعبة جبهته . فما كان منه الا ان طبع قبلة على جبينها وقال بصوت خافت : - لقد فعلتها ، استطعت ان اولد من جديد .

***

امام النافذة ، ناظرا الى شجرة الفلفل البري المكتظة بالعصافير والاعشاش

والديدان وانسجة العنكبوت والنحل ، خطرت يوم امس في ذهنه فكرة شائقة . اذا باشر بالكتاب ، وكرس روحه له ، فهل سيكتب التجربة التي عاشها في مركز القلب المغني كما حصلت فعلا؟ هل يمكنه اقتناص وجه ياسمين الحقيقي وتعابير المريدين واضواء البلور التي كانت تنعكس على نبتة المطاط ، ونبرات الحوارات التي دارت والضحكات والاحزان والدموع والنغمات؟ ثم ذلك الصديق كث اللحية الذي ساعده ذات يوم في الخروج من سجنه كي يبدأ رحلته في هذا العالم ، هل له ان يستثنيه من الكتاب؟ هو الذي كان يرتسم في ذاكرته عشرات ، بل مئات المرات ، وجهه ولفافته المشتعلة دائما وكتل المرجان التي غيبته بين مخالبها؟ هل يمكنه تجاهل مؤثراته عليه؟

جدته بوجهها المدور المسالم وجده الذي كان حكاء وأبوه واخوته واصدقاؤه وزوجته ، صديقاته الحنونات اللواتي كن ينفذن ادق ما يعتلج في قلبه من رغبات . . . . شواهد القبور المشمورة في اطراف المدن ، الكرنفالات التي رأتها عيناه . الغابات ، وقد نام فيها ليلا ، حالما باضواء البيوت الخافتة ، الجبال وقد تسلقها قبل طلوع الشمس . الانهار الخابطة الماء ذات الضفاف الطينية ، الحروب والكوارث والفيضانات والانفجارات الكونية واحلام العناكب في بيته الذي صار مرتعا لها ، وغير ذلك من مشاهد وأحداث وقصص . هل يمكنه حقا استبعادها من كتاب ياسمين؟

في هذه الحالة الا يكتب نفسه ايضا ، هو وعاء تلك التجربة كلها؟

لا يمكن الفصل اذن بين ما سيكتبه وبين ماحدث فعلا ، ما شعر به في تلك الايام وما يشعر به اليوم وهو يتأهب لتدوين الكتاب . لا يظن انه يمكنه استبعاد البيت الذي يعيش فيه الآن ، ولا الهواجس التي في صدره والكوابيس التي يراها والاشخاص الذين يلتقيهم او يحدثهم عن فكرة الكتاب ، والاحداث التي تجري في حياته الحاضرة او التي جرت من قبل . ليس هناك فصل بين ما يكتبه وبينه . وهذا سيعقد الامور بعض الشيء ، حيث تصبح التجربة كلا واحدا ، اي الكاتب والكتاب . . . . . .

***

الكتاب لن يكون محايدا ، فالامر يتعلق بتجربة ، يرغب ان يستعيدها كتابة . ويعرف ايضا ان الكتاب لن يكون كتاب ياسمين فقط ، بل هو كتابه ايضا . لكنه بعد ان اقتنع بهذه اللاأمانة ، وازدواج الادوار ، وتشابك الاهواء والذكريات ، واجهته معضلة تتعلق به وحده ، الا وهي متى يتخذ قرار البدء؟

كل مرة يقول لنفسه سأبدأ اليوم . يجهز آلة الكتابة ويستخرج القصاصات المليئة بالملاحظات والافكار والهواجس . يحضر الشاي او القهوة ويجلس متطلعا في الشجرة الجرداء ، المبتلة بالمطر ، ثم فجأة تهرب الكلمات الاولى الجديرة في ان تكون البداية . تكرر هذا الامر معه عدة مرات . الى ان ايقن ان لحظة البدء لم يحن أوانها بعد ، خاصة وأن كتاب ياسمين هو كتابه بمعنى ما . الامر يتطلب شجاعة كبيرة دون شك . شجاعة ان يكتب نفسه و احلامه وذكرياته واوهامه وكوابيسه . المكان الذي عاش فيه واصدقاءه وصديقاته . وتلك اشياء ليس من السهولة البوح بها ، فضلا عن نشرها .

الفصل الثاني

انا ياسمين ، اقودكم الى عالمكم الداخلي ، لتروا كنوزه وتعرفوا مافيه . عليكم امتلاك الشجاعة للسفر ، والتزود بالصبر والقوة والوضوح . ليكن الحب الكوني دليلنا كلنا . الحب للباب والسجادة والنور المنسكب من الستارة وزهرة اللوتس والانسان القريب منا والنجوم البعيدة والغيوم الماطرة وديدان الحديقة واعشاب الغابة . الحب للبحيرة واستدارة الخدين وزغب العارضين وشعر البنت وذيل القطة واطار النافذة وعروق الغابة الساقطة والفطر السام وسنجاب الكرز .

التأريض هو ان يكون الشخص هنا في اللحظة داخل الجسد . الوقوف داخل النفس والعيش بانسجام مع الذات . الاحساس بالذات والثقة في مواجهة الحياة . اين انتم الآن؟هل انتم في اجسادكم؟ الشخص المتأرض هو من يمتلك صورة صادقة عن نفسه ، يخلق دائرة من الانسجام حوله . قال لي ذات يوم واحد من المشتركين في القلب المغني ، ان الانسان المؤرض عليه ان يدفع ثمنا لذلك . ثمن ان يعيش في الواقع ، هنا والآن ، دون اية اوهام . الانسان المحبط صار محبطا لانه وضع هدفا غير واقعي لنفسه سرعان ما تلاشى بعيدا في عالم الواقع . الامان يكمن في الرجلين ، انظروا الى شخص ما وشاهدوا رجليه ولاحظوا اذا كان قويا يشعر بالامان ام لا . القدمان اللتان تلامسان الارض هما جذور الانسان ، الساقان

النحيفان المشدودان بحاجة الى طاقة ، هناك سوء في العلاقة بينهما وبين الارض ، كما لو كانا لايتغذيان جيدا من عالم المحسوسات . البعض يمتلك رجلين ضخمتين كما لو يمتلك طاقة اكثر مما يجب تربطه بالعالم الواقعي ، عالم المادة . يثرثر اكثر مما يجب ، يمارس الجنس بافراط ، يخاف التطلع الى داخله ، اذا لم يعمل شيئا يشعر بالاختناق . انهم اناس خارجيون اكثر مما يجب .

كان ذلك الكلام جديدا على معارفه ، فكيف استطاعت هذه المرأة المتألقة العينين ان تلخص تجارب الحياة بهذه الحكمة البسيطة ، وبهذه الأفكار الواضحة دون ان يتطرق اليها ولو بقعة صغيرة من الشك؟ حسب نفسه متفوقا على باقي البشر لانه بدأ يمتلك حقائق لم يصلوا اليها بعد . شعر بالقوة ، بالحب لياسمين ، بالنشوة لوجوده في ذلك المكان العابق باليانسون الذي تسللت اليه روح الطاقة الكونية فأنارته بالحب والفهم والارادة والوعي . اضاءت شجرة المطاط ، وتألق صحن الكرستال بشمعته المضيئة ، وشف الجالسون حتى تحولوا الى كائنات مسالمة مليئة بالغبطة . اختفت اصوات الغابة البعيدة وتناءى صوت البط خارج المكان وغابت حركة البشر في الشوارع والحمامات والمدارس والبيوت . وكانت ياسمين تتكلم :

اساسنا هو الذي يقرر تطورنا ، والزهرة في ارض سيئة ، او النبتة المزروعة في اناء ضيق يصبح من الصعوبة عليها التفتح والنمو لابراز جمالها . من الضروري جدا ان نعرف حقيقة حاجتنا . حين نشتغل مع الارجل نستطيع معرفة عمق ما يستطيعه الانسان للعمل مع نفسه . لا نستطيع العمل اعمق مما يستطيع الاساس تحمله . وقديما قال ذلك الفيلسوف الحكيم : اعرف نفسك تعرف الوجود . لكن كيف نعرف انفسنا؟ هذا هو السؤال .

كانوا ينصتون بخشوع ، والهدوء مسيطر على البيت والحديقة ، الاشعة الكرستالية تسيل من النوافذ . تحس قدمه اليمنى خلسة ، الشعر خشن ، العضلات هادئة ، تنبض بدم يغذي الخلايا والعظام والاعصاب وذلك النسيج الداخلي الذي لا يعرف مايجري فيه . سيروي غدا ماسمعه وماشاهده الى مدير

المسرح الذي يعمل فيه ، اذ كان له الفضل في ارشاده الى ياسمين . انه مدير حكيم ايضا ، ويبدو ان الحياة فيها عدد كثير من الحكماء .

ثم ما المقصود من ان يعيش الواحد في جسده؟ او من ان يعرف نفسه او ان يعيش هنا والآن؟ هذه مفاهيم غير مألوفة لخبرته . كانت مغرية جدا له في مرحلة الركود التي عاشها في تلك المدينة الباردة .

الموكيت الرمادي مفروش على الارضية ، والفسقية الكبيرة موضوعة في زاوية الصالة . نمت فيها شجيرة مطاط ثخين الورق ، اخضر ، تتفرع في الفضاء وتتدلى على الزجاج . الموجودون يجلسون على شكل دائرة ، وياسمين تجلس قرب الباب . في الوسط اناء من الزجاج وضعت فيه شمعة كبيرة مطفأة . في بيت ياسمين كل غرض موضوع في محله ، لايلاحظ المرء اية فوضى . ملابسها متناغمة الالوان ، وربما هذا ماتقصده في الهارمونية التي يجب على المرء خلقها مع نفسه ومحيطه . انها بقدر ماهي اليفة بقدر ماهي محايدة ، وضعت مسافة ثابتة حول نفسها ، لايستطيع احد تجاوزها . تبتسم لك وللآخر بالمقدار نفسه ، فيما عيناها تمنحان الجميع ضمة حنو وحب وتقبل .

في صورة مثبتة فوق الباب ، وهي صورة فوتوغرافية ، قديمة بعض الشيء ، بدت ياسمين شبه عارية ، وثمة رجل ممدد على اريكة من الخشب . الرجل نائم على بطنه وهي تنحني عليه ، يداها الاثنتان تمسان كتفيه مسا خفيفا . كانت تتطلع الى المصور بثبات ، والصورة مأخوذة في الصالة السفلى بلا شك . اذ ظهرت اطراف السجادة العجيبة والنوافذ الضيقة في الخلفية ، تطل على تلال الصبار وشجرة الجوز الضخمة . كان الضوء في الصورة يشع كما لو انه يلاحق وجه ياسمين المدور كاشفا اثيريتها وخفة روحها . لايمكن ان تكون في طقس جنسي ، فتعابير وجهها تسامت فوق رغباتها الارضية بوضوح . ثمة علاقة سرية بينها وبين الرجل ، وشيجة مكونة من لمس بريء ودفق روحي .

***

وذات ليلة اطفأ الضوء ونام . هل نام حقا؟ رأى عينين في الظلام ، لوجه

انثوي غير محدد السمات . عينان مكحولتان ، عميقتا السواد ، رموشهما طوال ، على كل عين حاجب اسود مجرور من منتصف الجبهة الى الصدغ . وكانتا تتأملانه بعمق . تعابيرهما حزينة ، ومع الوجه القمري المضمخ بحمرة فاقعة كانتا تنسحبان الى الخلف . الى فضاء ملون ، بالاحمر والازرق ، لون السماء ، الحاوي على شموس حمر عديدة ، في كل شمس بقعة من نور . غابتا عن بصره ، كما لو جذبتهما يد خفية الى بحر الغياب .

- هل أنت ياسمين؟

- كلا .

- من انت اذا؟

- أنا الأنثى التي يحلم بها الجميع .

ثم فتح عينيه . فتحهما على الم في ساقه اليمنى ، الم مألوف له ، جعله ، طوال سنوات ، يخاف السرير . كان ضوء الشارع يتسلل من الشباك وينير غرفته . المزهرية على الطاولة . ست زهرات تتدلى من عنقها الطويل . على فخار المزهرية نقوش من الارابسك ، ذات لون ابيض . بتلات ثلاث منتشرات ، اسقطتهن ريح مجهولة المصدر . لايحط على المزهرية طير ولا يفوح منها اريج . خلف الطاولة عتمة خفيفة وشباك غير ظاهر ، لاترى منه سوى ستائر بيض حلمية ، وارجل الطاولة اقواس تنتهي بتكويرات لطيفة .

فتح عينيه على الجدار المقابل ، فتش عن البنت الملونة الوجه فلم يجدها . ركز بصره الى حيث ينتصب الرجل ، بوجهه المتعب ، ولحيته الخفيفة التي تفاقم تعابير الالم في داخله . على رأسه لمايزل ذلك التاج المصنوع من شوك . جسده عار ، نظراته تتجه الى الارض ، يطلب منها عونا غامضا . يداه لاتبرزان ، جروحه خافية ، والشوك على الرأس . هو والالم معجونان سوية ، في خلاياه رحمة على الذين نسوا اسماءهم وكيف اتوا الى هذه الارض .

على العمود مايزال عقد المرجان معلقا ، بحباته غير المنتظمة الحجم والوانه الزهرية والبيضاء والسوداء . بخطوطه وبقعه وتخاريمه ، وثمنمه الصغير الذي يفصل

بين حبة واخرى . لقد سافر معه بين المدن ، وعاش برودة الشتاءات ، وحرارة الاصياف . قرأ بحباته حظوظ عدد لايحصى من الناس ، حتى اصبح مخزناً لعشرات القصص والخيالات والتوهمات التي كان رأسه يكتظ بها . زوج وطلق بحباته ، استمطر الثراء وكشف اسرار القلوب . فتح باب الجنان لاشخاص ظامئين لمعرفة مصائرهم . مرجانه اقتطع من بحيرة تقع بين الجبال ، مات فيها اعز صديق له هو سعيد . مات من تشنج اصاب فخذه كما قيل له فيما بعد .

ذلك العقد ابصره يشع امامه في عتمة هذه الليلة ، مما ادخل الطمأنينة الى روحه وجعله يقنع بأنه رجل حي يرزق ، يمتلك حواسه اجمع ، كما اي انسان آخر في هذا الوجود .يسمع صوتا متواصلا ، ماء يسيل على باب او جدار ، واصطفاق اجنحة لكائنات ليلية . تواجهه سلة الفاكهة ، وذلك العنقود الوردي الذي اكل نصفه قبل ان يستلقي في السرير . زينت السلة سنبلتان صفراوان شعيراتهما متناسقة ، احداهما تتجه الى وجهه والاخرى نحو ارجل الطاولة . هناك المسبحة الطويلة المعلقة في مسمار ، ظلها مفصص . لون حباتها اشبه بالكهرمان ، لكنها ليست كهرمانا .

لماذا فتح عينيه ، امن الالم فقط ام انه رأى كابوسا مفزعا ، ام هو صوت المطر والاجنحة الليلية ونظرات تلك البنت التي كانت تودعه او تخترق قلبه بسواد الحاجبين؟ العضلات في ربلته متشنجة ، متخشبة ، اصابع قدمه واقفة منفرجة صلبة ، والضوء يعم الغرفة ، ينعكس على الرسومات والاشكال فيخلق فيها حركة حية . العيون تطرف والحمام يرف بجناحيه والازهار في الحدائق تتهادى في نسيم غير مرئي . ضباب خفيف راح يلفه ، غامت الأفكار وتداخلت الصور . ومن بعيد رأى بابا يشع بالنور ، ينتهي به شارع ما . ارضية الشارع مزخرفة بالازهار ، والمربعات كلها صفراء ، وعلى الجانبين مظلات دكاكين واضوية متدلية ودوائر حديدية تزين واجهات وسقوفا ، وثمة رجل يسير نحو ذلك الضوء ، وحيدا ، لايرى منه الا ظهره . عم يبحث ، والى اين يمضي ، وهل ان السوق سوق بضاعة ام سوق وراقين ام نقاشين؟ كان يشبهه ، انحناءة الكتفين والرقبة الطويلة

وهالة الاحلام الراقصة حول رأسه . المشهد لم يدم سوى ثانية ثم غاب ، وتركه في حيرة .

أهو في حلم ؟ هاهو سريره الواسع وستائر النافذة والباب . . . .هاهي المرآة الطويلة المحاطة باطارات حديدية مذهبة . . . .وتلك لوحة الغجر التي اشتراها من سوق الجمعة ، مثبتة جنب الخزانة : امرأة تعزف على الناي تحت دالية مزهرة ، ينام على فخذها شاب ملتح ، وسط حقول مليئة بالشقائق الوانها حمر وصفر ، وفي البعيد تلال مغطاة بالعشب يعقبها امتداد لسماء فسيحة .

***

اعتاد على تشنج رجله ، واعتبره جزءا من حياته . وهي ليست المرة الاولى التي يحدث فيها . بدأت الحالة معه منذ سنوات . . . وقتها لم يصب الا الاصابع ، وتحديدا الاصبع الكبير وجاره ، ثم اخذ بالازدياد في السنين الاخيرة ليشمل القدم كلها ، الى ان اصبح اليوم في ساقه . صار يخاف النوم ، فهو لايصيبه الا حين ينام .

فسّره احد الاطباء بأنه نتاج ازمة عصبية وروحية ، قلق داخلي عميق ومكبوتات ورغبات مقموعة وخوف وذكريات قديمة ، ذات نكهة مرعبة لايريد العقل ان يراها بعمق . حالة نادرة ، ان اصابت شخصا عليه ان يبحث لها عن سبب وحل ، والحل نائم في لاوعي الانسان ، في سنيه الأولى ربما ، او في كهف مظلم لم يصله النور ودونه الظلال والحفر والاشباح والكائنات الشائهة والصور الغامضة الرموز والمفاجآت . قال ذلك الرجل الحكيم بوثوقية ذات مصدر علوي : على الشخص ان يعالج قلقه الداخلي ، كي يصل الى حالة الاسترخاء ، حالة القبول لكل مايراه ويسمعه ويشمه ويبصره ويذوقه . ليس هناك من طريق آخر . اذا اهمل نفسه سوف ينتشر التشنج في العضو المصاب ، بعدها الجسد كله ، الى ان يسقط في غيبوبة الشلل العام ثم الموت .

صورة ذلك الحكيم تتراءى امامه بوجهه الملتحي وعينيه الرحيمتين ، كلما افاق على الالم . لا يريد ان يموت ، فالموت غير مريح . عالم يمتد في مكان لم يرجع منه احد . يتخيله رحلة لاتنتهي ، فيه يتحول الانسان الى جوهر خالد ، لكنه غير معروف . وهذا مايفاقم تردده امامه ، بل وحذره منه ايضا . يفكر انه حين يصير اكثر حكمة سيتقبل الفكرة دون خوف .

صوت المطر يضرب السطح ، والريح تزأر في الاشجار القريبة من شباكه ، وتركض على المداخن والقرميد ، تحرك العلب الفارغة محدثة ضجة في الحارة . ثمة رجل يسعل في احد البيوت ، وطفل يبكي بكاء متواصلا ، ومشاجرة بعيدة بين شخصين حولها الليل الى مايشبه الهمس . القطة التي واصلت مواءها منذ المساء صمتت قبل قليل . والتشنج لايستغرق ، وكما جرب ذلك سابقا ، الا دقيقة او اقل ، تستعيد رجله بعدها وضعها المسترخي ، لكن يبقى فيها الم خفيف في العضلات . اراد ان يتذكر ان كان رأى كابوسا او مناما بشعا؟ لاشيء سوى الالم ، الالم وهزيم الرعد وقرقعة المطر على الاسطح وفي المزاريب .

الفصل الثالث

بيته مركون في هذه المدينة .

من اين جاء لا يعلم ، الى اين يمضي لا يدري . كيف يدبّر اموره ، لم يعد الامر صعبا ، فهو يتقن كثيرا من المهن . درس اختصاصات عدة ، ويتكلم اكثر من لغة . ما الذي يفعله هنا امر ماعاد يهمه فقد كف ، ومنذ فترة عن السؤال . اسمه الآن سلام ، وهو اسم لايعنيه كثيرا ، كما انه لايوحي بشخصيته . كان له اسماء كثيرة ، فالظروف التي مر بها هي التي فرضت عليه الأسم . فأول ما خرج من البلد سمى نفسه رحيم ، وفي المجمع الذي عاش فيه مثل سجين ، كان اسمه سمير . حتى الفترة التي قضاها مريدا لياسمين كان يحمل اسما آخر . جعلهم ينادونه باسم حميد ، وهو على قناعة تامة ان تغيير اسم الكائن لا يغير كثيرا من وجوده .

بعض المدن تنادي الشخص من بعيد ، ترسل له اشارات غامضة ، كما لو انها تعده بعمل ما او بمهمة لابد له من انجازها . وهذه المدينة نادته الى احضانها كي يدون كتاب ياسمين . احس ان وجوده فيها لايحتمل تفسيرا آخر . . . .

يريد ان يحيا يومه بعمق وقوة ، دون التفكير بالماضي ، ودون رسم خارطة لما سوف يأتي من ايام وشهور وسنوات . كائن من لحم ودم واحلام ورغبات ،

لايطمح الى شيء اكثر من الحفاظ على حياته . مثله مثل صخرة الجبل الساكنة منذ ملايين السنين او قطرة الماء الساقطة من السماء وهي تغور في الارض وتتحول الى ورق وديدان وعرانيس ذرة وزهور ومحيطات . شخص تساوت لديه الاشياء والكائنات حتى اصبحت كلا واحدا . عليه الخلاص من هذا التشنج ، والا سيقضي عليه ، قبل ان يستنفد الحياة التي وجد روحه فيها . سببه كامن في داخله ، ينبغي البحث عنه ، اخراجه الى النور ، مواجهته ، التطلع فيه ، رؤية جذوره وساقه واوراقه . هل هو ابن طفولته؟ هل جاء من هناك في لحظة خاطفة؟ اين وكيف؟ طفولته كانت قاسية حقا ، عاشها تحت سلطة اب طاغية وام بليدة . لم يكن مميزا بشيء ، اللهم الا ضعف بدنه وخجله العميق وخوفه من الآخرين . عليه ان يواصل الحفر في داخله كما اوصته ياسمين ايضا .

اصابه الداء في ليلة باردة غريبة . ورغم بعدها عنه ، الا انها حاضرة دائما امامه . تحولت من ذكرى ، الى شريط مكرور مجسد كما الاشكال التي تحتل جدران غرفته . في لحظات التأمل بتلك الليلة كان يرى اصغر التفاصيل ، تحضره الاصوات التي رافقته ذلك اليوم . كانت ليلة شكلت برزخا بين حياتين ، وكان فيها هاربا عبر الجبال مع سعيد بلحيته الكثة وعينيه التتريتين وفمه المزموم على سيجارة لاتفارقه . التقاه صدفة في احدى القرى ، سميت قرية البغال ، لان فيها آلاف البغال ، سائرة ومربوطة ونائمة ومتسافدة وآبقة . وجد سعيد جالسا على دكة خشبية في المقهى الوحيد ، وكان مثله يروم عبور الحدود ، هربا من حرب او كارثة ، فاتفقا على المضي معا .

كان يوما ثلجيا عاصفا . مشيا في طرق جبلية ، صاعدة ونازلة ومتسللة ، واجتازا غابات اسبندار وعفص وعين الذئب ، والتقيا برجال مسلحين وخاضا في ثلوج ، ولم يعرفا الا لاحقا انهما كانا بين اصابع الموت وانزلقا منها باعجوبة . سمعا ان تلك المدينة تستقبل الهاربين من الحرب ، فيمما صوبها . رأيا خلال الرحلة ، آثار ثعالب وارانب وضباع على ثلوج بكر تساقطت طوال ايام ، وبيوتا من حجر تنفث دخانا ازرق ، وبقرا مدفونا تحت الارض . اجتازا حقول الغام دفنت

في ترابها عشرات الرجال . ثم استقبلهما اشخاص ملتحون يحملون اسلحة متنوعة ، واول ما رأوهما يطلان من فرجتي تل خاطبوهما باصوات باردة : نجوتما . . .كتبت لكما حياة ثانية . اخذوهما الى بناية عالية وادخلوهما الى قاعة واسعة فيها عشرات الاسرة ووجدا بشرا مثلهما ، كانوا هاربين ايضا . قدموا لهما العدس وخبزا طازجا فأكلا بنهم ، فهما لم يذوقا طعاما خلال النهار . ثمة رجل خدعهما ، في قرية البغال ، اخبرهما ان الطريق لايستغرق سوى سويعات .

ماكادا ينهيان عشاءهما حتى القى رأسه على الفراش مثل جثة . سمع الساكنين يسألون عن هوياتهما ومن اي المدن قدما ومن هما ، وكيف كانت عاصفة الثلج . لم يكن يمتلك القدرة على فتح فمه . افاق منتصف الليل على الم هائل ، في رجله اليمنى . اصابعه وجدها متيبسة . حرك ساقه فأحس بتمزق في عضلاته ووخزة مثل طعنة في القدم . خاف وقتها من غنغرينا الثلج ، لقد مشيا نهارا كاملا في العراء . قال لنفسه سيزول الالم ما ان استعيد قواي وارتاح . الا انه كان واهما ، فذلك التشنج لم ينقطع عنه منذ تلك الليلة . لايعاوده يوميا ، بل يضربه وقتما يشاء ، حسب المزاج والوضع والجو . والادهى انه راح يشتد عليه حتى سرى الى ساقه ، استوطن ربلة الساق المكتظة بالعصب والعضلات .

خاف ان يكون سرطانا او تسمما بطيئا احدثه الثلج ، سيفتك به بعد وقت ، مما ضاعف قلقه ، وصار يخشى النوم . وقع تحت سلطة الارق ، والخوف من نهاية غير متوقعة . راح يسأل ويستفسر ممن لهم خبرة في هذه الاشياء عله يجد دواء لحاله . او يعثر على جواب مقنع ، يسير بهديه . ظل مسكونا بذلك الهاجس الى ان التقى بالطبيب صدفة . هل هو طبيب ام حكيم؟ !! كان داهية بحق ، درس كما قال العلوم الروحانية والنفسية واختص بالاعصاب ، وحالاتها . يعرف شيئا عن العلاج بالابر الصينية ، والتشريح ، وقرأ الفلسفة ، وهو يتابع علوم الكون والاكتشافات الحديثة والدراسات حول النجوم والثقوب السوداء وتحولات المجرات والاجرام . درس في الهند فلسفة بوذا وعاش في احد المعابد الهندوسية يعزف الناي ، ويرسم دوائر الوجود برمل ملون . ساح في صحراء الجزيرة باحثا عن مدن

مدفونة في الرمال ، وتخصص بفك اللغات القديمة البائدة . تتلمذ ذات يوم على يد واحد من شامانات استراليا التقاه في احدى المدن الأستوائية . له خبرة عميقة ، واسعة ، غريبة في الحياة . عيناه كأنهما جمرتان ، يرتاح الواحد حين يحدق فيهما . صوته مهدئ ، يمنح الاذن طمأنينة هائلة . ويردد بين الحين والآخر اشعارا صوفية وحكما جاهزة ، تضيء السبيل الى مملكة السعادة .

قال انه يمارس التأمل ويؤمن بقدرة الانسان على شفاء نفسه اذا امتلك الارادة . التقاه على متن طائرة ، كانت متجهة شمالا . شرح له وضعه بالتفصيل ، منذ الطفولة حتى ليلة الثلج تلك . كان يصغي بعمق ، وكان متلهفا لسماع رأيه . قال له لاتخف ، ليس لمرضك علاقة بالجسد . انه ليس سرطانا او تسمما كما تخشى . ولا تليفا سيسبب لك مضاعفات خطيرة . انه ببساطة ، مرض نفسي ، او روحي بالتحديد . شرح له كيف تؤثر حالات الانسان الداخلية على جسده ، وضرب له الامثال وحكى له القصص حتى اقنعه ان حالته تحتاج الى علاج من نوع آخر . علاج لا تدخل فيه الادوية من مضادات ومقويات وعقاقير . قال له عليك الاشتغال على روحك وجسدك ، انهما متلازمان ، متداخلان ، هذا في ذاك وذاك في هذا . ليس امامك من طريق غير الدخول في البئر المسمى روحك . فتش في دهاليزه عن سبب الداء . لم يقل له كيف ، من اين يبدأ وما هو الطريق الذي يسلكه . اما انه لم يقل له او انه نسي ان يسأله ، الا انه مقتنع بعمق انه القى المفتاح في يده . عليه ان يجد الباب الصحيح ، ويلج الى تلك الجنة المصنوعة من اطياف وخيالات وعيون ومسالك لم ترسم في خرائط .

عليك ان تعالج نفسك بنفسك قال . لكن اين؟ في اي مدينة وعلى يد من من البشر؟ ومن اين يبدأ . قال ابحث في دهاليزك ، لكن كيف؟ اسئلة كثيرة تركها ذلك الرجل ، وهو من عليه ان يجد الطريق . هو بحاجة الى استرخاء داخلي . لقد خرج من متاهة عجيبة ، متاهة حرب او كارثة ، اكل الجثث ، نام في العراء ، حارب في الجبال ، سجن وتشرد ومرض ، وكاد ان يجن في ذلك المجمع . سيشتري اكسير الاسترخاء بأي ثمن ، او يصنعه بيديه او يدله عليه احد . فحالته

خطرة ، ووجوده مهدد ، والموت قريب . ولايهم ان كان اسمه سلام او حميد او مأمون . لايهم ان كان اسمه جميلة او مرام او ياسمين ، فهو خليط من اشخاص واحداث ، وفي جسده جزء من الآخرين حتما . كلهم ينطقون بلسانه .

***

المدينة لا تبعد كثيرا من هنا . بعماراتها وجوامعها وحاناتها ، بأزقتها وبشرها واضوائها ، بموبقاتها ومباذلها . على طاولته اوراق من كتاب ياسمين المجزها البارحة ، وكانت الأوراق تشع مثل الفوسفور . خمن ان ذلك الاشعاع ماهو الا افكاره التي كتبها . الم تقل ياسمين ذات يوم ، ان الأفكار مخلوقات مجسدة؟

وجد امامه بدلا من المزهرية صحنا عميقا من الزجاج مليئا بالماء ، والماء يتدفق بلا انقطاع من حنفية ضيقة ، تقف عليها حمامة رمادية ، تتطلع الى شيء ما . على حافة الاناء وقفت حمامتان متقابلتان تحدقان في الماء دون ان تشربا . بدا له الماء الراكد في الاناء مثل كتلة من الرمل ، ومن عجبه ان الماء يلامس حافة الاناء العليا لكنه لايزيد ولاينقص . شكلت الطيور مثلثا له معنى ما بلاشك . لماذا المثلث ، وما علاقة المثلث بالماء والحمام؟ لا يعتقد انه رأى ذلك قبل اليوم . رأى حماما يطير وماء يتدفق واناءات زجاجية وفخارية وشمعدانات وصحون وفناجين قهوة . رأى الكثير لكنه جعل من المثلث رمزا ، في بيته الصغير ، رأسه الاعلى ستارة موسولين ، ورأساه الطرفيان خيالات تطل من دنيا بعيدة . دنيا المرأة الراقصة والرجل الذي يقفز في الهواء ملفوفا بالضباب والغجرية تعزف على ناي في الهواء الطلق ، لموسيقاها هيئة مادية تتجسد نساء عاريات واشجارا ، يجري فيها دم احمر ، وبيوتا من هلام تغيب ما ان تتشكل .

مشى بضع خطوات على سجادة الغرفة . مضى الى الحمام وتبول ثم شرب كأسا من الماء ، ووقف في الممر ، ناظرا الى قطرات المطر ، متأملا في واجهات البيوت . النوافذ مغلقة ، الاجساد تتعانق خلف الستائر ، او تحلم مثله ، او تتألم

مثله . المدينة هاجعة تحت مطر شتائي عات ، والاضواء مضببة حمراء وصفراء وخضراء . اصوات نائية لسيارات تمرق في شوارع لابد ان تكون موحلة ، يسيل الماء على ارصفتها جارفا اعقاب السجائر والعلب واعواد الخشب وبقايا الثمار . الانوية والسيلوفان والاوراق الصفر وجثث الطيور الصغيرة التي ابادها البرد او صعقات الكهرباء . النمل في الحقول والثعالب في اوجارها والناس نائمون ، وهو يحدق في ليل رطب وجدران . . . . .

حيى الصراصير في الحمام والطناجر البيض المركومة فوق الخزانة وسلة الازبال المستقرة ، منذ ان قطن هذا البيت ، تحت المغسلة وملابسه المنشورة على الحبل المشدود بين جداري الممر . حيى الغيمة التي امطرت وايقونة الرجل المتوج بالشوك والستائر واحذيته المرصوفة بانتظام على البلاط والشجر الباكي امام بيته ونقوش البلاط السود وسريره وطاولته وذلك الاناء الذي لايزيد ماؤه ولاينقص والحمامات اللائي رسمن مثلثا للذة . حيى كتاب ياسمين بغلافه الأسود والأوراق المبعثرة وقلقه الداخلي واسمه الذي ضاع في زحمة الاحداث والبلدان والاماكن ، بعد ان نجا بجلده من حرب او كارثة او زلزال . قذف جسده الى السرير كي ينام دون الم او لذة ، دون ذكريات واوهام وخطط . ينام نوما مجردا ابيض مثل شاشة واسعة او حقل رمل بلا حدود .

***

انه يكاد يسمع صوت ياسمين واضحا ويرى التماعة عينيها وهي تنظر بثبات الى مريديها . بل وفغمت انفه رائحة الياسمين المزروع في اصص فخارية وخبأته في غرفتها . لقد اكتشف الأمر صدفة . ومع نفسه يتعجب كيف امتلك هذه القدرة على استحضار تفاصيل الماضي البعيد ، الروائح والألوان وطبقات الأصوات والحوارات؟ اعتبر ذلك واحدة من اهم مواهبه التي منحته اياها الحياة . ورغم انه عاش عمره شخصا غير مميز بشيء الا انه كثيرا ما اعتبر ذلك ميزة داخلية قلما

يمتلكها الآخرون . وهي ميزة رفيعة بقدر ما هي متعبة . نعم ، قالت ياسمين قوموا فقاموا ، وكان المساء على وشك الحلول .

ازاحوا المقاعد الخشب الى الزاوية ، واخذ الفضول يتشبث به ، انه لا يفهم بالتحديد ما الذي تفكر به .اصبحت الصالة واسعة وكانوا وقوفا ينتظرون ما تقوله او تقرره هذه المرأة الاثيرية . لم يتكلم احد . لبث في محله ثابت القدمين ، يحس بملمس الموكيت الخشن ، ويتطلع الى الشمعة المنتصبة في الوسط . انحنت عليها ياسمين ووضعتها قرب الجدار حيث تجلس ثم امتدت يدها الى جهاز تسجيل فضغطت زرا من ازراره فما كان من الموسيقى الا ان تملا المكان . قالت سنرقص رقصة الفرح نصف ساعة . على ايقاع الموسيقى كل يرقص رقصته ، يحرك جسده انى يشاء ، يمنح روحه حرية الانطلاق وملامسة الهواء . فتحت النافذة فدخل هواء بارد لذيذ ، ثم اخذ جسدها يتمايل مع الايقاع بعينين مغمضتين .

كان تلك الفترة غير معتاد على الرقص . امضى عشرات السنين منكمشا داخل جلده ، يداه بالكاد يحركهما ، ومشيته غير واثقة . قتل ابوه كل ثقة في داخله ، اذ اعتاد ان يكون رقيبا على حركاته منذ الصغر ، حتى تخرج من معهد التربية . كان يحب جده اكثر من أبيه ، اذ دأب على مشاركته العابه وتسلياته مثل طفل . لا يتحرك الا حين يروم القيام بشيء ما . اما ان يرقص دون هدف فأمر لم يعتده ولا خطر بباله . لذلك كان جسده ثقيلا ، ايقاع الطبل والبيانو لايدخل الى روحه . يظل معلقا في اذنيه ، ينتظر في المسافة الفاصلة بين الاذن والرأس . وان دخل فهو لايلامس خلاياه . كان يتمايل وقتها مثل الآخرين ، بحذر وخوف وتردد ، وهذا ما كان بارزا بلاشك للعيون . صاحت ياسمين بعد لحظات ، ارقصوا اعنف فاعنف ، دعوا الموسيقى تدخل اجسادكم ، لا تفكروا بها . حركوا الايدي ، ارفعوا الاقدام عاليا في الهواء ، دقوا الارض بعنف ، اشعروها بوجودكم وسوف تبادلكم الشعور نفسه . ستمنحكم احساس انكم موجودون هنا والآن ، في هذه الحياة . دعوا خلاياكم تتراقص في مكمنها ، افتحوا افواهكم فالهواء بارد

والشمس نور . كان يحس ان الكلام موجه له وحده ، عليه ان يقفز ويضرب الارض بعنف ، يحلق مع هذا الفيض الموسيقي الى سماوات الروح والنشوة ، ويعيش الطقس الجماعي دون خوف . . . .

مغمض العينين بدأت النشوة تأخذه الى اصقاع روحه . يغيب عن الصالة وتترى عليه الوان عجيبة ووجوه ومشاهد . تبرز له من ضباب كثيف تلك المرأة بجسدها المستقيم وشعرها الاسود المتطاير ، على حافة بحيرة ماؤها صاف مثل مرآة . تناديه فلا يستجيب . كانت بين الشك واليقين امه ، لكن امه سمينة ردفاها ثقيلان وقصيرة ، وعيناها خائفتان . لايمكن ان تكون هي . لم تداعب وجهه يوما بأنامل رقيقة ولا احتضنته بين يديها ، ولا اشعرته انه ابنها المرغوب . اما هذه الواقفة على حشيش البحيرة فتعابيرها انثوية جائعة للوصال . يمد اليها يده عله يعثر على امه ، فتتلاشى في الضباب دون ان تخلف سوى صحراء . اين الماء ، اين العشب الاخضر ، اين الملابس الزاهية والشعر الناعم؟ اين هالة الام التي شم اريجها؟ اعضاؤه تتمطى قليلا قليلا ، يدب فيها الماء ، تطرى وتتموج ، فيدور في الفسحة المحصورة بين الباب الضيق ، ونبتة المطاط والشباك الزجاجي . يرتطم احيانا بامراة او رجل ، البعض يتمايل بهدوء والبعض الآخر بعنف كما لو يريد الانتقام من جسده .

كانت ياسمين تتسلل بجسدها الصغير بينهم ، مادة غير محسوسة . سائلة مثل ماء ، راقصة كأنها فراشة حقل . هكذا لمحها حين فتح عينيه ليرى مايدور حوله ، ثم اغمضهما شاعرا بالذنب . رفعته الايقاعات المتسارعة الى قمة الروح . يفتح حواسه اجمع ، يشم عرق الاجساد ، المعطر ، ويصبح الهواء ارجوحة . يقفز في الهواء مثل نورس ، يعتلي بطيرانه جبلا مغطى باشجار العفص ، يتملى من دروبه وقممه ومهاويه عيون الماء المحاطة باشجار التين والتفاح والعنب ، له جناحان من ريش ابيض يدور بهما فوق سهوب خضر وصخور تشبه البشر ، ثم يغوص في زرقة السماء لا اتجاه يحتويه ولا ارض تضمه . يرقص بانفلات ، دون خوف او تردد . الايقاعات امواج تضرب شطآنا من صدف ومرمر . يدور في الصالة عله

يتحول الى ورقة من مطاط او عقد في جيد امراة او نظرة تعجب في عيني رجل من الحاضرين . انه خارج الزمن ، شخص مصنوع من خيالات ورؤى واطياف . الموسيقى تتغلغل في خلاياه والهواء يطيره على بساط اخضر . لهاثه يتصاعد وهمهمات داخله تنثال من اعماق سحيقة لها امتداد ملايين السنين .

اوقفت الموسيقى بغتة ، فاحس كما لو انه يعود الى ارض رخوة ، رخاوتها تشبه الاسفنج . فتح عينيه وجد الكل يحدق فيه . كانوا يحيطون به مثل اسوارة ، ياسمين تبتسم له غير مصدقة انفلاته . قبل دقائق كان جسده من خشب ، وروحه مياه عكرة . كم رقص وحده ، هائما في تجلياته الداخلية ورؤاه؟ لا يعرف . اين تلك الجبال ومعارجها المكتظة الاشجار؟ بل اين تلك المرأة التائهة على حافة البحيرة؟ ريشه وجناحاه كيف اختفت وخلفته كائنا من اهاب رقيق وأنامل؟

كانوا يحدقون به ويبتسمون .

تقدمت منه فتاة سمراء ، ناعمة البشرة ، عميقة الالم في روحها وطبعت قبلة على جبينه . احس وكأنه ولد من جديد . نعم كل شيء جديد حوله . فناله العجب من نفسه ورجع اليه الخجل فسارع الى اقرب مقعد ، التقطه وجلس مثل الآخرين حول تلك الشمعة الموضوعة في اناء الزجاج . هم الآن دائرة مركزها شمعة ذات لهب اصفر ، يتأرجح يمينا وشمالا . نور . ضوء . مخلوق اثيري . له سمة الصعود الى فوق . يروم الرجوع الى نور اكبر . وعيونهم منغلة في النور ، على رعشاته تشابكت ايديهم ، واغمضوا حواسهم برهة . عليهم ان ينتموا الى عالم الصفاء . توحدهم اصابعهم في دائرة وسطها ضوء . لبثوا دقائق دون صوت ، دون حركة ، الى ان فكت ياسمين يديها من أيدي الجالسين حولها فسرت فيهم رعدة الانفصال . قالت ماقمنا به اليوم يكفي . سنعاود الرحلة في الايام القادمة . خطوة خطوة ، حتى نصل . لا تتعجلوا بلوغ الهدف ، فالرحلة متواصلة .

الفصل الرابع

نعم انها رحلة متواصلة بدأها منذ ولادته ، وربما قبل ذلك بقرون . . . . قال لنفسه وهو يتمشى في الساحة المكتظة . جاء الى الساحة كي يشتري طعاما ويتسلى برؤية البشر . فكر بشراء طير جاهز ، حمامة او دجاجة او بطة ، كي يعدها للعشاء . وجد دجاجا معلقا في خطاطيف وطيورا مكومة على عارضات خشبية امام الدكاكين ، ولم يجد اثرا للبط .

وبعد جولان طويل على المحلات ، اشترى السمك النهري ، فالاسماك مخلوقات لا تشعره بالذنب حين يراها في المقلاة او مقددة على النار . عاد الى البيت ، رضي الروح . اصوات العصافير الملونة ، وضجة الدجاج في اقفاصه ، ونداءات الباعة على الحمام والسلاحف والارانب مازالت تثز في رأسه . ساقاه يختزنان طاقة هائلة ، رغم ان التشنج زاره في الليلة الماضية وكان اخف مما سبق . قال لنفسه ينبغي الاحتفال بهذا .

سيشوي السمك هذا المساء ، مع شراب الريان المصنوع من كروم الجبل ، وفي متناول اصابعه جسد المرأة . سيرقد عليه ويثير نشوته ويلصق صدره بصدره الى ان ينسى جميع اوجاعه . قالت انها آتية دون ريب . تلك الخائفة ، التي وجدت ملجأ في احضانه . المرأة المحبة للقطط والشراب والمرآة . سيكون جسدها على الارض ،

املس ، معطرا ، تشع فيه السرة الغائرة ، والثديان الخمريان . اصبحت حياته غير محتملة دونها . أحبت الحارة المغلقة التي يقطن فيها وشبهتها بالرحم ، في أول زيارة الى بيته . يمكنه التفريط بالطعام والكتب والشراب والمسكن المريح ، لكنه لا يستطيع الاستمرار في العيش وحيدا . دون ذلك التمثال السحري المرفوع اليدين ، بثدييه النافرين وعجيزته وساقيه ، والقوس الواسع المبتدئ من الورك المنحنى عند الاضلاع ، السائر نحو الفضاء مارا بالذراع الشبيه بجناح يهم بالتحليق . . .

وضع الكيس في المطبخ ودخل الغرفة ليرتاح . تمدد في السرير ، وجد امامه ثلاث نساء ، يتكئن على ارائك من ريش . عاريات بأجساد مشدودة ، الاولى تنام على يدها اليمنى ، شعرها مرفوع الى الاعلى ، نصف وجهها مضاء . تحت يدها اليسرى ترقد قطة بيضاء ، مستسلمة لدفء الثدي وهو يستقر على رأسها . كفلها مدور وفخذاها مكتنزان . تنظر بحنو الى المرأة الثانية التي لا يرى سوى ظهرها . خط الظهر ينحدر من الرقبة المائلة حتى ملتقى الردفين ، غطت ، بملاءة بيضاء ناعمة ، فخذها الايمن . هل هي نائمة؟ منكسرة؟ ساقاها نحيلتان ، وكأنها لاتتغذى من الارض . انها بحاجة الى تأريض . الثالثة عيناها حزينتان ، تطوي ذراعها تحت خدها لتحيط بالرأس ، نهداها نافران . فمها مزموم ، وجهها كامد ، وهي تدير ظهرها للمرأتين . امام بطنها رمانتان قشورهما حمر ، وجنب الرمانتين مزهرية مفتحة الزهر ، اوراقها حمر وبنفسجية وخضر ، مغروسة في فسقية مربعة ترابها رمادي . في اذن تلك المرأة قرط على شكل زهرة لوتس ، بيضاء تشع مثل نجمة في ظلام الشعر . نساء في مرايا الخزانة يلهون ويلعبن ، منذورات للشهوات والحب ، انهن ظل منعكس عن ظل آخر مطلي بالالوان .

في الهواء موسيقى كورالية لمنشدين يغنون بلغة لا يفهمها . صوت المغني الرئيسي عميق كأنه قادم من عالم الموتى او من اسفل الروح . تصاحبه ايقاعات بيانو ، ثم يتغير الصوت من طبقة الضخامة الى طبقة الخفوت فيصبح اثيريا ، متحدرا من جنة او سماء . ذئب ينوح في برية والنوء عاصف . طبل يدق في غابة بامبو ونمر متحفز للوثوب . في الصوت انكسارات انهار وانهيارات جبال وحريق

غابات ، وحروب او كوارث ضربت الاصقاع ذات مرة . شامانات استراليون وكرنفالات استوائية وآلات نفخية تشي بأعماق النافخين . موسيقى تبعث القشعريرة في الاعضاء ، تجرها الى تمتمات دون كلام . تحول الروح الى قرط بني على شكل قلب تتدلى منه ارض صغيرة بحجم لوزة . العين لوزة والجيد عاج وبسمة الوجه اقاحة تفتحت في صباح ربيعي ماطر . هل يستطيع ان يصوغ من كتاب ياسمين موسيقى كورالية ترفع قارئه انجات عن الأرض؟ تسمو به الى الاعلى ، بعيدا عن حاجاته اليومية التي لاتنتهي؟

من وراء الباب تناهت الى سمعه حركة اقدام ، فقام من رقدته مسرعا . لايمكن ان تكون صديقته ، لم يحن اوانها بعد . فاجأته قطة مندفعة الى الممر ، شعرها اصفر ضارب الى الحمرة . لقد هاجمت السمك مثل لص ظريف . شاهدها تقفز الى الحائط الخفيض ، وتنزل نحو الجيران . سمع وقع خطواتها المتلاحق وسمع امرأة ورجلا يتشاجران في المنزل الاسفل . هو يسميها بالكلبة النابحة وهي تدعوه بالثور الهائج . ود لو انه لا يسمع كلماتهما ، لا يرغب بالاطلاع على اسرار الناس . حمل السر مرهق ، والكلام اسرار . ضوء المصباح يكشف الاغراض المتراكبة في سقيفة المطبخ ، السرير العتيق لنزيل قبله ومنشر الملابس مطويا في قعر السقيفة وقضبان الشواء التي اشتراها قبل شهر والمدفأة البنية اللون . براغي ومفكات واحذية عتيقة واكياس معبأة بالجرائد . صور والبومات لوحات ومناظر طبيعية غطاها الغبار ، ينبغي له الخلاص منها . سيتخلص من الماضي بأي ثمن ، لكن عليه ان يعرفه في البداية .

ما يبحث عنه ينام في السقيفة . لكن ماهو؟

تناول المنقلة من بين الركام ، ووضعها في الممر . جلب الفحم من الخزانة ، كومه بانتظام ، ثم وضع الناعم ، تحت ، مع قش واوراق ، والخشن في الاعلى ، وسكب قطرات من المازوت واشعل النار . تصاعد الدخان في الممر ، طارت حمامة مستقرة على السقف البلاستيكي المضلع ، وهربت اسراب من بعوض او ذباب لاط في بؤرة معتمة لا يراها . ثمة الكثير من الاشياء الصغيرة التي لا يراها

في هذا الوجود . عضلات ربلته وشرايين الساق وبؤر جسده وعروق شجرة الفلفل البري وشراشف جارته المفروشة على السرير بعناية وفخذ السيدة الاملس الذي نظفته في الحمام بمعقود السكر . غناء يرتفع به الى ذروة الاغصان وغناء يطيح به الى التراب . هدأت السنة النار ، دخل المطبخ وبهر السمك . ملّحه بعناية ، وجلب شبكة الحديد ثم وضعها على المنقلة . . . . . .

جاءت صديقته ، في وجهها تعابير يائسة ، صوتها بالكاد يخرج من فمها . دهشت من النار ، والسمك ، واللهب يشوي الفحم فيتحول الى زمرد يتلظى . غسلت رجليها في ماء ساخن ، ونشفتهما بمحارم ورق ورشت عليهما رذاذا من الكولونيا . لقد جاءت لتدخل عالم السرور والرغبات . عالمه الملون الذي يتجدد كل يوم كما قالت . سكبا كؤوس ريان ، وجلسا حول النار . كانت صامتة ناعسة مثل قطة .

***

الحرارة تداعب المخلوقات الراقدة على الشبك باصرار ، تتغلغل في نسيجها الرخو ، تذيب فيه البهار والفلفل والملح . تتصاعد رائحة لذيذة تعم الممر ومخلوقاته النائمة في الغرفة . الغجرية صاحبة الناي والرجال المسلحون والحمام المثلث ، والبيت المحترق على الرابية . شكل اصفر كأنه مقعد تمتد من مقدمته اليمنى ذراع طويلة تغور في سواد ، وتحت ذلك المقعد ملاءة ذات مربعات بيض وسود ، شفافة تشبه جلد افعى . قرب الجلد مسيل احمر يجاور عمودا من الرماد ، يتطاول مع صفائح من اللازورد الابيض والاخضر كوّنت هيئات لارواح عصية على التحديد . كل هذا تمثل له في جمرة لاهثة لايزال قسم منها متفحما يستقبل قطرات الزيت بشهية . ثم وجد نفسه في جمرة اخرى مرتديا نعلين من الجلد ، يحيطه ضباب كثيف جعل الأشجار تندمج مع الأرض والأغصان تتلون بالدخان . رجله اليمنى في الهواء واليسرى فارقت حافة صخرية ، وفي الجو رائحة

اعشاب برية وتراب مبلول . انه في الهواء معلق بين حافتين ، تحته لا يبصر شيئا وخلفه ضباب . يريد ان يبلغ ارضا صلبة ، يستقر عليها . قفزته تطول ، والهواء يضرب وجهه وجلده يرتعش .

قالت مرام : النار سرها عجيب . تصعد دائما الى فوق . هل تمتلك روحا؟ كثيرا ماتمنيت ان اتحول الى لهب ، اتخلص من جسدي الضعيف ورغباتي التي لاتنتهي . يقولون ان البشر عبدوا النار لانهم وجدوها حارقة ، اما انا فأظن ان السبب الحقيقي هو انهم وجدوها جميلة .الانسان يعبد الجمال ، ولايوجد ماهو اصفى من النار .

قال : انظري الى الليل ، كل مافيه معتم وغامض . البيوت مغلفة بأسرارها ، والغابات ثاوية على حيواتها ، والجبال كائنات فقدت حسها . تخيلي هذا الفضاء الشاسع ، الشبيه بدخان اسود ، كيف تبدو الاشياء دون ان يخترقها ذلك النور؟ الظلام هو اللامعنى ، والضوء حقيقتنا . الضوء هو الذي يحول الاشياء عن احوالها ، وهو الوسيلة والهدف . الضوء يعني تحولات لانهائية . الشجرة تتحول في مفاحم مخروطية الى فحم اسود ، والفحم يسير الى دنيا الجمر ، والجمر يشوي سمك البحار ، وسمك البحار والانهار يتحول الى دم ، وهلم جرا ، والحكاية لاتنتهي .

قالت : كثيرا ما فكرت بالانسان ، ووجدته غامضا . رغباته الداخلية ومشاعره ، وكيف ينقلب من لحظة الى اخرى . انا مثلا ، تأتيني لحظات اود فيها مضاجعة جميع الرجال . وفي لحظات ثانية اتسامى فيها وكأنني قديسة . اضم الوجود بشجره وطرقه وناسه الى قلبي ويبقى متسع . احيانا اقوم بأفعال اتعجب ، في اليوم الثاني ، كيف قمت بها ولماذا . هل هي غيبة العقل؟ لم يحصل ذلك؟

قال : انت بحاجة الى الذهاب الى صالة ياسمين ، ستدلك على خريطة جسدك ، ولاشعورك العميق ، وتفسر لك كل مايستعصي على التفسير .

قالت : من هي ياسمين؟

فكر عدة دقائق بياسمين ، عله يجد تعريفا لها . صديقته تحدق في وجهه

باندهاش ، تنتظر جوابا ، الا ان ياسمين كانت عصية على التعريف . انها فكرة ، تجسدت في امرأة تقطن بيتا في جهة ما من هذه الارض . بيتها خفيض ، مريح ، محاط بالورود والملفوف وتظلله شجرة جوز ذات تاج هائل . تدرج في بيتها رائحة اليانسون والشاي الاخضر والبخور ، تلك الرائحة التي تفتح مسامات الجسد والروح . انها الدليل الذي كان بحاجة اليه بعد ان تقاذفته الريح في اصقاع الأرض ، وبعد ان صار الموت هاجسه . بعد ان تعب من الضجيج الذي يسكن رأسه ، ضجيج الناس الذين عرفهم وسافر معهم وعاش . ضجيج البنادق والهجرات والموتى . ضجيج الكلاب التي قتلها والنساء اللواتي هجرهن والعصافير التي قطّع رقابها .

قال : انها حكيمة التقيت بها ذات يوم . كانت مسافرة على طائرة نحو الشمال . كانت عائدة من استراليا ، تعلمت الحكمة على يد واحد من سحرة السكان الأصليين في احدى الجزر . وهي تؤمن بأفكار غير مألوفة ، تعتقد ان للحجر روحا ، وان الرمال كائنات حية والجدار ضوء والورقة لاتسقط من غصنها عبثا ، والارض خلية حية في نسيج هائل لايمكن لنا تخيله .

قالت : دلني عليها ، فأنا لا انام . تأتيني نوبات مثل الصرع افقد فيها السيطرة على جسدي . انني ابحث عن معنى لحياتي ، غير مهنة الرسم .

قال : لا اعرف مكانها بالضبط . ويمكنك ايجادها وحدك ، لو بحثت عنها .

قال لها بعد ان استغرقت في وهج النار : دعيني اقرأ لك حظك بمسبحتي .

قالت : اين هي المسبحة؟

اراها عقد المرجان ، ونظرت اليه بدهشة . تأملت الحبات بعمق وأرتدى وجهها حكمة الأنثى وفضولها .

قالت : انه عقد وليس مسبحة . لكن لايهم .

اوشك ان يروي لها قصة عقد المرجان ، او المسبحة ، منذ اشتراه ذلك اليوم في المجمع الذي امضى فيه سنة كاملة . لكنه اجل الحديث الى يوم آخر ، فمرام لا تعرف عن حياته الخاصة الا النزر اليسير . وبعد فترة من الصمت اتخذ هيئة

جادة ، حدق في الظلال والليل وعقد المرجان ، ثم بدأ يردد بآلية اتقنها جيدا : العقدة هناك ، في العشرين . تزوجت من شخص يعيش خلف البحار ، بعد ان رجع الى اهله فخطبك ، ثم اكتشفت انك لاتحبينه . انه يكبرك عشرين سنة . تحبين السلطة والجاه . وجدت انه عنين ، اراد ان يستخدمك فقط لاغراضه الشخصية وبناء مجده . قدمك الى اصدقائه المهمين المؤثرين ، رفضت اول مرة ، والثانية والثالثة ، ثم استسلمت في النهاية . الا انك لم تعودي تطيقين العيش معه . طلبت منه الطلاق . بعد سنة اغتصبك حبيبك في خرابة بعيدا عن البيوت . فقدت الثقة بالرجال . صرت تنتقمين منهم . تعطينهم اول مرة مايشتهون ثم تتركينهم وراءك . قلبك قاس مثل بلوطة . لم تعد القيم تهمك . تخفين مشاعرك في الاسفل .

تضحكين وفي قلبك جمرة من غضب . ايامك تمر دون معنى . تعيشين في الطرقات باحثة عن قلب واسع يضمك . امامك سفرة الى بلد حار محاط بالرمال وهناك شخص يحبك ، لكنه يخاف تجاربك السابقة . هاهو انظريه يقف وحيدا ويداه تمتدان نحوك . فقدت الثقة بنفسك لان كل احلامك احبطت ، وامامك سهب من دخان احمر . علّه يكون طائرة تقلك الى ذلك البلد البعيد لتعيشي فيه بسعادة . انظري هنا كيف يلتقي الميناء الابيض مع المشحة السوداء المشطورة شطرين . امامك طريقان عليك ان تقرري ايهما تسيرين فيه . لن يدلك احد على الطريق ، فانت محتاجة الى الشجاعة . هنالك قصور ملونة في رأسك ، كل قصر يحتوي على فارس احلامك . شبابيك مزخرفة واعمدة فخمة وانت تحلمين ان تكوني عروسا في واحدة منها ، لكن ذلك سرعان ما تلتهمه النار . انت كائن مصنوع من نار . . .

وعلى هذه الشاكلة دار الكلام حول ماتقوله المرجانات الملظومة بالخيط النايلوني . لا يدري ان كانت صدقت حديثه ام لا . كما دار حديث عن النار والليل ولغة الاجساد والحروف القديمة وكيف تطورت من جيل الى جيل ، خلال ذلك لم ينقطعا عن احتساء الشراب . السمك ماض في رحلته غير عابئ بهما ،

الى ان اتمّها ونضج على هفهفة الحرارة الفاحة من قاع المنقلة . وضعه في طبق ، مع الخبز والرمان . . . . .قدح يفرغ وقدح يمتلئ . . . . .والقدح من زجاج رسمت عليه زهرتان كل زهرة بخمس اوراق ، وقرب القدحين سكين تنتهي بسلسلة . نار وسمك وخمرة . وليل هذه الصبية التي تعرت امامه دون ان يشعر . في اصبعها الخنصر تلبس خاتما من فضة ، وفي يدها اليمنى خاتم من فضة فيه فص من حجر كريم رماني اللمعة ، يشتت لهاث الجمر الى سنى وذرذرات نور . جسدها يطمح الى الاتحاد مع جسده ، لتمضي عجلة الحياة ، قدما الى مستقر ما . ثدي الى اليمين وثدي الى اليسار ، تتدلى في الوادي الراكض بينهما حجرة بنفسجية مثلثة ، علقت بسلسال من ذهب . فوق السلسال وحول الرقبة عقد خرز ملون ، وفوق كل ذلك ليل العينين المتوثب لامتصاصه ، وتحويله الى طفل صغير يعيد دورة الارض .

من اين جاءت الغابة التي خلف الجسد ، باشجار سروها وعنبها ، بتلالها المتآكلة الحواف؟ وتلك الغيوم البيض البعيدة السابحة وراء المنظر؟ والملاءة البنية المتعرجة ، وهي تعكس بياض الغيوم لتخفف من دكنة النسيج؟ الاصابع نحيفة ، وقد صار يخشى المرأة ذات الاصابع النحيفة ، فهي باطنية المشاعر ، لا تصرح بما يدور في رأسها . صار يخشى الرقبة الطويلة لانها تمتد قنطرة بين العقل والقلب ، فأذا مايدور في الرأس غير مايدور في القلب . والقدمان القلقتان ، والساقان النحيفتان ، دلالات قلق وتعب ولا استقرار . انها بحاجة الى الدخول في كنف ياسمين ، هذه المرأة .

بعد انطفاء الجمر ، واختفاء السمك ، وتراقص الافكار مثل لهب ، دارا على ملاءات سريره ، وسجادات الارضية ، والارائك المخططة بالاحمر والابيض . لامسا زهور السجادة العجيبة باطرافهما . رقصا فوق الورق المجعد ومس الحائط ارداقهما ، في فورة ملامسة هذا الاثاث وتلك الخزانة والمرآة الضاحكة البذيئة المضببة وهي تتفرج على كائنين صارا واحدا . في الغرفة ضوء مصباح احمر ، يجعل للون الجلد مرأى حيوانات متوحشة تحدرت من غاب بري . حيوانان

يتسافدان ، تطلع من اعماقهما اصوات وحشية بلا لغة ، مضمخة بندى الغابات وطين الكهوف ولزوجة الطحالب السائخة في المستنقعات . هذه الحمرة الدموية ، تحيل الاشياء والكائنات الى حقيقتها الاولى . برهة انشطار الخلية واندماج الامشاج وتداخل المصائر والسمات .

***

كان الزمن يتقدم برجلين ثقيلتين ، اكتنزتا طاقة جبارة تكتسح كل شيء تمر عليه . انه بحاجة الى ماء ، ماء ساخن يندلق على جسده ، يلامس عصبه واوتاره وعضلاته . ينفذ الى اذنيه ، يغور في فمه ، يسيل على ظهره ويطهّر ما ظلم من زواياه . يريد ان يرقص فوق بساط من ريش ، ويشمر اعضاءه كل عضو الى مجرة . اصبع للتبانة . اصبع لنمر البنغال . رجل لبرج الجدي . ساق للشمس . عين للنجمة العاقة غير المسماة . يمشي في لجة الاحمر ، غير هيّاب ، عاري القدمين ، لا الشوك يدميه ولا الاغصان تخدش جلده . يحمله نهر ازرق الماء ، يسافر معه عبر ضفاف مكتظة بالغرب والصفصاف والعاقول . يتطلع فيه صبيان لاهون مع العابهم وقواربهم الورقية ، يكركرون ويصفرون ، بدوا مثل سمك يتفسح في هواء عذب . في الهواء اريج نفل وازهار جت وياناسون ، تفتح مسامات الجسد ، تربطه بالاحياء ماصغر منها وما كبر . الضفاف ظلال تميس ، واحراش تمنح العين فرصة للراحة ، مستقرة مياسة القة . على حقويه تترسب عيدان متفسخة ، وتنط من فوقه ضفدعة مدورة العينين تنق بصوت عال . الماء يحمله الى قنطرة قديمة ، مبنية من حجر ناري ، اسود ، وقوس القنطرة يرتفع بلطف فوق الماء . القنطرة وسيلة لعبور البشر . من ضفة الى اخرى . من عالم الى آخر . سيرقص حين يصل على انغام البزق ، والمزمار والدف . يشد وسطه بشال اسود ، يرفع يده الى الاعلى ، رجل الى الارض واخرى الى الباب . يرقص رقصة الضفدع والسمكة والنورس وبجعة الاهوار ، رقصة المرأة البيضاء ذات الشعر الطويل المتهدل على كتفيها ،

رقصة ياسمين ورقصة البدوي فوق حصانه الرمادي الذي يأكل الصحراء فطرا فطرا وكمأة كمأة ، انه احمر ثقيل ، قالت ياسمين ، يشع اسفل البطن ، باعثا لحرارة خفيفة . كل جسد يحتوي على مراكز تلقي الضوء على مختلف طبقات الشعور . مراكز تشع ، ما سفل منها احمر وما علا ابيض ، في تاج الرأس ، يشع ما خف من افكار وانوار ومحبة . المحبة ضوء الق كأنه صادر من مجرة . تلك المراكز بؤر روحية وعلاقتنا بها تحدد رؤيتنا للعالم الخارجي . حين تتوازن المراكز ينجح المرء بحل اشكالات الجسد ، الجنس ، العاطفة ، القلق ، التوازن ، التركيز ، الخوف ، الشجاعة ، الصبر ، المواجهة ، الشبات ، التناغم الداخلي ، الانجاز ، التحقق ، الحضور ، حتى الوصول الى درجة الحب ، منتهى الطموح .

كل واحد له جذر يربطه بالارض ، بالولادة . الام ارض ، والرحم ساق . الجذر مركز يقع في منطقة الاعضاء الجنسية ، للرجل والمرأة ، يدلنا على عالم المحسوسات ، يعطينا الارادة على ان نكون في هذه الحياة . في التواجد هنا ، في الواقع . نحن نتغذى من الارض ، واطرافنا هي الرابطة . لذلك اقول لكم ان التوازن في هذا المركز يمنح الشخص قوة الخلق والصبر ومعرفة كنه الاشياء . الصدمة في حياة الطفل تؤثر على هذا المركز كثيرا ، تضعفه للحد الذي لا يعود فيه تحمل الطاقة الكونية ، او لا يستطيع التحكم بها . الذين حدثت لهم صدمة في حياتهم عليهم اعادة بناء انفسهم ، اعادة بناء جهازهم المناعي الذي يمكنهم من مواجهة الحياة دون خوف . هكذا اشخاص ، عادة ما يكمن في دواخلهم خوف عارم ، خوف من الحياة والناس ، ولديهم شك كبير بحقهم في ان يكونوا موجودين . تعاليم ياسمين تلك تعتبرها بديهيات لا تحتاج الا الى الايمان بها . اما من ناحيته فقد كانت تستدعي التفكير العميق . فهل يحيا البشر هكذا حقا؟

كانوا واقفين ، راحات اياديهم مفتوحة ، الاذرع مسبلة ، الاقدام متقاربة ، منفرجة قليلا . كانوا في موضع التأريض ، وفي تأمل عميق يلغي ماحولهم من اشياء . اختفت جدران البيت وباب السور الخفيض وصبارات التليلات في الحديقة وتلك السجادة الشبيهة بالباب الاثري واوراق المطاط . غطس في نقطة

السرة وركز وعيه كاملا ، كما طلبت ياسمين ، ثم انحدر عبر الفخذ الى القدم اليمنى . انتقل منها الى اليسرى ثم صعد عبر الساق فالفخذ الى نقطة السرة ثانية . رسم مثلثا قاعدته القدمان ورأسه السرة . ربط عواطفه ودوافعه وحاجاته وبداهته وخلقه ورحابته مع الارض عبر القدمين ، كي يتواصل معها بثبات مكين . رسم مثلثا احمر ، راح يسبح فيه بوعي . ينبغي ان يكون ثابتا راسخا رسوخ الارض التي يقف عليها .

فكر اللحظة ان الامر كله لا يعدو ان يكون عبث اطفال ، او تهويمات متبطرين لأناس لم يجوعوا في حياتهم ولا واجهوا الموت عيانا . تساءل في سره من اين لياسمين كل هذه القناعة بما تقول؟ الا يمكن ان يكون الأمر انها كانت تبيعهم تعاليمها كي تعيش؟

كان المثلث الاحمر يظهر ويختفي ، حسب سيطرته على ذهنه . يشرد احيانا الى خارج الصالة ، اذ ينقله الاحمر الى ذلك البيت المحترق ، شبابيكه يراها مفتوحة وسقفه من القرميد وكانت النار تلتهب في الخشب . في الاسفل بقع مشتعلة قرب الجدار ، والنار مثل زهور ناعمة التويجات ترسل ضوءها في ليل عميق . يستعيد زمام نفسه ليرسم ثانية مثلث الارض بين السرة والقدمين . لاحظ صعوبة فائقة ، في الاحتفاظ به . طلبت منهم ياسمين الجلوس ، والتنفس بعمق كي يستعدوا لتمرين آخر سمّته التركيز . قالت ان الانسان الناجح غير مشتت الذهن ، يحصر تفكيره في قضية معينة فيراها بوضوح ، يلمسها ، يجس اطرافها وامتداداتها . التركيز يلغي التهور ، ولا يميل الى التردد . انه يحتفظ بالمسافة بين الاشياء ثابتة ، لايقرّبها اكثر مما ينبغي ولا يبعدها اكثر مما يجب . وهو باشد الحاجة الى التركيز . لم يعد يطيق سرحانه الدائم في الأحداث التي عاشها سابقا .

في الاستراحة شربوا زهورات ، وجلسوا يثرثرون في المدخل . من الشباك الصغير تنسكب اشعة حادة من ضوء الشمس ، تتراقص في فيضها ذرات من الغبار واحياء مجهرية وقصاصات ريش . فهم من الحاضرين ان كل واحد منهم

لديه مشكلة مع نفسه . الرجل الكث الشاربين يفتقد الى التركيز ، عقله لايعمل دون ان يكون مشتتا . انه مهندس مدني ، يشتغل في مكتب تصميم ، وهو يعمل على مشروعين في الآن نفسه . عنده في البيت جهازا تلفزيون ، كل جهاز على محطة ، يشغلهما في الوقت نفسه .قال انه لايطيق العمل على شيء واحد . جاء الى صالة البهاء طامعا في ياسمين الحكيمة ، علّها تزيل هذا الانشطار من روحه . الصبية التي طبعت قبلة على جبهته ، تتقيأ كل طعام تأكله ، تجوع ثم تأكل بنهم لتقيء ما ابتلعته بعد لحظات . انها تكره امها ، وتعتقد انها سبب مشكلتها . امها متسلطة ، ذات شخصية صارمة . فتاة جميلة ، شعرها اصهب وشفتاها كرزيتان ، طويلة القامة ، رياضية الجسد ، عسلية العينين ، في ذراعيها زغب ذهبي خفيف ، صوتها هامس والدفء ينسكب مع صوتها فيبعث الخدر في القلب والروح . لكنها تؤمن انها غير مرغوبة وليس لها الحق في التمتع بمباهج الحياة . لديها شعور عميق بالذنب . ظل الجميع يتحدث بصراحة ووضوح ، خاصة المرأة المصابة بالسرطان . كانت تنظر الى الموت بابتسامة ساخرة .

الفصل الخامس

دقت ياسمين الجرس ، واتخذوا مجالسهم محاذاة الجدران ، على تلك المقاعد الخشبية الواطئة ، التي اعدتها ياسمين للمتدربين عندها . فكرة هذه المقاعد معروفة جدا في بلاد الهند ، والصوامع الجبلية المنتشرة في الارض الشرقية . تصنع عادة من اشجار البلوط او الجوز . قالت اطلب منكم اليوم ان تغمضوا عيونكم وتمشوا في الخيال . لاحظوا اقدامكم وهي تلمس الارض ، كل قدم على حدة . ركزوا على القدم اليمنى ثم اليسرى ، تأملوا بالساقين والركبتين ، بعدها تسلقوا بوعي نحو الفخذين ، ثم في النهاية استقروا على الورك . انتم الآن واعون للاساس ، حاولوا الاستراحة في نقطة السرة ، ثم اعيدوا الكرة من جديد . وحين تجدون الايقاع ملائما ، ابقوا ماشين ، وبئروا عيونكم على هدف امامكم . اتجهوا الى ذلك الهدف ، وحين تنالونه بأيديكم ، عينوا هدفا آخر وامشوا باتجاهه . الحياة هكذا ، اهداف متعاقبة نتجه نحوها . هل تواجهون صعوبة في اختيار الهدف؟ اذا وجدتم صعوبة في الوصول فحددوا هدفا تحبونه وتسعون اليه . هل تركزون على هدف وتسعون اليه ثم يجذبكم هدف آخر اكثر اثارة؟ هل تجدون الامر ملا في التركيز على هدف واحد فقط؟ قوموا بهذه العملية مثنى وثلاث ورباع ، وانسوا كل مايحيط بكم .

في البدء وجد صعوبة في تحديد ما يريد . رسم امامه بيتا قديما ، احجاره بيض ضخمة منحوتة بعناية في واجهته ثلاثة شبابيك من النمط القديم . فتحاتها تنتهي بقوس وفيها حاجز من حديد مشبك غليظ العقد ، بانت على الواجهة آثار حريق قديم . استغرب لم ترسم مخيلته البيوت والقصور وقد بدأت تحترق او اصابها الحريق ذات يوم؟ هل يدل ذلك على مزاجه الناري الذي يشكو منه؟ كان البيت يقع على تلة تنتصب عليها عدة اشجار ونخلة سامقة محملة بالعذوق . بوابة البيت تتألف من باب ضيق وعلى يمينه شباك طويل وعلى يساره شباك بالارتفاع نفسه . امام البوابة ممر من البلاط وصخرة بيضاء نابتة كأنها اصبع . فوق قوس الباب منحوتة مدورة على شكل زهرة ، محززة الحواف ، توحي بان البيت كان خانا او تكية دراويش . لا يدري لم جاء هذا البناء في خياله ووضعه هدفا له . يظن انه قدم من زمن كان يعيش فيه بقرية نائية ، تجاور نهرا دافقا ، تنتشر في حقولها الابقار والمواشي والكلاب الضالة والحمير ، ولاتبعد عنها الصحراء كثيرا . نعم هناك ولد وتعلم في المدرسة وفلح الارض وقص عذوق التمر ورعى مع الرعيان قطعانا من الماعز والخرفان والغنم والبقر . طارد الكلاب في الحقول ورأى الاكباش تتسافد مع النعاج والهررة مع القطط والثيران مع البقر ، وظلت رؤية البشر وهم يتضاجعون امنية كامنة في نفسه .

مشى في الطريق ، والطريق ترابي صاعد . على الجانبين شوك وعاقول ونباتات برية ، وفي السماء عقبان تفرد اجنحتها في ريح ناعسة . العقبان لم تلهه عن البيت ، والطريق احسه صلبا تحت قدميه ، وعيناه ثابتتان في الشبابيك والواجهة الجميلة . وصل البيت ، الا انه لم يدخله ، كان خائفا من اقتحامه ، فالبوابة موصدة ، ولا يسمع صوتا في الداخل .

رأى النخلة فأعجبه سعفها . جذب بصره عش اليمام المخبأ بين التفافات السعف . لابد ان يحتوي على طيرين صغيرين ، او على الاقل بيضتين . وضع دشداشته في لباسه الداخلي وتسلق الجذع ، غير هياب من الارتفاع . قدماه يضعهما بحيطة على الكرب ولا يلتفت الى الاسفل . يجد موطئا ثابتا ليديه ،

ويسعى للوصول الى السعف . وجد الكرب متآكلا ، فانسل ببراعة بين السعف اليابس وحاذر السل ، وكان العش محط بصره . طارت اليمامة حين اقترب من العش ، وحدق في تلك اللفافة من الخوص والليف والخيطان ، ذات الاستدارة المتناسقة المزينة بالريش . كان العش فارغا ، لم يشعر بالخيبة ، قال لنفسه لقد وجدته وسأزوره بين فترة واخرى الى ان يكبر الطيران . سأربيهما في غرفتي ، كي يزيلا وحشة الروح . لن ادع جدي يلتهمهما كما كان يلتهم العصافير . جده كان يحب العصافير المشوية .

قبل ان ينزل من النخلة سمع ياسمين تسأله عما وضع من هدف اثناء تأمله فأخبرها بما رأى . قالت لقد جذبتك الطفولة ، الى زمانها ، وهذا امر صحي . لازلت تتذكر الاشياء بوضوح ، لديك ذاكرة مكتنزة بالالوان والروائح والاحداث . ابق فيها فترة علها توصلك الى ماتريد . . . . .

الرجل الملتحي الذي تجاوز عمره الخمسين سنة اخبر ياسمين بما رآه اثناء التأمل قائلا : كنت امشي في مكان غريب ، حولي تلال من الثلوج ، وثمة بحيرات من المياه ، خضراء لامعة ، والاشعة تسقط على تلال الثلوج تلك من شمسين عجيبتين ، رأيتهما واحدة في الشرق والاخرى في الغرب . كان الضوء ساطعا اكثر مما يجب ، والهدوء مسيطرا على المكان فلا تهب ريح ولا تعصف ، وكنت اشعر بسمو غريب في قلبي ، وحب للسمك في الماء وذرات الثلج والفقمات المتخفيات في مكان ما . الشمسان العجيبتان وحدتاني معهما ، فاصبحت مثلهما ضوءا ناصعا ، حجمي اكبر من كوكب . لايمكن ان اكون على الارض ، فارضنا تشرق عليها شمس واحدة فقط ، لابد ان اكون في مجرة اخرى ومع نظام شمسي آخر . كنت سعيدا ، شفيفا ، واسع الصدر . تمنيت لو ذبت في الثلج واصبحت بلورة منه ، او توحدت مع الشمسين الى الأبد ، او غبت في ذلك الهدوء العجيب . . .

كانوا ينصتون بعمق الى كلام الرجل ، وقد اكتسى وجهه بتعابير راضية متسامحة ، وابتسامة انتصار على شفتيه . جاء صوته صافيا ثابتا ، وظلت عيناه

مثبتتين في وجه ياسمين ، وحين انتهى من وصف رحلته سكت هو الآخر وظل منتظرا ماتدلي به معلمتهم الجميلة . كانت نظراتها راسخة على وجه الرجل ، في عينيها فرح وبراءة . كانوا ينتظرون ردها ، لكن الرجل عاد للحديث مرة اخرى . قال : عشت مشاعر شبيهة بتلك اثر حلم راودني في المنام . رأيت نفسي في مرج اخضر ، فيه تلال مكسوة بالعشب ومسائل ماء وبقر يرعى وقبر يطير ، الاشجار اشجار اثل وصفصاف وتوت وتفاح . كنت اركض في ذلك المرج بخفة ، خطوتي واسعة ، وبالكاد تلمس قدماي الارض . شعرت اني احلق فوق ذلك المرج مثل طير . كانت احاسيسي لاتوصف ، بأمتلاك القدرة على الطيران ، وبعد ان افقت من ذلك الحلم بقيت اكثر من ساعة مغمورا بتلك النشوة . مرة واحدة فقط عشت فيها كيف يتحول الانسان الى طير ، واليوم كلما اسلمت رأسي للمخدة اتوق الى رؤية ذلك الحلم .

قالت ياسمين : يتوق الانسان الى السمو ، خاصة حين يعيش في القاع . هناك شيء لايموت في الانسان ، مهما عاش في عالم الخطيئة والتلوث ، هو مايدعى بالضمير او الوعي المطلق ، او النفس الحقيقية . والضوء سمو ، نظافة ، ارتفاع عن المشاعر الملوثة من كره وحسد وحقد ومعارك صغيرة ونجاحات باهتة وانانية ويأس . التوق نحو الاتحاد بالمطلق ، الخلود ، هو ما يفكر به الشخص اثناء وقوفه متأملا ، وحيدا مع روحه .

انت تبحث عن مكان تسمو فيه عن حياتك اليومية ، الاكل والشرب والمضاجعة والعمل والنوم في تكرارها الابدي . الذين تلوثوا كثيرا تراهم يحبون النور والبحر والزهور والحيوانات الاليفة والاطفال . باختصار كل ما هو بريء ، نقي ، بري ، وليس هناك اكثر نقاء من الثلج والشمس والماء المحيط . هؤلاء عليهم ان يبحثوا عن الخلاص في قاع ارواحهم ، فالمفتاح هناك ، وسط ركام اللاوعي المظلم . مهمتنا ان نلقي النور على تلك البقعة ، نضيئها ، كي نجد المفتاح . اننا نعيش في عالم ، رغم انه واسع ومتعدد الا انه يسير نحو الوحدة ، نحو خلق سيرورة جديدة للبشرية . ارضنا لم تعد تحتمل الحروب والتلوث والاسوار بين دين

ودين وشعب وشعب . اننا في العمق مخلوقات متشابهة ، عليها ان تنحت لها حضارة جديدة . الاكتشافات العلمية والفضائية اقصتنا من ان نكون مهمين ، في مركز الكون ، فمانحن الا ذرة تافهة في بحر متلاطم من النجوم والاكوان والمجرات والغرائب . مصير هذا الكوكب الترابي في ايدينا ، وعلينا ان نكون جديرين في تحويله الى جنة . كوكبنا لم يعد يحتمل مزيدا من الدماء والجوع والخداع والتضليل ، لابد من امتلاك الشجاعة على مواجهة انفسنا . هذا ما يقوم عليه عملي في مركز القلب المغني . دون رؤية النفس عارية على حقيقتها لايمكن ان يسمو الانسان .

موضوعة مايسمى برسم الانسان حدودا لنفسه والتمسك بتلك الحدود مهمة جدا لكي يعرف من هو واين يمضي وكيف يوفق في علاقته مع الآخرين او مع المحيط الذي يعيش فيه . اين هي حدودك وأين هي حدودي . بدون ذلك يصبح من الصعب جدا تتبع الطريق نحو الهدف ، او اشباع الرغبات . تتركز هذه القابلية ، قابلية وضع الشخص حدودا لنفسه في منطقة الفخذ والحوض ، منبع القوة والرغبة الجنسية والثبات . هنا نصنع الاساس لكي نمتلك الارادة ونعرف كيف نتعامل مع الآخرين ونعطي الحب او نستقبله . مانخاف من استخدامه لتحقيق وضع الحدود هو القوة ، قوة الجنس ، بأعتبارها ديمومة الحياة . من المهم ان نشعر بالحرية في هذه المنطقة من الجسد ويكون عندنا الثقة في استخدام الصلابة التي نمتلك . ان اقوى العضلات في الجسد تكمن في الفخذين ، والجانبان الداخليان من الفخذين لهما ارتباط عضوي مع الاعضاء الجنسية . هنا علينا ان نتمسك بقوة ، طاقة الجنس طاقة مدمرة اذا اسيء استخدامها . وفي الوقت نفسه يكون لنا الارادة في ان نشعر بالاسترخاء ، ويتجلى هذا في بلوغ الذروة الجنسية . انها موازنة بين السيطرة والأسترخاء ، في الحدود الدقيقة بين الحرية والأنضباط . دعونا نضع تاريخا لحياتنا الجنسية ، منذ الولادة وحتى الآن . هل كنا اقوياء ، هل كنا فرحين بما نملك من غريزة ، كيف استخدمناها وماهو دورها في حياتنا؟

اطرقوا مفكرين بتلك الكلمات الواثقة القاطعة وواصلت ياسمين حديثها

قائلة : والآن احضروا المصاطب الى هنا . جهزوا شراشفكم ، وزيت اللوز . وليختر كل واحد منكم رفيقا له ، كي ندخل في عالم الجسد . سأكون قائدة لكم ، تمضون بالعمل كما اخبركم ، سأنقلكم من عضو الى آخر .

***

لمح السجادة العجيبة ضاحكة في ضوء الشمس المتدفق من الخارج ، تمد استطالاتها والوانها واشكالها لكي تظلل المكان . خلال دقائق انتصبت في الصالة ثلاثة اسرة .اختار تلك المرأة الطويلة كي تكون رفيقته في المساج . احس بفرحها حين وقع اختياره عليها . كان عليهم ان يجلسوا مع الرفيق الذي يتبادلون معه المساج ويتحدثوا عن حالتهم الجنسية ، لمدة خمس دقائق لكل واحد . جلسا متقابلين وراحت تبوح له عن هذا الجانب الغامض منها ، جانب الجنس . قالت : بدأ ت افكر بالرجل وكان عمري ثلاث عشرة سنة . لكنني لم اكن امتلك الثقة بنفسي ، كنت احس انني قبيحة . امي تعاملني كما لوكنت مخلوقا منفرا ، وعرفت السبب فيما بعد ، فهي تنتظر ولدا بعد خمس بنات . لذلك حين جئت انا وكنت بنتا ودّت لو اموت فورا ، وكانت تعاملني باهمال ، خاصة بعد ان جاء اخي الصغير .وجهت كل عنايتها له ، اما انا فكأنني غير موجودة .اصبحت تسليتي الوحيدة هي العرائس التي كنت اصنعها واناجيها واشرح لها همومي . وبسبب كرهي لنفسي كفتاة رحت اقلد الصبيان ، العب معهم ، اتكلم مثلهم ، اقص شعري مثلهم ايضا . الا انني لم انس ذلك الجزء من جسدي ، الذي لايشبه الصبيان . احدق به ، امتلاه في المرآة ، استغرب من ضموره وانزوائه .

كنت اشعر بلذة فائقة حين اتحمم واوجه الماء الساخن بقوة الى ذلك المكان . اصبت بالخوف ما ان رأيت القطرات الحمراء على سروالي ، الا انني كنت اخشى اخبار والدتي بالامر . ظننت انني اصبت بجرح اثناء تسلقي لشجرة التين المزروعة في الحديقة . اما اول مرة شعرت فيها باللذة الحقيقية فهي حين علمتني صديقة

لي اكبر مني سنا كيف اداعب نفسي . ومنذ تلك الايام وحتى الآن صرت اخلق اللذة متى أشاء . احس بالقرف من الرجال . احسهم اقوياء ومتوحشين . مارست الجنس كثيرا لكنني بعد كل مرة اشعر بالاضطهاد ، ولا ابلغ الرعشة . لا احس بالاكتفاء الا بنفسي ، وهذا ما جعلني احس انني امرأة غير سوية . اريد ان اعرف اين يكمن الخلل في داخلي .

كانت تتكلم بهمس ، عيناها مثل قنديلين مشتعلين . وكان يسمع صامتا ، لبوح هذه الفتاة الجميلة ، التي تقيء طعامها ، ولا ترغب بمواصلة الحياة . مضت خمس دقائق على حديثها ثم جاء دوره . كان يفكر كيف يبدأ الحديث عن نفسه . هناك كثير من الفترات في حياته . فترة الطفولة ، فترة المراهقة ، فترة الشباب ، ثم فترة ما هو عليه ، وقد جرب الكثير . عرف نساء من مختلف البلدان ، الشقر والسمر ، السود والبيض ، الصبيات والعجائز ، وكل امراة تجربة بحد ذاتها . لكن كما قالت ياسمين ، ينبغي الحديث عن الروح بعمومياتها ، عن هذا الجانب الضاغط على الانسان ، وتجلياته ، وآثاره على نمط العيش . عليه ان يجسده بكلمات واضحة ، يضع له سمات محددة ، مثل سمات الوجوه .

قرر الحديث عن ذلك الجانب غير المألوف من عالمه الجنسي ، ودعاه بالتلصص . وليس من الغريب انه سمى نفسه ايام المراهقة بالبصاص . وهي تسمية لم يعرفها احد سواه ، كما انه يرويها لشخص آخر اول مرة . كان يعتبرها واحدة من اسراره العميقة . التلصص يجري في دمه ، بعد ان عاش في مدينة بدوية محافظة . لم يبق امامه للاطلاع على جسد المرأة الا التلصص . كان يمنحه اثارة هائلة . التلصص على الجيران ، على البدويات وهن يكنسن المراحات والفتيات اللواتي يقفن وحيدات في غرفة مغلقة والعجائز الجالسات في الاكواخ والمتزوجين حديثا وهم في مخادعهم :

كان لنا جار يضاجع زوجته كل ليلة . غرفة النوم لاتبعد كثيرا عن حافة السياج الفاصل بيننا . انتظر في الليل تحت السياج حتى يطفأ الضوء ، واترصد كل نأمة في الغرفة . ما ان يبدأ الحديث همسا حتى اعرف انهما بدءا

المضاجعة . عندئذ التصق بالنافذة المطلة على السياج ، اسمع صوت المرأة وهو يحشرج ويتأوه ، مما كان يجعلني اغيب عن اشجار اليوكالبتوس في الحديقة والصبار والقصب والمخلوقات الليلية التي لا اعيرها ادنى اهتمام . ارض الحديقة كانت مليئة بالعقارب ، لكنني لم افكر بها . في تلك اللحظة يتحول العالم الى نافذة فقط . كانت الاصوات ، ارتفاعها وانخفاضها ، همسها او حشرجتها ، حدتها وضخامتها هي الرموز التي اقرأها في وقفتي جنب الجدار . اثناء ذلك كانت يدي تمتد غريزيا الى هناك . ثم اسفح لذتي على الصخور والعشب والديدان الدابة في ظلمة الليل ، واحس بفراغ كبير . لا اتابع مايجري ، انسحب الى سريري لانام مثل محارة ميتة .

في الجانب الشرقي من البيت ، جارتنا الشابة المليئة الجسد ، ابتكرت لرؤية جسدها وسيلة مكنتني من مراقبتها ليلا نهارا . ثقبت السياج في عدة مواضع ، تطل على الحديقة الامامية والخلفية ، وعلى الممر المحصور بين شبابيكهم والسياج . كانت تغسل الممرات كل يوم تقريبا ، وهذا ما اتاح لي رؤية فخذيها كلما انحنت . اما اذا كانت منحنية باتجاهي ، فالمح الطيرين الابيضين اللذين يهويان في فتحة الثوب الذي تلبسه . احيانا اشاهد سرتها وعقصات بطنها ، اذا كانت فتحة ثوب النوم عريضة . عاج يثير في شهوة عارمة ، وكنت ادعي القراءة او الوقوف جنب واحد من الثقوب متأملا فيّ ورق اليوكالبتوس المخيم على البيت . جلبت لي تلك المراقبات متعة كبيرة ، وأضفت معنى ما على حياتي في تلك المدينة المحاطة بالصحراء .

اتذكر ايضا بستان ابراهيم المليء بالتفاح والتين والرمان والبرتقال ، المكتظ الشجر والنبات ، المسور بحائط من الطين . كنت ادخله في الظهيرات الحارة ، ارشح عرقا ، اتجنب المناطق المكشوفة واندس في غيضة كي اتطلع الى امراة ساكنة وراء ذلك الحائط ، في غرفة مبنية من الصخر محاطة بسياج من السعف . البد ساعات كي اراها وهي تغسل الغسيل كاشفة عن ساقيها ولباسها الداخلي .اما بعض الايام فانتظر اكثر من ساعة دون ان تظهر ، لذلك كنت اتخيلها هناك ،

جالسة على طشت كبير تتطاير فقاعات الصابون منه ، اجردها من كل شيء لاكمل حفلتي . هذا جزء بسيط من حياتي الجنسية . انني احب ما كان سريا في الجنس ، الذي لايراني فيه احد . اعشق مراقبة الابواب المفتوحة والتسمع على الشبابيك المغلقة ومد البصر في شقوق الابواب لرؤية ماوراءها وسماع الاصوات لبشر لايرونني . . . .

***

فسّرت ياسمين الغرض من الحوار حول حياتهم الجنسية بأنه امتلاك الجرأة على البوح ، على مواجهة الروح ونزواتها وشذوذها واسرارها . لذلك لم يعلق على شيء مما قالت رفيقته وظلت هي صامتة ايضا بعد انهاء كلامه .

قالت :هل تبدأ انت ؟

قال دون تردد : اجل .

شلح بنطاله وقميصه ، وتجرد من لباسه الداخلي . وقف عاريا ثم انسل تحت الشرشف و تمدد على ظهره . اغمض عينيه وانتظر كلمات ياسمين .

قالت : اغمضوا عيونكم وابعدوا كل صورة من اذهانكم وكونوا هنا . الركبة . الساق . القدم . الشيء المهم الذي نلاقيه في هذه المنطقة هو اننا يمكن ان نتخذ خطواتنا في الحياة وهي تترافق يدا بيد مع احاسيس قلوبنا . ان نفعل الشيء الذي نحبه ونمشي باتجاه ما نعشق . دون اكراه ، دون خداع لقلوبنا . الركبة هي المفصل الكبير المهم في الجسد . ترتبط بالعينين ، حيث توجه الانسان الى الهدف الذي يراه بعينيه ويتمناه بقلبه . كما ترتبط بمركز البطن ، السرة ذات الوهج البنفسجي . الركبة المشدودة تعكس الافكار الصلبة العنيدة والرغبة بالسيطرة والتمسك بالحالة التي يكون عليها صاحبها . . . .

اغمض عينيه ، ركز على صوت تنفس رفيقته . كلمات ياسمين تدور في ذهنه ، تتجسد في المسافة الفاصلة بين حاجبيه وعينه الثالثة . تلك النقطة الواقعة

في منتصف الجبهة ، بين الحاجبين تماما . هجس ان رفيقته بدأت تبلل اصابعها بالزيت وتقف خلف رأسه ، مطرقة بمنتهى التركيز . عليها هي ايضا ان تكون هنا والآن . ليتوحد الجسدان في كل واحد ، تربطهما الاصابع ومشاعر حب الجسد والتواصل المشتبك بين المراكز . ثم تذكر صورة ياسمين المعلقة على الجدار والرجل ممددا بين ذراعيها . وضعت يدها اليمنى على جبهته ويدها اليسرى على قلبه . لبثت دقيقة ثم رفعت يدها وعدلت من رأسه . وبكلتا يديها اخذت تمسد له رقبته من الجانبين وعند التقاء الكتف بالرقبة ، حيث العظام القصية والعصب الغليظ وحافة العمود الفقري . ادارت رأسه الى اليسار ومسدت الجهة اليسرى ، ثم الى اليمين وفعلت الشيء نفسه . احس بقليل من الالم ، من الاختراق تفعله اصابعها الرقيقة ، الا ان الخدر بدأ يدب في جسده واستسلم لها كلية . الايدي الرحيمة تتغلغل في نسيجه ، تشتعل شرارة الروح فيما بينهما ، تحب جسده ويحب جسدها ويتواصلان بذلك الخيط الرفيع الذي يدعى بالملامسة . الملامسة المجردة ، الخالية من الرغبة ، والحقد ، والمصلحة ، والكره ، والنفور . انها ملامسة تحمل روح هذا الوجود .

التوتر في الساق يرتبط مع خطوة اتخذناها ذات يوم فقادتنا الى الاخفاق . تقول ياسمين من مكان بعيد ، كما لو كان جبلا عاليا ، تقف هي في قمته ، مادة ذراعيها ، مباركة مدينة هائلة الاتساع . صوتها حازم النبرات ، كأنه قادم من عالم لا يحس . التوتر يعكس حالة الهروب ، التردد ، الرعب ، تلاشي الارادة نحو خطوة ينبغي اتخاذها . لقد جاء زمنها ومكانها . خطوة يتوق الجسد لاتخاذها والروح ايضا . عضلات الساق الخلفية ، اي الربلة ، تدل على الاستقلالية في التعامل ، الارادة والصبر . الطبقة الداخلية من العضلات ترمز الى قدرة الوقوف على القدمين دون مساعدة . حين يحصل خلل ما في الارادة ، الاستقلالية ، الثقة بالنفس ، التواصل مع المحيط ، عند الشخص ، سرعان ما ينعكس ذلك على هذه المنطقة . كل تلك القابليات المكنوزة في اطرافنا السفلى يمكن استثمارها ايجابيا او سلبيا ، يمكن ان تخلق منا بشرا مشدودي الاعصاب او مسترخين . اما القدمان

فهما اللتان تقودان الى الطريق ، داخليا نقف عليهما ، في تخط لمرحلة الطفولة ، حيث يصبح الانسان هو نفسه ولا احد غيره . للقدمين علاقة خفية بالوجود . للذبابة اقدام توحدها بالارض وللفيل اقدام غليظة ، للفراشة والنمر والدودة العابرة بين غصن وآخر والبيت والنجمة والافق وشجرة البرقوق ومحيط الاسبندار . جذور اقدام . جلود اقدام . مجسات اقدام . الاقدام تحيط بنا دائما .

ثم تنزل اليدان الرقيقتان الى الاسفل ، الى الفخذ الايمن ، بمس رقيق ، ومداعبة محببة . يضع ذهنه في الاصابع وهي تنزلق من الاسفل الى الاعلى . من فوق الركبة الى الحقوين ، مرة بضغط خفيف ومرة بتربيت . يصبح خلية ، او عضلة راقدة في الفخذ ، أو عصبا شجري التفرعات ، يتكتل في حجم مجهري لايرى . تهبط على حدوده انامل تبعث في سائله نوما اشبه بالخدر ، يغيب عن رفوف الكتب والشاشة والموكيت والخشب المقوى وعندليب الجوز البري وشفتي ياسمين الطازجتين ، الشهوانيتين . تهبط اليد الى باطن الركبة ، فيحس وكأن دفئا بحجم الكون يسحبه الى جنانه . ثمة ابهام ينام هناك . يقلب اللحم يسارا ويمينا ، يداعب الاوتار الرابطة بين الساق والفخذ ، يغذي خلايا العصب بالصبر والوجد والراحة . يعرف ان الرحلة ستستمر الى الاسفل ، لتنتهي في القدم اليمنى ومن هناك الى القدم اليسرى لتصعد الى الورك الايسر ، رحلة لايمكن احتمالها ، انها اشبه بالخيال . حاول ان يضبط ايقاع ذهنه الى حركة الاصابع ، الا انه ، ونتيجة الراحة والاسترخاء ، يشرد منه احيانا .

اخذه ، حين امسكت اليد باصابع القدم ، الى طريق طويل ، اسفلتي ، يتلوى في برية شاسعة . يتغلغل بين ارض رمادية تميل للصفرة ، ترعى اعشابها الجافة اغنام وماعز وحمير . كان يرتدي ملابس غريبة تتكون من دشداشة داكنة اللون ، تحتها فانيلة قطنية . يحزم الدشداشة بحزام عريض ، يضع فيه خنجرا مزينا بالاحجار الكريمة . يضع على رأسه يشماغا احمر ، ويغذ السير في ذلك الطريق ، نحو جبال بعيدة ، مليئة بالحبارى والغزلان والصقور . هل كان في نية صيد؟ هل هو درويش لفظته تكيته ليموت وحيدا ام انه مسافر قادم من مدينة او قرية ماض

الى قرية او ريف؟ هل كتب عليه ان يمشي وحيدا دون رفيق في هذه المفازة؟ جيش يأتي وجيش يذهب ، مملكة تشاد ومملكة تندثر ، وهو ماش في هذا الطريق ، لا القبرة تسليه ولا شجرة الزيزفون . سراب امامه وسراب خلفه . دماء حارة يحسها تنساب على جلده ، نابضة ، فاتنة ، تصهل مثل فرس .

يمسك زمام عقله مرة اخرى ويعيده الى هذه البنت الحلوة المنكبة على جسده ، تلملمه عضوا عضوا . رائحة دهن اللوز في انفه ، وعرق ابطيها مثل بخور اسواني . كانت تلهث بصمت .

وياسمين ماضية في كلامها كأنها شهرزاد هذا العصر : ابان لنا سر الصعود بالتحليل وفرق بين التحقيق والتخييل ثم ابان لنا غلطات الاذهان والنفوس ، وسر المشي على الماء وابراء الاكمه واحياء الموتى ، وكشف لنا عن خواص المعادن والاحجار . القلب يذهب فيه كل مذهب ، يرنو الى شرف الاعتدال وصورة التمام والكمال وسر الثوب الذي مال . روح الضياء والظلال والتحاق الرجال بالنساء واستواء المنحرف الميال . يبقى العلم ويذهب الخيال . تتضح المعاني وتزول الاشكال . نحن اطفال هذه الارض . عمنا الغراب وامنا التينة . واخونا نافذة الدار المشرفة على مرآة السيدة . لحافنا زهر البابونج واحلامنا ذهب . آباؤنا تلك النجوم البعيدة التي لاتكف عن ارسال رسائلها الوامضة الينا . الطفل غير المرغوب يمكنه اختيار الحياة ، البقاء فيها ، لكنه يحمل شكا كبيرا بحقه في الوجود . كل طفل يحمل ذكريات بعيدة عن حالة الابوين ايام الحمل . يسجلها من خلال الاصوات والانفاس واللمسات والحوارات والافكار . الطفل ليس بحاجة الى حواس ، فهو يقرأ الافكار ، ويهجس بما في الصدور ويرى دون عينين . الشك في حق الوجود سيظهر جسديا وروحيا ، وسيؤثر لاحقا في علاقة الشخص بالمحيط .

***

غاب عن هنا ياسمين وفارق الآن . رفيقته ماضية في هدهدته ، في حمله الى

اعماق تتأرجح بين النعاس واليقظة . سمع رجلا طويلا ، اسمر اللون مفتول العضلات ، عيناه حادتان كأنهما سكاكين ، يقول له بصوت راعد : امض الى حقل البطيخ ، ونم هناك . احرسه من اللصوص . فامتثل لطلبه وكانت النجوم غائبة والليل كأنه منجم قير ينفرش على القرية . لم يشعر بالخوف . كان ذلك في البداية فقط . اخترق حقول الحنطة وسمع دبيب الافاعي الليلية وضباح الثعالب . قال له امضِ فمضى . لايمكن له مخالفة قراره . اخترق حقل الذرة واجتاز مخازن الحطب وانسل بين سيقان نخيل وتوغل في دروب . صعد مرتقى وانحدر في وهدة ، حتى وصل ضفة النهر . خلف قرية ذات بيوت من الطين وراءه ، يعرفها دربا دربا وشخصا شخصا . لابد ان تكون قرية الطفولة التي نشأ في كنفها ، قبل عشرات السنين . ومن قلب الظلمة نبح كلب وقوقأت دجاجة وخار ثور وثغا تيس .

عليه ان يسبح نحو الحقل . كان الحقل في جزيرة ضيقة وسط نهر عريض . والجزيرة تضم اضافة الى الحقل اشجار غرب كثة عاصية . انها اشبه بالمثلث . التيار جارف ، لكنه لم يخش الماء . على الضفاف محار وهياكل عظمية لاسماك ورائحة حادة لجثث حيوانات مدفونة في الطين وضباب خفيف يندلق على اشجار الطرفاء والغرب والنخيل البعيدة . سبح مع ملابسه ، نحو الحقل . الرمال باردة . القواقع صلبة . كان وسط النهر ، وكاد ان يصل الجزيرة حين جاءه الصوت . لم يكن صوت ذلك الرجل ، الذي ظنه اباه اول وهلة ، بل هو زئير مرعب شق سكون الليل . انه اسد ، يكمن او يسير في مكان بعيد . يتردد صوته من السماء ، يقترب من الجزيرة ، التي يقصدها .الاسود تسبح . اذن سيقترب منه ، سينحره ويأكله . هرب الليل وتاهت الافكار ، وعليه ان يعود . لكن الى اين؟ ابوه مرعب ، بيته غموض . غرفته كوابيس وحالته زائغة . سيهيم على وجهه . فوّج عائدا الى ضفة النخيل والبردي وبيوت الطين . زئير الاسد خلفه ، والجسد نحيل والخوف ضارب . تشبث بالجرف الرملي وخرج راكضا نحو غابة النخيل . كيف انبثقت غابة النخيل من هندس الليل؟ سعفها وبومها وليفها وبرغشها وحكاياتها؟

غابة تمتد الى مالانهاية . غابة الطفولة والاسرار والاحلام . لافوانيس ثمة ولا شموع . وزئير الاسد يلاحقه ، يحسه يقترب ، فيركض مثل سكران . وقع على بيت ، تبين في شبابيكه الخشب ذبالات اضواء تصدر من منقلة واجة او فانوس مضبب الزجاجة . كان هناك باب في سور من الطين خفيض . طرق الباب وبرز له سعيد على وجهه مسحة من الذعر . لم يتوقع حضوره . حسبه جنيًا بلا شك ، جنيا انبثق من غابة الاوهام .

قال له : اليس هذا بيت حسين؟

قال سعيد : من هو حسين؟

قال : ابن المرحومة امونة؟

قال سعيد : كلا ، انه بيت اخيه سلمان الذي مات قبل الحرب .

قال : عن اية حرب تتحدث؟

قال سعيد : انك لم تكن هنا ، في قريتنا .هل كنت مسافرا؟

قال : كلا ، ارسلني ابي لاحرس حقل البطيخ .

قال سعيد : انت مجنون ، اي بطيخ هذا ، صرنا نشتري البطيخ من المدينة .

قال له : ادخلني الى البيت فثمة اسد يلاحقني .

قال سعيد : لكن لا اسود في منطقتنا .

قال له : انك واهم ، الاسود في كل مكان .

قال سعيد : ادخل .

فدخل . وجد الغرفة دافئة والحيطان مسودة من الدخان . دفء غير معقول يشيع في اعضائه . ربلة الساق تسترخي ، اعصاب الحقوين تنبسطان ، وثمة امراة جميلة جالسة على مفرش من الصوف . سبحان من خلق ذلك الجمال وكور الشفتين ومد العنق كأنه نخلة فارعة . في الضفيرتين حقول من الورد والنرجس والنعناع والمشمش والعنب . والعينان صفراوان والشعر ينهمر مثل شلالات على الكتفين والصدر . انها من يرغب ، تلك الفاتنة اللابسة ثوبا مقصبا له اردان وكشاكيش وعقصات . ياسمين تجلس قربه وهو يمد جسده السيسبان قرب منقلة

النار . في الزاوية القصية رجل صارم التقاسيم يرمقه بغضب . يتدخل برغباته ، يراقبه ، يحسب عليه كل حركة يقوم بها . انه يخنقه . تمنى له الموت او عضة من ذلك الاسد . تمنى ان يهجم الاسد على البيت ويلتهم الرجل كي ينفرد بالمرأة . هل هو ابوه؟ خيل اليه انه يحمل الملامح الصارمة نفسها ، العينين الضيقتين الحادتين والفم المزموم والتعابير المترفعة الغاضبة على كل شيء .

انتعظ وهو ممدد على المفرش ، وايحاءات ياسمين تصل الى قلبه . يترقب لحظة تمد فيها اصابعها الى هناك . انها تقترب كثيرا . بعفوية تشمر يدها فوق عضوه . يرى خواتمها العقيق واليشب والفضة واساورها المتلوية مثل افعى وليرات الذهب المحيطة بالمعصم . تخش ، تدق ، تدوي في دمه ، فلا يرى الاها ، هذه الساحرة التي تمسد له فخذيه وبطنه وصدره . الرجل كأنه ماموث محشور في زاوية البيت . سيطفئون الضوء وينامون . ينامون في دعة وفحيح وميل . اختفى سعيد بعد ان ابتسم له مشجعا وقال ، كنت في المجمع تحلم بالمرأة ، وهاهي امامك . اما انا فسأعود الى بحيرة المرجان . قامت ياسمين من مكانها وظل هو في توهج غير معقول . هاهي اول امرأة في حياته . سيشم ابطيها ويقبل شفتيها ويدغدغ ارداقها بأنامله ويضع كفه على بطنها ثم يدس اصبعا في سرتها الواسعة . سيتوحد مع هذا الكائن الذي حلم به منذ صباه . يصبحان جسدا واحدا . وستعلمه فن المرأة حين تمنح نفسها الى ذكر . نسي اباه وحقل البطيخ وزئير الاسد وسعيد والليلة القيرية .

كانت تحدق اليه ، وهي واقفة ، بعينين ضاجتين بالشبق . ثم مضت بغتة الى احدى الغرف . عطرها نشرته وراءها مثل ارواح نورانية تائهة .

اين مضت؟ ساحرته ، طوق الياسمين ، ندى الاكاسيا ، فراشة حقل البرسيم . حمامة دارهم ذات الوجه الهال من غابة نخيل كأنها واحة؟ اين اختفت وتركته في هواه؟ . . . . .انتظر . . .انتظر فلم تعد .

وكانت عصافير لاتعد تطلق حناجرها ، تغني للضوء الذي رآه يتسلل عبر النافذة . الضوء الذي سينهال على شارع الاسفلت وجذر الزيزفونة العجوز

وماسورة المياه والزقاق البعيد وطوق البوابة المزخرف وسوق الاعشاب البرية . افاق على يده ممسكة ساقه اليمنى بحنو . ثمة خوف كامن في داخله من معاودة ذلك التشنج . لقد قطع شوطا طويلا في العمل مع روحه . عليه ان يكون صديق جسده . جسده الذي يتألم مثل طفل صغير فقد امه . جاءت الى ذهنه عشرات الصور التي سيدونها على الورق ، ثم يكتبها لاحقا . عشرات الاحلام والكوابيس والحوارات . سيمضي اليوم الى المقهى الواقعة في المدينة القديمة كي يخلق كتاب ياسمين . ليس امامه وقت طويل يضيعه .

الفصل السادس

حين يفكر بحياته اليوم يحس ان الزمن اصبح بالنسبة له دائريا ، والمكان ايضا . اصبح هو محورا والمدن تدور حوله ، فتمر به بين الحين والآخر . هي نفسها او يتغير شيء فيها حسب الزمن الذي تقطعه للوصول اليه . لكن تبقى فيها دائما نباتات زينتها وسجادها واسواقها وطيورها وانهارها وجبالها . تتغير شوارع المدن والبلدان ، وهذا ما لا يستطيع انكاره او تجاهله . تنمو اشجار وتبنى عمارات غير التي كانت ، وينشأ جيل آخر يختلف في العادات والصوت والاشكال . كل ذلك خلق له ويخلق كثيرا من الالتباسات ، خاصة لشخص مثله ، يخاف من نفسه ، ويخاف الناس ، يرى كثيرا من الكوابيس والأحلام ولايعرف ما يبغيه بالضبط .

كيف انتهى ، اخيرا ، ليعيش في هذه المدينة؟ متى جاء اليها ، ولماذا؟ من هي ياسمين؟ هل يمكن ان تكون الفتاة الضامرة التي زارته وشوى معها السمك؟ لكنه يذكر انها لم تسمع باسم مثل هذا . هل تقطن ياسمين في المدينة التي يعيش فيها؟ ام في مدينة نائية سابحة وسط المحيط؟ هل يمكن ان تكون فكرة لاغير؟ هناك اسئلة كثيرة ، و هناك عدد كبير من الاحتمالات . من تلك الاحتمالات ، في الحياة التي عاشها سابقا ، انه وبعد ان دخل ذلك المجمع المكتظ بالبشر ، وآمن انه لن يخرج منه مرة اخرى ، قد تحول الى انسان بلا زمن . او ربما لم يزل هائما

في ساحة الزمن الدائري التي تلح على ذهنه اغلب الاوقات . الا ان الأيام التي قضاها في المجمع لازالت حاضرة امامه .

وصل دون شك في ذلك الباص المكتظ مع عدد آخر من الناس المتشابهي التعابير . فللمهزومين تعابير متشابهة دائما . هو وصديقه الملتحي ، المهندس الجيولوجي الخبير بالصخور والمعادن ، الذي يدخن بافراط ، ويستمني بافراط . هل كان اسمه سعيدا؟على اية حال ، يبدأ الاسم بالسين ، وهناك عدد هائل من الاسماء التي تبدأ بالسين : سلام ، سامي ، سمير ، سؤدد ، سحبان ، ساجد ، سامر ، سفيان ، الخ . يرجح ان الاسم هو سعيد . وربما قادته الذاكرة الى هذا الاسم لارتباطه بالسعادة التي يطمح اليها ويتوق الى بلوغها .

سمع ، بعد مرافقته له في المجمع ، انه مات غرقا ذات صيف في احدى البحيرات ، ولم يقعوا على اثره الا بعد ثلاثة ايام من الحادث . البحيرة مشهورة بجزرها المرجانية ، التي تخلب الباب الصيادين والباحثين عن الاحجار الكريمة من تجار ومهربين وسماسرة دوليين ، يتاجرون بكل ماهو غريب وعجيب في الكرة الارضية . سمع ان من خواص مرجان تلك البحيرة تغيره الدائم ، في الشكل واللون ، حتى قيل انه واقع تحت هيمنة سحر قديم او طلسم يمتد الى ايام الملك سليمان . اختلفت الروايات عن سبب موت سعيد ، من قائل انه اصيب بتشنج في الاطراف ، فانتهى الى قاع تلك البحيرة ، ومن قائل انه اصيب بالسكتة القلبية ، والبعض نسب موته الى دسيسة واحد من الاصدقاء تتعلق بالسياسة . على اية حال جاءه خبر وفاته بعد اكثر من خمس سنين من مغادرته مجمع الهاربين . ونسبه هو الى خواص ذلك المرجان ، ذي الصفات السحرية ، الذي يجتذب اليه كل ماهو حي . ربط الامر مع سبحته المرجانية التي ظلت معه الفترة التي لبثها في ذلك المجمع وادهشته بسجاياها وتغيرات احوالها ، وهي في هذه الدقيقة معلقة على جدار غرفته .

كان الثلج يغطي ممرات المجمع ، حين دخلوا البوابة . ويكلل الشجر المتناثر في ساحاته ، واسطح بناياته ، ورؤوس قاطنيه الذين تجمعوا حولهم علهم يعثرون على

شخص يعرفونه . المجمع يتكون من بنايتين ضخمتين ، كل بناية تتألف من طابقين . اضافة الى بناء اصغر ، من طابق واحد يقوم قريبا من المدخل . كانوا حوالي عشرين شخصا . هربوا طبعا من حرب ، او من كارثة زلزلت الارض تحت اقدامهم ، ووضعتهم امام حقيقة صلدة مثل كتلة من حديد ، اما ان تكون قاتلا او قتيلا . ففضل هو الحل الثالث ، الا وهو الهروب .

كانوا جميعا ، يلبسون ملابس ثقيلة ، مختلفة الاشكال والهيئات . فمن البنطال الى الدشداشة الى الشروال الجبلي ، تغطي رؤوسهم كاسكيتات ويشامغ وجمدانيات ومناشف كوّرت على هيئة عمامات . الا انهم جميعا يتدثرون بجاكيتات ثخينة ، فالبرد اكثر مما يطاق . كان المجمع مسورا بحديد مشبك ، وهناك كابينات حراسة تتوزع الاركان الاربعة للسياج ، وجوار المجمع غابة صغيرة ، من شجر السرو والسنديان ، عارية يغطي اغصانها ثلج كثيف ، وغربان سود تزعق على تلك الغابة . شعر بفأل سيئ . لقد شكلت له الغربان دوما علامة من علامات الشر .

استقبلهم جندي معه دفتر ومترجم . وهو لم يكن يفهم لغة ذلك البلد . اصطفوا في الممر ، بعد ان دخلوا البوابة وغاب الباص وانزلوا امتعتهم ، وراح العسكري يقرأ اسماءهم ، ثم القى عليهم محاضرة قصيرة عن نظام العيش في المجمع . حولهم كائنات لاتشبه البشر ، الا انها كانت كذلك ثم مسخت . اطلت عليهم برؤوس شعثاء ولحى كثة متسخة متوجسة خائفة . قادمون من اين ايها البشر قال لنفسه ، وماضون الى اين؟ كان لمشاعره طعم مر ، لها رائحة غضب منكسر عديم الاتجاه . يدور مثل الغبار الى كل الجهات . عجيب امر هذا المخلوق ، المسمى بالانسان . لديه طاقة عظيمة للتكيف مع الظروف . يحسبها في البدء دائرة من ظلام يستحيل اختراقها ، لكن سرعان ما يتلمس جدران هذه الظلمة حتى يتوسع بؤبؤا عينيه ليرى الحد الادنى من الاشباح والشواخص التي سيتآلف معها . وما فهمه من المترجم انه طلب عدم لعب القمار او سماع الاغاني ، وعدم التحدث بالسياسة ، وممنوع اللواط او شرب الخمرة . سيحصلون على ثلاث

وجبات في المطعم ، واشار الى البناية الصغيرة الى اليمين . لا اضرابات ، لا مطالب لتحسين الوضع ، لا نقاشات . انتم هنا ضيوف وعليكم ان تتقيدوا بالتعليمات . اطبق العسكري دفتره ووزعهم الى القاعات . ومع صديقه الملتحي ، سعيد ، نزلا في القاعة الاولى في الطابق الاول من البناية الاولى .

ارتفع الأذان مختلطا بزعيق لاعبي كرة الطائرة ، وبغناء قادم من اهوار وصحاري بعيدة محشو بالاسى والابادة ، مصطدما بموال آخر محمول على ذرى جبلية ومهاو سحيقة وكهوف كانت قبورا لابادات لاتحصى .

قال لسعيد : انني متفائل لهذا التقسيم ، فنحن في الصف الاول من كل شيء .

رد سعيد مقطب الجبين : سنعيش هنا ونرى . لا اظن اننا نلقى الراحة بعد ان خرجنا من البلد . الصخرة في مكانها ثقيلة . فكيف وقد تحولنا الى ريش؟؟؟؟

للقاعة نظامها الخاص ، توارثه القاطنون سنة بعد اخرى . ففي كل اسبوع يقع الدور على واحد لتنظيفها . الاجازات تقسم على الموجودين ، وعددهم حوالي عشرين ، لكي يصيب الواحد يوما في الاسبوع للنزول الى المدينة . الاضواء تطفأ في الحادية عشرة مساء . روح التضامن عليها ان تسود كل القاطنين . من يتجسس للادارة يقاطع ويعزل . كانت الاسرة تتجاور ، وثمة ممر للسير في المنتصف ، والخزانات على طرفي القاعة . لكل شخص خزانة يضع فيها حاجاته ونقوده وملابسه واسراره . وفي القاعة اكثر من ستة شبابيك ، عريضة تضخ النور الى النفوس القلقة .

كان موشكا على الموت تعبا والنهار في طريقه الى الزوال . مع القلق الذي صاحبه منذ ان افاق في الليلة قبل الماضية على ذلك الالم الفظيع في اصابع قدمه اليمين . مع المستقبل الغامض لهذه المغامرة التي قام بها ، وهي اول مغامرة له ، خمن انها ستغير مجرى حياته . لقد استغرقت الرحلة من الحدود الى هذا المجمع اكثر من عشرين ساعة ، قطعوها خلل الجبال والثلوج والبرد مصحوبين بحرس مدجج بالسلاح ، لايسهى ولاينام .

اختفت اشعة الشمس من باحة المجمع وساحاته ، وجاء من اخبر الموجودين في القاعة ان المطعم فاتح ابوابه . حمل كل شخص صحنه وملعقته وكأسه ونزل ليتعشى في المطعم . كان الجو احتفاليا بحق . خشخشات ملاعق وقرع صحون ونداءات ، وتخمينات . فمن قائل ان العشاء دجاج مع الرز ، ومن قائل انه بطاطا مسلوقة مع اللحم ، ومن قائل انها فاصولياء حمراء وقليل من اللحم لاغير . استغرب كثيرا من هذا الاهتمام الزائد بالطعام ، وهو يعرف ان اغلبية الموجودين بالكاد حافظوا على حياتهم . طلب منه سعيد النزول فرفض . قال له انا تعبان وليست لدي شهية للاكل . قال له سعيد ساجلب لك حصتك من الطعام . ناوله الهوية الصغيرة التي اعطوها لهم على وجه السرعة ، وهي مثل كوبونات التموين ، ثم تمدد على سريره وهو يتلمس ساقه اليمنى ، ويتحسس الاصابع في القدم والمفصل ، والعضلات . ما يزال الم تشنج الامس يؤلمه .

قال لنفسه لايمكن ان يكون انني اصبت بالغنغرينا بسبب ذلك الجحيم من الثلج؟ وهل يخونني جسدي بهذه السرعة؟ جسدي المجبول باللبن والشموس وتمور الصيف وقساوة الايام التي درجت عليه . ران الهدوء في الخارج ، وكان يلمح من الشباك تلك الغابة المغطاة بالثلوج والغربان . ما ان يمتد بصره ابعد من الغابة ، اعلى من رفيف اجنحة الغربان ، حتى يقع على المدينة الصغيرة بابنيتها البيض ، منزوية على سفوح جبال ليست عالية . ثمة منحدرات ووديان مكتظة بالشجر . آفاق من أضواء وغربة موحشة . بشر لا يعرف كيف يفكرون . بيوت وحدائق وهضاب وشوارع مضاءة بالمصابيح . الثلوج كانت تغطي كل شيء ، وكل الافق السابح تحت بصره ، ذلك الافق الذي بات يظلم دقيقة بعد اخرى .....

- هل تعرفني؟

سأله شخص وقف فوق سريره بشكل مفاجئ . تأمله بذهول . انه يشبه شبحا خرج من الغابة ، او من ركام الثلوج في ساحات المجمع . وجه شاحب اصفر ، لحيته ، او ما تبقى منها ، سكسوكة دخانية . عينان متعبتان ، لكهل طويل ، في طريقه الى القبر . كان يرتدي معطفا عسكريا ، لونه بني ، وعلى كتفيه نجوم

عديدة . وهو يقف وقفة عسكرية غريبة ، يقلد بها عتاة القادة او الحكام . ثم اخذته المفاجأة فنهض من رقدته وجلس على السرير ، اجابه بخوف :

- آسف ، كلا لا اعرفك .

- انا الجنرال بطرس . كل الموجودين هنا يعرفونني ، والعسكريون يؤدون لي التحية .

اسقط بيده ولم يعرف ماذا يفعل .لكنه ودون تفكير قال له :

- انت تتكلم العربية بطلاقة .

- لا العربية فقط ، الارمنية ، الكردية ، الفارسية ، التركية ، الانكليزية ، الروسية ، ولدي حلم قديم بتعلم اللغة اليابانية .

لماذا اليابانية؟ التمع في خاطره هذا التساؤل بشكل روتيني ، الا انه لم يعرف كيف يواصل حديثه معه . ظل يحدق اليه بعينين غائمتين ، يتلفت الى مدخل القاعة بحذر ، كأنه يخشى ان يمسك متلبسا بسرقة . كانت القاعة خالية ، فالكل نزل الى المطعم . ظل حائرا ما الذي يقوله لهذا الجنرال الواقف امامه . جنرال بندقية وسوط وكرباج وامر بالاعدام . جنرال يعتمر آلاف الجثث ثم يضحك بابتسامة صفراء . جنرال جرائد وخنادق ومناطق محرمة واغتيالات تتم في الليل .

- انا اتفهم معاناة القاطنين هنا في هذا المكان . صعب ان يعيش الانسان بين شلة من المجانين . كذلك هناك عدد لايستهان به من اللوطيين . هل تعرف احمد؟انه يبيع مؤخرته بدولار . يمكنك ان تستأجره لغسل الملابس او للتسوق . قال لي امس ، في الحمام ، دعني افرك لك ظهرك ، فطردته . انه يجلب لي سمعة سيئة .

- من هو احمد؟

- شاب قصير ، اصلع ، اسنانه الامامية مخلوعة . انه خول ، سرق مني علبة سجائر قبل يومين .

حدس ان هذا الجنرال ، الواقف امامه بكل ابهة ، يملك شيئا من الجنون . انه

جنرال غير طبيعي . لم يعرف الطريقة التي يضع بها حدا لهذا المشهد الكئيب . انتظر دخول واحد من القاطنين كي ينقذه من هذه الورطة . الا ان الجنرال لم يقرأ ما يفكر به ولم يعبأ لخوفه . جنرال وسط الثلج والقاعة بدا مثل اب صارم في ليلة مظلمة . ما ازعجه فيه عيناه الثابتتان ، الوقحتان ، الواخزتان اللتان لاتعيران اهمية للانسان الواقف امامهما .

– بالامس اتصلت بالجنرال ستالين . طلبت منه طائرة خاصة لتنقل كل الموجودين في المجمع الى موسكو . محمود المجنون وعباس الاحول ونادر المشلول وسرهنك الذي يشرب العرق ورامي بائع السجائر المهربة والسياسي الفذ عبد الواحد آل لفتة ، وحتى احمد ، رغم انه يستحق البقاء هنا الى ابد الآبدين . قلت للجنرال ستالين ، هؤلاء لاجئون سياسيون وليسوا لصوصا . انصحك ، ايها الشاب المهذب ، الذي يبحث عن امه ، ويكره اباه ، وارجو ان لا يزعجك تطفلي ، انصحك ان تبقى هنا الى وقت وصول الطائرة . لا ترحل الى بلد آخر . الى موسكو الحمراء .طائرة من ورق وجنرال من قش الذرة .

ثم مد يده فجأة الى جيب داخلي في معطفه واخرج كتابا بائدا واخذ يقرأ له منه :

أبان لي عن سر الصعود بالتحليل . وفرق لي بين التحقيق والتخييل . واوقفني على غلطات الاذهان والنفوس في الاعيان . وسر المشي على الماء .وابراء الاكمة واحياء الموتى . وكشف لي عن خواص المعادن والاحجار . وقال ليس اقبل للسر من الفرار . ولقد تطاول اليه الحيوان ، وماحواه نبات المعارف في كل جنان .

حبيبي تراني عند باب جلالكم فهل لي من سبيل ومن قرب
تريد جفوني ان ترى نور وجهكم فتشهدكم عيني ويرعاكم قلبي
ترفّق بمن اضحى قتيلا بحبكم وبالكلف المشتاق والواله الصب

اتعرف من؟ انه شيخنا ابن عربي المدفون في ظلال قاسيون . قدسوه . قدسوه ايها الكفرة . . .

وقف مذهولا ، من سعة علم الجنرال ، واهتمامه بالشعر . قال لنفسه : ليتني

استطيع اتخاذه صديقا ، انهل من علمه ومخزون معرفته . لابد ان يدلني على حقيقة هذا المكان ، ونوعية الرجال الساكنين فيه . يوضح لي سر تلك الكابينات والحرس المدجج بالسلاح ، والغابة التي صار لونها ابيض ، شبحيا ، كما لو كانت سفينة عملاقة مسافرة في ليل محيط شاسع . سأسأله دون شك ، عن احوال هذه الحروب وكيف حصلت ، ولم يقاتل الانسان اخاه الانسان ، وعلى اي اساس نسيح في هذه الارض لا هدف امامنا ولا مكسب خلفنا . هو الفقيه بالتصوف والاحوال ، العارف بسر الخطط العسكرية والرجل الذي قضى عمره جائلا بين المدن والبلدان باحثا عن سر هذه الحياة التي نحياها .

ما ان لمح الجنرال وجه ستار ، مراقب القاعة ، وهو يطل من الباب ، حتى فر هاربا دون ان يودعه . استغرب الامر . هل يهرب الجنرال ؟

***

المدينة ، رغم انها بعيدة الا انه يتقرى تفاصيلها . هنالك سواد مختلط بالزرقة يلفها ، ومن بين السواد اشباح بيوت . ثم يرى عددا من المآذن مضاءة بلون ابيض ، وهناك في جهة ما هلال بدا مثل منجل . القباب تلونت بالاصفر والنوافذ تنتهي باقواس صغيرة تحتها زجاج معشق احمر واصفر وازرق . ربما يزورها في الايام القادمة . تلك المدينة الغامضة . هل يعرف قاطنوها بعضهم بعضا؟ هل يعرفون ان شلة من الغرباء تعيش قربهم؟ هل تناهى الى اسماعهم وجود جنرال يقطن على بعد امتار من الغابة؟ ترى ماذا يحملون عنهم من افكار؟

من باب ما يندلق لسان اصفر الى شوارع معتمة لا يراها ، الا انه يتبينها في خياله خالية من المارة . كما لم يلمح اي ضوء متحرك هناك . المدينة خطوط زرقاء وبرتقالية ربما هي الاسطح ، ومربعات متوهجة باحلام النائمين الذين افترشوا اسرة من ريش . انها مدينة ، مثل امرأة ، تشعر الانسان بالعجز ، كونه لايستطيع امتلاكها .

جاء ستار بوجه ضاحك وقال له بغتة :

- هل تشرفت بمعرفة الجنرال؟

- نعم ، وقرأ لي من كتاب محي الدين بن عربي .

- انه مجنون . عاش هنا اكثر من عشر سنوات . منذ بداية الحرب .

- اي الحروب تقصد؟

- حرب البسوس!!!!

- لكنه يضع نجوما على كتفيه .

- التقطها من سوق النفايات . هي ليست نجوما حقيقية . اغطية كوكاكولا ومقصات فضية وقطع حديد وخرداوات جمعها على صدره وكتفيه تيمنا بالجنرال ستالين . هل تعرف انه نسي اسمه ومن اين اتى والى اي بلد او مدينة ينتسب؟ الصقوا به صفة جنرال وهم يعرفونه بهذا اللقب فقط . وصل الى المجمع بلا اسم ، ولا هوية .

في هذه الاثناء ، وستار يتحدث له حديث العارف عن الجنرال ، بدأ القاطنون يعودون الى القاعة ، مصحوبين بضوضاء عالية وكلام وهمهمات . تمدد البعض ومضى آخرون الى الاسفل للرياضة . جاء سعيد واخبره انهم لم يعطوه حصته من الطعام . قالوا له ينبغي عليه الحضور بنفسه ، كي لايحصل غش في الموضوع . قال له لايهم فلست جائعا . لم يرو لسعيد ماشاهده اليوم ، اذ ان عليه ان يعتاد حياة هذا المكان . او على الاقل يجعل منها تجربة اكتشاف ، يضيف منها خبرات جديدة الى معارفه . هنا عينة مفيدة لدراسة البشر وانماطهم وسلوكياتهم . لا يعتبره سجنا لرغباته وحريته ، بل كتب متحركة . فيها سطور وصفحات وجمل وفوارز وهوامش وايحاءات وبوح وفلسفة ووجهات نظر وهو الآن يفكر مستغربا ، اثناء كتابة هذه الأحداث ، هل كان يحدس ، منذ سنين ، انه سيكتب كتاب ياسمين؟ وهل ستنمو فكرة ان الحياة عبارة عن كتب لا تنتهي وتستولي على ذهنه لهذه الدرجة؟

نعم ، عليه ان يدرس المطعم وم يتكون وكيف يرتاده القاطنون ثلاث مرات في

اليوم . يرى احمد الخول ويقترب منه ويحدثه كي يفهم بعمق ، كيف صار خولا ولماذا . اما تلك الغابة المنزرعة على حافة المجمع فسوف يعد اشجارها وانواع الطيور التي تحط فيها والنباتات المنتظرة لحلول الربيع كي تسفر عن نفسها . لابد ان يكون فيها يوكالبتوس وسنديان ، وفي الارض ينمو فطر وتمشي ديدان وتنتأ عن الارض شتلات غضة . والحيّات فيها تتخذ شكل غصن طويل كي تفاجئ ضحاياها . وماله يسمع قوقأة دجاج ودبيب غمال في مكان ما قرب كابينة الحرس؟ رجل يغني وفم يضحك وطير يئن . ثلج يذوب وجذور تتغلغل في التراب . سيارات تمرق في الشارع واطلاقات تشق الهواء في مكان بعيد .

سيحدق في المدينة من شبّاكه . في الفجر والظهيرة والغروب والليل . ينبغي ان يراها كيف تبدو وما هي الشخصية التي ترتديها في مثل هذه الاوقات . فلكل مدينة شخصية معينة ، مثل بني البشر . ثم الاكل الذي يقدمونه لهم ، ماهي انواعه ، كيف يطبخونه ، ومن يقدمه . اشكال الطباخين ، اسماؤهم ، نظراتهم . كيف يقضي هؤلاء البشر اوقاتهم ، هل يقرأون الكتب ومانوعها؟ هل يسمعون الموسيقى ، وكيف؟ لاسيما انها ممنوعة كما قال العسكري . والالعاب التي يمارسها اكثر من مئتي شخص يقطنون هذا المجمع .

عرف من ستار ان الصيف هنا امتع من الشتاء ، وينبغي عليه ان يعرف لماذا . عليه ان يرتاض كثيرا لكي ينشط عضلاته ، ويحتك بالناس ، ويزيل الوحشة من نفسه بعد مفارقة الاهل والخلان . شعر بانقباض في صدره ، فهو لا يعرف احدا هنا ، ومن طبيعته ان لا يثق بأحد دون معرفة عميقة . إنه كائن مليء بالريبة والحذر ، لسانه لا يتكلم الا بعد تفكير . ما هي حكاية تلك الكتب العتيقة التي يعثر عليها المرء في كل محل ، على الاسرة ، في الشبابيك ، على الخزانات ، امام باحة الحمام ؟

***

خرج من البيت بمزاج متألق . الشمس مشرقة والأطفال يلعبون في الحارة

الضيقة ، وكانت حمامات ملونة تطير في السماء . شعر بنفسه كائنا غير مرئي ، يتجاوزه الناس دون ان يروه . او ربما هو الذي لايرى أحدا ، فالبيوت والشوارع والاشجار والسيارات ومحلات الملابس والأطعمة ، لم تعد تجذب حواسه . في الأفق جبل اجرد وأشجار توت وحمام ، وهو يعيش في رأسه ، مع ياسمين وسعيد ومرام وعقد المرجان وكرنفال الاشكال والحكايات التي لاتنتهي .

المرأة المصابة بالسرطان قالت انها ترى الحياة فائقة الجمال ، لكن على المرء ان يتركها يوما ما مثلما تركها طفلها . مرام تكرس حياتها للمتعة والرسم وهو يكرس هذا الوقت من حياته لكتاب ياسمين . ومثل حلم رأى فرق الكرنفال تمشي في الشارع رغم بعد المسافات . فرقة البطاطا ، فرقة الخيالة ، فرقة المخنثين بابتساماتهم الناعمة ، وفرقة الراقصات وهن يهززن ارداقهن في رقص شرقي . وذلك النشيد الذي سمعه ينطلق منهن ذات مساء : ياسائق التاكسي . . التاكسي خذنا على الفردوس ، من طلعت الأفلام طلع الفلم هندي . اي هدير في رأسه .

اليوم هو الجمعة ، وفي الجمعة تتناثر الكتب على الأرصفة ، وتخلو الشوارع من الزحام . لايعود هناك سوى المتسكعين والباحثين عن الكتب . لن يذهب الى المقهى ولا الى سوق الجمعة ، فالبارحة فكر ان لديه نقصا بالمصطلحات ، والكلمات والمترادفات المجسدة للتجربة . وتلك مهمة عويصة جدا ، مهمة تحويل الحياة الى كلمات ، كي يتابع ياسمين وتعاليمها وتحولات افكارها . ينبغي ان يحول اشجار ياسمين ورسومات المرأة المصابة بالسرطان وانشطار ذلك المهندس والأحلام وليلة الكرنفال ونظرات مرام وموجودات غرفته وهمسات حبات العقد المعلق في غرفته الى كلمات ، وعبر وحكايات وأماثيل وحكم .

الكتب تتناثر تحت الجسور وامام المحلات المغلقة وفي مداخل العمارات . موضوعة على كراس او دكات اسمنتية او معلقة في شباك الاسيجة الحديدية . كتب من كل لون وصنف . مجلات علمية وقواميس ومسرحيات واشعار وروايات وموسوعات بمختلف اللغات . عيون الزبائن تتطلع الى كل ذلك بمتعة وفضول ، والجميع يبحث عن كتاب في خياله يظن انه سيغير حياته . فكر ان كتاب

ياسمين سيعرض يوما بحلة انيقة بين تلك الكتب . وسيوجد شخص واحد حتما يهمه ان يعثر عليه ، حالما بكنوز الحكمة التي ستنتهي بين يديه . سيلتقي ذلك القارئ بجده وهو يلتهم العصافير ، به وهو جالس في بيته يدون فراشات افكاره ، وسيدخل مع مرام الى الحمام مستمتعا بخيالاتها المحلقة بين البيوت المحترقة . سيرى الكلبة المحتضرة والرجل الذي تحول الى حبة بطاطا والعقد السحري ، وسيشم ازهار الحديقة في بيت ياسمين ويسمع دقات الجرس وهي تدعو المريدين الى جلسة تأمل .

كانت عيناه مثل عيني صقر تبحثان عن الفريسة . وأول فريسة وجدها كتاب الأحجار الكريمة . كتاب قديم ، يحتوي على اسماء الصخور والأحجار ذات الخواص العجيبة ، فوائدها والوانها واستخداماتها والأماكن التي تجلب منها . المؤلف مغربي زاهد خطر له قبل قرون ان يرصد خواص الحجر . وقد كرس للمرجان فصلا طويلا سيفيده حتما بمعرفة المزيد من خواص عقده ذاك ، ومنه سيعرف ربما سبب موت سعيد في كهوف المرجان . الأحجار الكريمة ليست للزينة فقط ، ففي ذراتها سريان لايكل لجبروت هذا الوجود . وعند بائع آخر وجد كتاب الجسد . وهذا ماكان يفتقده ويبحث عنه . فمن خلال لوحات تشريحية وشروح مفصلة سينفذ الى سر تلك الآلة العجيبة التي تمشي وتقفز وتحلم وتتذكر . العظام والأعصاب والعضلات والأحشاء الداخلية ، كل ذلك مترافق مع بيانات الأمراض النفسية والجسدية وكيف تتمظهر على الملمح الخارجي للأنسان . سيضيفه ايضا الى ما يملك من كتب حول النفس والعقد وتفاسير الاحلام ودلالات لغة الجسد ودور الطفولة في صنع الكائن البشري .

وعند البائع نفسه لفتت نظره موسوعة الأشجار المنزلية ونباتات الزينة ، اسمائها واطوالها واشكال اوراقها وازهارها وكيفية الحفاظ عليها سواء داخل المنزل او خارجه . حينما تلبث يحدق بصفحات الموسوعة احس وكأنه انتقل الى حديقة ياسمين ، بأشجارها المقزمة واورادها ونباتاتها اذ رأى عددا كبيرا منها هناك . واستغرق بالموسوعة حتى كاد ان يستحضر صورة ياسمين وهي تنقل ابريق

الماء من نبتة الى نبتة لتسقي ابناءها وبناتها كما دأبت على القول .يشم المطاط والياسمين والدراق . ثم سأل البائع عن كتب تخص التصوف ، واشعار العباد والزاهدين ، فأخبره انه لايملك شيئا منها . نصحه بالذهاب الى صديقه الذي يحتل بكتبه سياج الشارع المقابل للسينما ، فربما سيجد عنده ما يرغب . وقبل ان يغادر البائع سأله عن كتاب الكتب الحاوي لجميع المعارف .

قال له باسف : انه لم يطبع بعد .

حاول ان يشرح له شكل الكتاب الشبيه بالشجرة ، الذي رسمه في صالة القلب المغني ، حيث الأوراق كتب صغيرة والجذور تحت الأرض تنبع من كتب ضخمة مختلفة الأحجام . وكان ان نظر اليه بريبة ثم التفت الى زبون احدب فانصرف خائبا .

تحت اغصان اشجار التوت وجد اعدادا هائلة من الكتب والمجلات ، معلقة في السياج ، بعضها قديم تهرأت اوراقه وبعضها جديد لم يزل مغلفا بالنايلون . لفت نظره كتابان حول التأمل فاشتراهما ، حتى دون ان يساوم على السعر . ووقع على كتاب جديد عنوانه ترانيم الروح ، وفيه فيض من قصائد الوجد والاشراق والغزل ، جمعت من شعوب مختلفة ، فأشتراه ايضا ، ووضع الكتب في حقيبته الجلدية ثم اتجه الى صندوق التلفون . طلب رقم مرام ، فردت عليه امها المريضة وقالت انها ليست في البيت ، وفكر انها ربما تكون في طريقها اليه . لذلك لم يقصد المقهى ولم يدخل اي مطعم رغم احساسه بالجوع . استأجر تاكسيا وعاد الى بيته ، وكانت الشمس تعانق ذرى الاشجار والأطفال يلهون في الحارات والأفكار تتلاطم في رأسه .

الفصل السابع

اطبقوا الباب وراءهم ومضوا الى الغابة . وهي قريبة من مركز القلب المغني . كل اثنين يمشيان سوية حسب ما اوصت ياسمين . كان رفيقه ذلك المهندس المنشطر الى شطرين . الذي لايمكنه العمل الا على مشروعين ، وكأنه شخصان في جسد واحد . عليهم التحدث اثناء الطريق عن ماضيهم ، بصدق ووضوح وصراحة . وهي خدعة جاءت بها ياسمين كي تزيد اللحمة بينهم وتساعدهم على التعبير عن انفسهم . اذا استطعت ان تقف عاريا مع شخص واحد فإنك تستطيع ان تكون عاريا وحقيقيا مع الكل ، قالت .

اجتازوا السياج الخفيض للحديقة ، مخلفين عطر البيت والوان النبات وخضرة الصبار وراءهم ، متجهين نحو غابة السرو والارز والجوز البري . الجو رائق ، السنونو في السماء ، وضجة الطيور تجلل الفضاء ، والشوارع شبه خالية . المنطقة المؤدية الى الغابة مزروعة بالشيل ، شكلت فسحة واسعة اشبه بساحة . هناك اشخاص يلعبون كرة القدم ، وآخرون يطيرون طائرات ورقية ملونة في سماء زرقاء .

قال له رفيقه وكان وجهه اسمر وعيناه صغيرتين حادتين ، وشعره يميل الى الحمرة ، وتعابير وجهه متعبة ، كأنه ينوء تحت ثقل كيس ضخم من الاحداث والمواقف :

ولدت الثالث في اسرتي . الكبرى بنت ، اسمها باسمة ، وجاء بعدها اخي الاكبر عادل ، ثم انا . ومنذ اليوم الاول لمولدي احسست انني غير مرغوب بي ، لا ابي يحبني ولا امي . اكتشفت السبب لاحقا ، ولا اجزم انه كان وراء ذلك . امي لم تكن ترتاح لابي وكثيرا ماتمنت لو انها لم تتزوجه . زواجهما تم بحكم القرابة لا اكثر . وكل مولود يأتي يربطها الى ذلك الرجل اكثر فاكثر ، الشيء الذي ما كانت تتمناه .نشأت في قرية كل مافيها طبيعي ، تعيش بعيدا عن الحضارة ، اي باختصار انني كنت ابن الطبيعة . اصبت ، بعد اشهر من ولادتي بمرض غير معروف . رشق جسدي وبان على شكل حبوب صغيرة لم تترك اي مساحة ولو بحجم اظفر الا وانتشرت فيها . توجس اهلي والاقرباء والجيران من المرض ، قسم قال انه حصبة ، وقسم قال انه جدري . انتشر خبر المرض في كل البيوت . ممرض القرية اخبر اهلي ان حالتي ميئوس منها ، ولا داعي لمراجعة الاطباء ، لكن جدي اصر على ذلك .

نقلت الى محجر صحي يديره طبيب ، قرب جسر يقع في اطراف المدينة . بناء قديم مكون من غرف عديدة . وضعونا انا وجدي وجدتي في غرفة مظلمة منتنة رطبة ، لا احد يزورنا ، سوى ذلك الطبيب . مكان يكثر فيه البعوض وحرارته لاتحتمل . الغبار عادة ما يغطي الاشياء كافة . وفي كثير من الاوقات كان الجد والجدة يتمنيان موتي كي ينتهيا من هذا العذاب الذي يعيشانه . امي لم تكترث لما اصابني ، بل وكانت تدعو الله ان يأخذني اليه ، لانها لم تحس برابطة الامومة معي . لم ترضعني ، ولم تهدهدني . استلمتني الجدة منذ الايام الاولى للولادة . كان الطبيب يائسا من حالتي هو الآخر ، الا انه كان يدلك جسدي بمرهم اشبه بالزيت ، للتعقيم اكثر مما هو للعلاج .لكن قوة الحياة تنتصر احيانا على الموت ، رغم كل الاوبئة والامراض . بقيت اكثر من اربعين يوما في تلك الغرفة . تغلب الجسد على عامل الانحلال والتفتت والموت فبدأت البثور تتفجر باعثة سائلا اصفر ، لتهمد بعدها قليلا قليلا . صرت اشرب حليبا صناعيا تجهزه الكرنتينة بجشع ، وامص ثدي جدتي بقوة ونهم . بل وكنت اصرخ في منتصف الليالي طالبا

الطعام . ابتكر لي الطبيب وجبة مغذية مكونة من الرز مع الحليب ، انهل منها دون شبع . هذه التفاصيل رواها جدي لاحقا عشرات المرات .

ظل الحال هكذا الى ان استرددت عافيتي وبدأ جلدي يتورد بألوان الحياة . صارت عظامي تنمو وملامحي تتوضح . لكنني كنت مثل دودة صغيرة ، تتلوى بين اللفائف والاغطية . قال الطبيب لا حاجة لكم في البقاء هنا اكثر ، فعدنا الى القرية ، واستقبلنا الاهل بالدعاء والسلامة . امي لم تفرح كثيرا حين اخذتني بين ذراعيها . لم تبد اهتماما كبيرا تجاهي . بتلك التعابير الخشبية البليدة ، والنظرات اللاأبالية والحركات البطيئة والشفتين المرتخيتين ، ظلت تعاملني كأنني كائن زائد ، تؤدي واجبها اتجاهه كي لايموت .

مشهد يحضر في ذهني ، من تلك الفترة . مشهد صحراء واسعة ، صفراء اللون ، تغيب في الافق . ثمة غابات بعيدة من النخيل ، ورائحة اسماك وطحالب وطين . كتل هائلة من الحديد المشتبك بعضه ببعض ، والبوابات الحديدية السوداء . . . بوابة حجز المياه . كان ذلك اول مشهد وعيته ، او هكذا ظننت . وقد يجوز ان كل ذلك ماهو الا تخيلاتي اللاحقة . رائحة الجسد الذي ارضعني لم تكن رائحة امي ، كذلك الانفاس والصوت والحرارة . وهذا ما اشعرني بالخوف وقتها . ثمة امراة غريبة تلتصق بي . اين امي؟ لا اعرف . ولم تمض الا بضع سنوات وقرر جدي ، بغياب ابي ان يقوم بختاني . هكذا اخبروني . وقتها لم اعرف ماهو الختان .

أُلبست دشداشة بيضاء ، وأُقيم الحفل وجلب المطهر التركي ، الى البيت . كان عمره اكثر من ستين سنة . اذكر ان اسمه محمد ، يداه ترجفان ، وجسده نحيف مثل اصبع . لم اكن ادرك ما يجري حولي حين كتفوا يدي وامسكوني امام ذلك الشيخ . لصفت شفرة معدنية حادة ، وامسكت بها اصابع مرتجفة . لم اعرف ماهي ، الا انني وبلمحة خاطفة احسست وكأن جسدي ينشطر الى شطرين ، وثمة الم غير معقول في الاسفل . ظل فمي مفتوحا اكثر من دقيقة ، منقطع النفس ، مزرق الهيئة ، مغمض العينين . ما الذي اصابني ، ولماذا طعنت في تلك

المنطقة هذه الطعنة القاتلة؟ لم ادرك ماجرى ، الا ان الما هائلا سيطر علي ، حيث اصبحت كتلة من الالم . نمت ، مرضت ، تأوهت ، وبدأ الالم يخفت يوما بعد آخر . جدي كان مسؤولا عن صحتي . يضع لي المراهم على عضوي ، يبدل الشاش ، يحنو علي ، اما المطهر محمد فقد رحل الى قرية اخرى ليقوم بالعمل نفسه بعد ان استوفى اجره . اتذكر منه اليوم حقيبته الجلد ذات الجيوب العديدة ودراجته الهوائية التي يتنقل بها اثناء مواسم التطهير بين القرى والمدن . تبين فيما بعد ان ارتجافة يد السيد محمد تسببت في قطع غلفتي بشكل غير منتظم ، اصبحت بعدها اعاني وجعا هائلا كلما اردت التبول . مما حدا بجدي الى اخذي الى المدينة للعلاج . لحد هذه اللحظة وانا اتذكر ذلك الوجع الكبير ، كلما ذهبت للتبول .

الحياة تنقسم الى عالمين ، عالم الالم واللذة . الاجزاء السفلى من جسدي تسبب لي الالم ، والاجزاء العليا تغذيني باللذة من طعام وشراب ومشمومات . تجاهل امي وكرهها لي ، ومودة جدتي وحدبها علي . ادركت ان الجسد يمكن ان يكون مصدرا للذة والالم في الوقت نفسه . تعايشت مع هذه الثنائية منذ ذلك الوقت . اعتبرتها قدري في هذه الحياة منذ ولادتي . وقررت ايضا ان استعيض عن امي بالاشياء المحيطة بي ، الحقول ، الاغنام ، النهر ، السواقي ، النخيل . اي باختصار قررت ان اجعل من الطبيعة اما حقيقية اغتذي من تمورها وثمارها واشرب من مائها واتملى في مناظرها .

آخيت البعوض والخنافس والطيور والبقر والكلاب والقطط . شعرت بالحنو تجاه غربان الزرع والزرازير والحمام والصقور المحلقة في سماء القرية . اما الارض فكانت يدين حانيتين تهدهدان جسدي وحاجاتي واعضائي . لا تسألني كيف تم ذلك؟ فانا لم افكر بوعي بالمسألة ، الا ان ماحصل كان هكذا . اجوع فأمضي الى النخلة ، اتسلقها ، احوش التمور واملأ بها جيوبي . احس بالعطش فأمضي الى ساقية الماء واعب بيدي ذلك السائل دون ان اكترث ان كان ملوثا بالديدان او الطحالب او الغرين . انه ماء والماء لايفسد ، خاصة الجاري منه . اريد ان اعبث

والهو ، امضي الى النهر واشلح ثيابي ثم اقفز الى الماء ، اتحول الى قوقعة او سمكة ، الى عرق طرفاء او غصن غرب . استلقي على الجرف الرملي مثل سلحفاة ، او انام على الطين الدافئ عاريا كما خلقت . انغل في الطين احيانا واحس كما لو ان الارض بها رغبة شبقة الى التهامي . وفي كل ذلك ثمة احساس غامض باللذة والتوحد بالارض والاشياء المحيطة من اثل وحلفاء وبشر ولوبياء ونخيل وشنبلان وسعد وبق ماء وزنابير . ولحبي الكبير لجدي ، كنت اصطاد له العصافير في الغرفة ، بعد اغرائها بالقمح والطحين ، واشويها مملحة بنار عروق الطرفاء ، فكان يلتهمها بلذة ثم يحمد الله على تلك النعمة ويعمّر مشربه بسيجارة طازجة .

كان هناك شيء واحد ينغص علي حياتي . الكابوس الوحيد في تلك الجنة التي عشتها . ذلك الكابوس كان ابي . فهو يمتلك عينين قاسيتين ، ناريتين ، لا تدعوان الى الطمأنينة . حين يحدق الي احس بدونيتي وصغري وتلاشيي ، فاقدا شعوري بحقي في ان اوجد ، واستمتع بغروب الشمس ومرأى عرانيس الذرة وعذوق النخيل . باختصار كانت نظراته تلغيني ، فلا اعود موجودا . ما ان ارجع من النهر ، بعد سباحة ولهو مع الصبيان حتى يجرني الى اقرب زاوية من البيت وينهال علي بالضرب . اتأخر في الجزيرة المكتظة بالبطيخ واللوبياء ، وهي لاتبعد كثيرا عن بيتنا ، وكنا نرحل لها سباحة خاصة في الصيف ، ونقيم الاكواخ الصغيرة من اغصان الطرفاء كي نحتمي من الشمس ، حتى يملأ وجهي بالبصاق . يدعوني بالكسول ، والمخنث ، والسائب ، والعار . لم افهم لماذا ، اذ كنت مثل الصبيان الآخرين ، لا ينقصني شيء . بل وصار يعيّر امي بي ، وينسبني اليها باعتباري ابنها العاق ، غير السوي ، الذي يشبه جرادة هشة . ومن وقتها صرت اكره الجراد . لانه شبهني به .

لم اعرف مالذي يرضي ابي وما الذي يغضبه . اختلطت علي الامور والاحاسيس حتى اصبحت اخاف من التعبير عما افكر به او احس . اليوم تمر علي ساعات افقد فيها كل رغبة في الحركة . اجلس في السرير او على الاريكة

ولا اجد اي دافع لفعل شيء . احس وكأن الحياة فارغة ولا جدوى من الاستمرار فيها . حتى الطعام اعود لا استسيغه . ذهني يصبح بياضا ، كل ما افعله هو التحديق بنظرات تائهة في درفة الباب او حافة السرير او الشجرة المنتصبة خارج البيت . احيانا تشغل نظراتي اشياء تافهة على الجدار كأن تكون بقعة رطوبة او خيط عنكبوت او فراشة ليلية لاطية . وتظل هذه الحالة معي ساعات او اياما بعض الاحيان . ثم فجأة يرتد لي نشاطي ، كمن افاق من غيبوبة واستعيد اقبالي على العمل والحياة . . . . . .

كانت لديه موهبة خارقة في الاصغاء . اعتبرها واحدة من امتيازاته في الحياة . شعر بأستغراب الرجل لانه لم يقاطعه اثناء سرده لحكايته . لقد انغمر حقا بكلمات الرجل حتى انه لم ير كيف دخلوا الغابة . وشعر به كما لو كان يروي قصته هو ، وهذا ماحيره طوال الطريق .

***

الارض مغطاة بالورق ، اصفر وبني واخضر ، واسود تعفن بسبب المطر والرطوبة . هنا وهناك شجيرات نحيلة مزروعة في البقع المضيئة التي يسقط عليها ضوء الشمس . الاشجار خليط غريب ، يعرف بعضها ويجهل اسماء البعض الآخر . لكنها كلها غير مثمرة . السنديان والبلوط والسرو والغرب والصفصاف ، اضافة الى انواع برية من اشجار التوت . في الامكنة المظلمة لمح مستعمرات من الفطر ، بعضها ابيض اللون والاخرى بنية ، وفكر انها لابد ان تكون سامة . لم يكن هناك طريق واضح يشق الغابة ، بل دروب ضيقة تتوغل في تلك العتمة تجانب الاغصان وتخاتل السيقان الغليظة . كانوا مثل ديدان ملونة تدب في هذا العالم البري الموحش . الهواء نقي والطيور تغرد في الاعالي ، في ذرى بعيدة بالكاد تنفتح على زرقة السماء . قال لنفسه ربما اكتشف عش يمام او عصفور ، فراح يطوف ببصره في التيجان المتشابكة ، البحر الاخضر المتباين الالوان . تيه الورق

والغصينات واللحاء الممزق والسناجب الناطة من شجرة الى اخرى . وآلاف من الريش يتطاير في اشعة الشمس .

قالت ياسمين : نأتي الى قسم آخر من الجسد ، بعد اشتغالنا على الاساس . . . التأريض . . . الساقين والقدمين والفخذين والحوض ، الا وهو الظهر . الظهر هو الجزء الاكثر انزواء عن العالم المحيط ، والاكثر تعبيرا عن شخصية المرء . انه المنطقة الاكبر للعمل فيها ، جسديا ونفسيا . هناك كثير من الاشياء التي تقبع في الظهر ، مرتبطة بالماضي . انها عادة ماتكون عائقا امامنا لاستخدام مصادر طاقتنا للعيش في الحاضر . . .هنا والآن . وبدلا من بقاء الماضي مصدر ازعاج لنا علينا تحويله الى مصدر قوة لتجربتنا . الظهر هزائمنا .

على الظهر ، يمكن القول ، اننا نحمل كيسا واسعا ، يحتوي التجربة التي علينا ان نضيئها بالوعي . اذا نحن لا نبدأ باخراج محتويات ذلك الكيس الى الهواء الطلق ، و نبقى دائرين بها سنة بعد اخرى ، سيصبح ذلك الكيس ثقلا هائلا ينقض الظهر . المتناقضات والاشكالات التي نمتلكها في الظهر تبين عادة في حياتنا اليومية على شكل عواطف وانفعالات . حين تظهر العواطف تلك ، نسقطها عادة على الناس والمحيط . نحمّل الآخرين الذنب ونعتبرهم اسبابا لتجاربنا المحبطة اوالفاشلة . لكننا في حالة اعادة النظر بتلك العواطف والانفعالات سنتمكن من رصدها بالاطار الصحيح واستخدام الطاقة الصادرة منها بطريقة ايجابية .

هناك اناس ترتبط شخصياتهم بتلك العواطف ، تصبح سمات لهم ، والاقتراب من هذه النقطة يشكل عامل تهديد لهم . نعم ثمة عدد لايحصى من انماط البشر لديهم هذه الاشكالية ، وماينبغي القيام به يعتمد ايضا على الاشخاص . البعض يكون بحاجة الى وقفة تأملية مع نفسه ، لاستجلاء الماضي واحداثه وازماته ، والبعض الآخر يحب الحديث عن تلك الاشياء كي يشكل شيئا من المسافة بينه وبينها لذا يستطيع محاكمتها عقليا . البعض بحاجة الى دليل ، يسمع له ويوجه تأملاته .

التقبل ، هي الصفة المهمة التي يجب على الانسان امتلاكها ، سواء تقبل النفس او الآخرين . وهي صفة عادة ماتنبع من القلب . انظروا الى الغابة حولكم ، كم هي متعددة ومتباينة ، في الالوان والاطوال والحجوم . فيها مايتحرك وما هو ثابت ، ماهو جماد وماهو حي . الزاهي والمعتم . الجميل والقبيح . السامي والواطئ ، لكن ذلك كله هو مايشكل الغابة . حدقوا جيدا في البحيرة تلك . كم هي غنية بالاعشاب والطيور والحيوانات والاسماك ، عدا عن المياه المتلاصفة الرائقة . ثمة هارمونية شبه مطلقة . كل عنصر يجاور الآخر ، يقبله ، يغني وجوده ، يحتفي به . التقبل حالة ضرورية جدا اثناء العمل على الظهر ، اي على كل مااخفاه الحاملون من اشياء بشعة يخافون مواجهتها فدفشوها عميقا الى القعر ، كي لايحسوا بها او لا يروها . لكنها هناك . وليس امام الشخص الا تقبل كل محتويات الكيس حتى يمكنه ان يواجه ماضيه . يعرضه على الضوء . يتأمل فيه .

مثلما تشاهدون الآن غصن شجرة اليوكالبتوس السامقة العاكسة لضوء نوراني ، وفي الوقت نفسه تلاحظون العفن والتفسخ المتراكم في الجذور ، على الارض . انظروا تحت اقدامكم ، تطلعوا في النمل ، في الديدان ، في اربع واربعين ، في العناكب الجوالة ، ثم ارفعوا ابصاركم الى الاعلى . ترون البط الطائر والدوري واليمام والصقر المهوّم كملك في فضاء الزمن . قل لنفسك انك تقبلها كما هي ، ولجسدك انك تقبله ايضا مثلما جاء الى هذه الدنيا . اتعس ما يعمله الانسان هو الهروب . الهروب من النفس والماضي والحاضر . في الحقيقة ليس ثمة من مهرب . . .

الى اليمين وقفت المرأة المصابة بالسرطان ، تحدق مذهولة في ظلال الاغصان على الارض . الاغصان ترتج وتتمايل لتكشف بقايا ازهار بوقية ونباتات متسلقة واوراق تشبه السيوف او سنبلية يميل لونها الى البنفسجي ، وفتات ورود كانت يوما بيضاء وحمراء . المرأة مهددة بالموت ، قطعت ثديها الايمن ، وتشعر انها على وشك توديع الحياة . لكنها ترغب بوداعها باسمة راضية دون اسف . تريد ان تعيش الحياة كرقصة ، جميلة صاخبة ، ستمضي يوما الى نهاية ما مهما طالت السنون .

المهم هو كيف يصل الانسان الى تقبل مثل هذه الحقيقة .

نسيم عذب يتخلل الغابة قادما من مسطح البحيرة القريب . الكل مفتوح على الاحاسيس وهي تنشال من مصادرها ، العين والانف والفم والاذنين والانامل . وهو راغب في تمثل هذا الوجود بكل مافيه من تنوع وتنافر . يقفز الى شجرة يوكالبتوس معمرة ويحتضنها ، فتتدفق في شراييه طاقة هائلة . يرفع رأسه الى الاعلى ليدوخ في خضرة كثيفة مليئة بالاعشاش والنحل والدبابير . لم يعد يتابع ماتقوله ياسمين ، توجهت اذناه الى سمفونية الاصوات المؤلفة من كلام بشر قريبين وتغريدات بلابل في مكان ما وصياح بط يطير على وجه الماء . تخيل افعى ما تطل من التفافة هائلة من الاغصان معلقة فوق رأس ياسمين . كانت تتحرك بخفة ، وكاد يصرخ طالبا منها الابتعاد ، الا انها مدت يدها كما لو كانت تود تعرية افكاره وخيالاته لتمسك ذلك الغصن ، وتهم بالتأرجح عليه . انها بملابسها الخضر مثل فراشة عملاقة تضحك وتتكلم وتهمس . المهندس ينظر الى مشهدين في الآن نفسه ، الى جرف البحيرة المكتظ بالحشائش وفم ياسمين الذي لايكف عن الكلام . رأسه مثل بندول يميس يمينا الى فم ياسمين ويسارا الى الجرف .

مر سرب من الوز ، ابيض مهيبا ، سابحا في المياه .

كان يقطر وراءه مثلثا مائيا ، يتسع لحظة بعد اخرى . كانت افكارهم مثل الأمواج التي يخلفها الوز ، سريعة الزوال لكنها خالدة .

***

بعد اسبوع قادتهم ياسمين ثانية الى تلك الغابة .

قالت سنجري هذا النهار تمرينا في الهواء الطلق . وقد اندمج هو كلية بأجواء ياسمين . لم يعد يعتبرها لعب اطفال او نزوات متبطرين ، مثلما شعر اول فترة في مركز القلب المغني . انقسموا فريقين ، كل واحد اختار رفيقا ، وضع له المنديل

عصابة على عينيه . اعمى ومبصر . هذا هو التمرين ببساطة . على حافة البحيرة ، بين سيقان الشجر ، كانوا فريقين ، واحد يتخبط في الظلام والآخر يقوده . وسط عالم الظلال والنسيم والاوراق المتساقطة والبعوض المحلق بفرح في الهواء . قادته المرأة المريضة بالسرطان من يده . اختفى العالم من امامه وصار يأتي على شكل اصوات فقط . مايربطه به الآن يد المرأة الممسكة به بحنان . الاوراق تنسحق تحت قدميه ، قدماه تربطانه بالارض . تعترضه احيانا شجيرة صغيرة تعلق بملابسه ، ينزل في وهدة ضيقة او يصعد الى مرتقى مكسو بالعشب . كان متردد الخطى ، لم يمنح اليد التي تقوده الثقة الكاملة . لكن شيئا فشيئا راح يحس بالامان . اسلم قياده لها . توجهه بالكلمات فقط وهو يتبع توجيهاتها . تقول له امامك جذع ساقط ارتقه بتمهل . فيقود قدمه بحذر الى ان يتجاوزه . تقول له على يمينك توت بري شائك فلا تقترب كثيرا ، فيلتصق بها ويدع مسافة فاصلة على يمينه . تهمس من قبوها السرطاني سنلتف خلف شجرة السنط الباسقة ، ويحس بتساقط اشعة شمس خفيفة على وجهه ، اما ذبذبات الساق فتصله دون ان يراها . انهما قرب شيء ضخم مهيب له وجوده على هذه الارض . يتخيل جذورا غليظة ممتدة الى الاعماق ، تتغلغل بين الطين ، تتنفس وتمتص الغذاء ، فيعد الجذر رأسا والساق والاورق ارجلا واطرافا . عالم الاشجار عالم مقلوب ، عكس نظام الجسد .

الوجود رائع تقول له : البحيرة هناك . واسعة محاطة بالاشجار العالية . العشب يتدرج من تحت الشجر حتى حافات المياه . هناك تجعدات في السطح يسببها النسيم . هناك بط ووز وسنونو ، يلهو ويسبح ، يغطس في الماء مفتشا عن اسماك وديدان وطحالب وزنابق ماء . في وسط البحيرة جزيرة فيها ثلاث اشجار من الصفصاف ، وفي الصفصاف عشرات الاعشاش . وكأن العصافير تخاف البشر فانتأت في هذه الجزيرة كي تستمر الحياة . عطر الزنبق ينحل في رطوبة الضفاف . اني اشم رائحتك واسمع صوتك ، اسنانك الصغيرة على وجهي ورقبتك بين يدي لاتزال . ياعصفوري الصغير اين انت؟ اشم رائحة التراب ، في صباح ربيعي يمتزج برائحة العشب الطري . العشب الذي غطى وجهك الجميل . عظام تتفتت ،

احشاء تتراقص ، اضلع تنبض بالالم ، وحياة البشر الى اين تسير؟ انهض ايها الصباح الباكي . اضع الصور امامي لاوهم نفسي انه يتحرك ، طفلي الصغير الذي مات ، واحدث الصور كما لو كان يسمعني . دخلت بين القبور ، وضعت زهرة لوتس على قبره وكلمت الحجارة . ارسمي ايتها الريشة المتوقفة الصانتة الخرساء بين يدي . اقرأي ايتها الام الباكية كلمات الحياة . الليل طويل يسربلني لكن النهر لايتوقف . ليس الما ما احس به . انه فراق بعد هوة شاسعة . شموع تضيء واجراس تقرع وصلوات تقال وصور تتلى ووجوه تذهب وتجيء . احذيتك ، شراشفك ، مخداتك . الالعاب المغطاة بالغبار . مكعبات ، سيارات ، شرائط ملونة ، ملابس وردية ، كحلية ، صفراء ، هل اقول الى لقاء قريب؟ عجائز يجلسون على مساطب تحيط بالبحيرة ، انهم يتأملون بايامهم التي ذهبت بسرعة . سيودعون كل هذا الجمال ويمضون الى ارض الموت . الى حيث مضى طفلي الصغير قبل اعوام . لا احد رجع من هناك ، لكنني اتخيله فضاء لايحد من السكون المطلق . حين يصبح الانسان او روحه شفيفة حساسة ترى مايجري على الارض وتعرف ماسوف يحصل في المستقبل . الموت تجربة كبرى ، بل اكبر تجربة يواجهها الانسان .

وهما ينحدران الى بقعة خفيضة ، فكر ان المرأة تكلم نفسها دون شك . ليتها تفصح له عن مشاعرها وكيف تقف امام الموت؟ اليست خائفة؟ وما حكاية الصغير الذي رشت على قبره الازهار؟ ليته يعرف كل ذلك ، وليته يستطيع سماع لون الماء وارتعاشة البط وهو يصطاد طعامه ولون زنابق الماء . ليته يتحسس بقدميه ويديه نظرات العجائز الجالسين على حافة البحيرة ودبيب الخنافس المائية وهي تلامس اول قطرة من البحيرة ، وابتسامة ياسمين التي تجلس في مكان ما تراقب هذا الحشد الباحث عن خلاص . او ربما تتدلى من غصن من اغصان الغرب او تسبح في ماء البحيرة كي تحس بعنصر الماء يمتزج بمسامات جسدها . سمع همسا قريبا منه وصوت اقدام تكرج على اكداس الورق ، وكلمات بالكاد تسمع : الى هناك ، الى هناك . ثم شعر بقدميه تنزلقان على طحالب واعشاب رطبة ، وجاء

الى ارض رخوة مشبعة بالمياه . هل يقف؟ الارض لم تعد صلبة تحت قدميه . لكنه منح ثقته لهذه المرأة ذات الوجه الوردي . لايمكن ان تريد به شرا . قلبه صار يخفق ، وهما يمران من عالم الصلادة الى عالم الميوعة . يمشيان في الماء ، هذا واضح لم يعد بحاجة الى تأكيد . لكن هل توجد بقع ماء في الغابة؟ لم يلاحظ ذلك . اذن انها البحيرة . لكن لم تقوده الى البحيرة؟ زال الشك تماما حين راحا ينحدران الى عمق الماء . تعدى الماء كاحليه وقارب ركبتيه . قال لها اين نحن؟ قالت لاعليك . اقدامهما راحتا تخوضان بصوت مسموع وسط البحيرة . والماء بدأ يحتويه ، يجذبه الى متاهته واسرار عوالمه .

***

بدأ العالم الخارجي يغيب عنه شيئا فشيئا وهو مستمر بالنزول والماء يتصاعد ويتصاعد حتى غمره . قدماه راحتا تمشيان على قاع من الرمل والحصى الناعم ، والطحالب والصخور المنخورة ، المتحولة الى كائنات ذات ملامح حيوانية وبشرية . تؤلف الصخور المتراكمة في القاع مايشبه تلالا فيها مغاور وكهوف سكنتها كائنات حية . سراطين كبيرة حمر اللون بارجل عديدة ، تحمل في لوامسها اعين وشعيرات ، ينفتح الفم لحظة بعد اخرى ليصطاد الضحايا . اخطبوطات تكمن في ظل زنبقة مائية تتمايل مع التيار ، عيونها تترصد هذا العابر في قاع البحيرة ، الغريب الهيئة والاطراف . اسماك مرقشة ، اسماك بيضاء ، اسماك سود ، اسماك وردية الذيل ، وكل سمكة بحجم مختلف . مجموعات او فرادى تسبح في هذا الفضاء المكون من اشجار واعشاب وصخور ومحار وكائنات مجهرية . ثمة انوار خفيفة تتسلل من فوق لتكشف ماتحت ، تتكسر اثناء ارتجاجات الماء ، لتصل القاع واهنة مثل ارواح خفيفة . مشى في منعرج صغير ومر به قطيع من افراس البحر ، تجدف وهي عمودية الاجساد ، تعقص ذيولها الى فوق وتتغازل بين الحين والآخر على هدي الاشعة النورانية . بل وتحدثت فيما بينها كما خيل له ، يلتصق بعضها

بالبعض الآخر او يقابله في رقصة ذات ايقاع موسيقي . كيف لم ير هذه الكائنات من قبل ، ولم يقترب منها؟ انه لا يفهم لغتها ، لا يفهم لغة فرس البحر والسمكة والاميبا الملتصقة بجذر عشبة من اعشاب هذه البحيرة . كما يجهل حديث الاخطبوط للاخطبوط ، والقوقعة للقوقعة ، وهذا نقص كبير ، طالما هم ينحدرون من عنصر واحد ، ومصدرهم ذلك النور البعيد ، الذي تحدثت عنه ياسمين . لماذا لا يتعلم لغتها ، وهي لغة سهلة المعجم لمن يرغب بادراك علاقة القرابة التي تربط البشر مع هذه الكائنات ، لغة مايسمى بالحب .

ناله تعب المشي في هذه الاصقاع ، جلس في ظل جرف اسفنجي ، ليستريح من عناء الرحلة . وفجأة التمع قوس قزح كبير امامه ، كونته الاشعة المائلة التي اشرقت من يساره . قوس قزح لم يره سابقا في الغيوم التي مرت بتلك المدينة التي وصلاها هو وصاحبه الملتحي سعيد الذي هرب واياه من البلد . يتذكر ان المجمع الذي بدأت فيه آلام قدمه كان محاطا بالثلج من كافة الجهات وكانت السماء رمادية على مر الايام . كما لم يره في قريته الواقعة على النهر ، ولا في غرفته المنزوية في المدينة التي نسي اسمها . هذا القوس قزح شاهده مرة واحدة في حياته . كان مسافرا على طائرة متجهة الى الشمال تعرف فيها على ذلك الحكيم الذي ارشده الى علاج ساقه . حدق من نافذة الطائرة ، وكان الوقت غروبا . وتلك لحظة من اعجب اللحظات ، ففي الاعلى صحراء لاتحد من الزرقة ، او شيء من هذا القبيل وفي الاسفل بحر من الغيوم . كانوا يطيرون بينهما ، بين السماء اللانهائية والغيوم ، والشمس اختفت من الافق ، وخلفت وراءها ذلك القوس قزح .

هل يمكن وصفه بالقوس قزح؟ لا يعرف . رآه تحته في اشتباك الغيوم البيض والسود ، الضخمة والخفيفة ، الشبيهة بالافاعي او البيوت او الغابات السنطية ، ذلك الحريق الهائل . البحيرة العملاقة من النبيذ او الدم او الدخان الاحمر ، وهو يبدأ من المنطقة التي غابت الشمس فيها ويخفت قليلا قليلا الى ان يصبح داكن السواد في نقطة تقع خلف جسم الطائرة ولا يستطيع رؤيته . سجادة عجيبة من

الالوان ، تنفرش على الارض التي تحتهم ، لكن هل كان ثمة ارض تحتهم؟ سأل نفسه آنئذ فلم يصل الى جواب . ربما كان ذلك المشهد هو الذي جعله يؤمن بما حدثه به ذلك الحكيم .

لقد كان اكثر من انسان . . . . .

سرب من السمك احمر ، يرقص من بعيد ، وسط ايكة من النباتات البحرية الطويلة وهي تميس كأنها افراس بحر ، لونها اخضر ، وعروق مرجان وردية تنتأ من بعضها ، وعشرات من قناديل البحر ذات الحويصلات الشفيفة البيض . تتقلص وتنبسط ، مادة اسواطها الى الامام او الخلف ، كما لوكانت في سباق . اضاءت كل تلك الكائنات ، السابحة ، او الراكضة ، او الثابتة ، انوار هالة من مصدر علوي ، فاذا كل شيء جميل وجليل . ينتمي اليه ايضا ، هو جزء مما يحيطه ، ليس مايبصر فقط بل وما يشم ويسمع في هذا الكورال المكتظ بالحياة . كل تلك الكائنات تتغذى وتتناسل ، تهرب من الخطر وتنجذب الى ما يوفر لها الراحة واللذة ، الا يراها تتجمع تحت مسقط الضوء؟ وكلها تحيى وتموت ، في دورة لا تنتهي .

يمشي على رخاوة القاع ، بخطى متئدة ، يتبع الضوء الساقط على جسده ، فيحس بالماء ينسلخ عنه ، ويبدأ النسيم يداعب وجهه . تسطع الشمس عليه فيلفه اشعاعها مع كل ضجة هذا الوجود الهوائي الذي راح يستعيده . صياح اطفال على كتف البحيرة يطعمون البط فتات خبز ، وزقزقة العصافير في الشجر ، وهمسات اصحابه حوله ، وقد تجمعوا حول ياسمين ، وخشخشة الهواء في اعالي الشجر .

قالت له المرأة : انزع العصابة عن عينيك .

تطلع في وجهها واحس بابتسامة متواطئة تنفرش على شفتيها ، ثم طبعت قبلة على خده اليمين . تجمعوا حول ياسمين التي راحت تسأل عن المشاعر التي راودت كل منهم خلال التجربة ، فقص عليها مارأى . وشرح المشاعر التي راودته تحت الماء ، وذلك التوحد العجيب مع المخلوقات التي ابصرها . كانت تصغي

بذهول ، الا انها لم تعلق على مشاهداته ، وقادتهم نحو البيت ، كما جاءوا ، زوجين زوجين . لكن هذه المرة عليهم التزام الصمت . لاحديث بينهم . عليك ان تعرف كيف تصمت رغم وجود شخص آخر ، قالت . الصمت ارادة ، خاصة حين يكون في وقته المناسب . وفي تلك الليلة آمن ان سعيد ، صديقه ، قد رأى كل ذلك قبل ان يموت . رآه في البحيرة المرجانية التي غيبته بعد خروجه من المجمع بسنة فقط .

طبعا لم يخبر ياسمين بالامر فهي لاتعرف من هو سعيد .

الفصل الثامن

انه بحاجة الى تأريض ، الى منح اقدامه للارض الخلاء ، كي تتوحدا بالتراب والقش والرطوبة والحشائش . قال لمرام : ارغب ان املا رئتي بهواء غير ملوث ، وانظر الى آفاق لا تحدها جدران . وكعادتها لم تعارض . هذا الكائن الهش الذي غادر توتة البيت وطناجر الاكل واقوال الجيران النامّة بعمق وهمس الشوارع والحارات . الكائن المصنوع من مطر وورود وفوح بخور ومر .

مضيا الى الغابة دون تخطيط او برنامج خاص . الم تقل ياسمين ان الحياة ليست مشكلة بحاجة الى حل ، انما مغامرة يجب ان تعاش؟ وسعيد ، ذلك الكائن المرجاني ، الم يشرح له كيف يتحول التراب الى احجار كريمة؟ كيف يتسنى له ، اذن ، تحويل الحياة ، مهما كانت عادية ، الى مغامرة فذة؟ كان تواقا الى استعادة تلك المشاعر السامية التي عاشها في غابة ياسمين . لم لا والأحداث كما جرب سابقا ، كثيرا ما تعيد ايقاعها في ارواح البشر .

كانا يعرفان مطعما يقع وسط الاشجار ، جلسا فيه ، هو ومرام ، اكثر من مرة . اكلا من تين اشجاره وقطفا المشمش الفج من الاغصان التي كانت تتدلى على الطاولات . نزلا في بلدة صغيرة تقع على حافة الغابة . سألا بعض المارة عن الطريق الى ذلك المطعم فقالوا : خذوا هذا الطريق وهو يوصلكم الى بغيتكم .

عرجا الى دكان صغير اشتريا منه بزرا وشوكولاتا للتسلية وشربا عصير البرتقال . بيوت البلدة من بلوك اسمنتي ، واغلبها غير مكتمل ، ورغم انها تعيش على حافة الغابة الا انها كانت مقفرة ، لم يلمحا فيها حدائق او اشجار شوارع .

مرام ، مستثارة ، متألقة ، مثله ، تحمل روح المغامرة والدخول في تجارب جديدة . كثيرا ماحدثته عن تجاربها الروحية ومغامراتها المجنونة ، التي تريد ايجاد تفسير لها . تعتقد ان ماتقوم به موحى من قوة علوية تحرك ارادتها وترشدها الى الطريق . ما يهمها هو عمل الشيء ، عيشه ، اما الهدف من وراء ذلك فلا تفكر به كثيرا . كفت عن وضع هدف لحياتها . كانت تريد العيش فقط . اما لماذا وكيف ، فاسئلة لم تعد تعني لها شيئا . مرام تلبس قبعة سوداء ، مستديرة ، وعيناها سوداوان حادتان ، كبيرتان ، تكحلهما دائما . تضع قرطين فضيين وشعرها مكزبر اجعد ، قصير ، وتلف على رقبتها شالا اسود مفضضا برسوم ناعمة . تبين رقبتها الطويلة سمراء مهيأة للقبل . ورغم الحرارة ترتدي جاكيتا من الجلد الاسود ، وبنطالا من الجينز ازرق اللون ، مع حذائين عاليين ، اسودين . وتحت الجاكيت كنزة سوداء . وتضع عقدا من الفضة ، ذا طرز قديم ، ينتهي بجناجل مستطيلة ، لها شراشيب من الفضة كأنها اجراس .

ومرام رسامة ذكية ارته في الاسبوع الاول من تعارفهما بعضا من لوحاتها ، فأعجبته روح التجريب التي تمتلكها . وهي لاتبحث عن الشهرة بالحاح . اما حياتها الخاصة فكل ما عرفه عنها انها تزوجت ولم تنجب ، ثم طلقت بسبب مزاجها الطامح الى الانفلات من جميع القيود . عرفها بعد شهر من وصوله الى هذه المدينة ، في المقهى الذي يرتاده بين حين وآخر . وقتها كانت تجلس جوار النافذة محدقة بالبلاط المقابل ونقوشه او متأملة في مآذن الجامع القريب . كان البلاط المواجه للمقهى ، ذو الألوان المشرقة والخطوط الرهيفة هو المدخل الى الحديث معها .

كان الطريق يتغلغل بين الاشجار والالواح المزروعة بالفول واللفت والورود الملونة ، يحس الشخص فيه كما لو انه داخل الى جنة . كلما توغلا في الغابة

تتعالى البرودة والنسيم الرطب الهاب على الاغصان والاشجار المثمرة . لون الطريق ابيض لكثرة ما طرقته الاقدام وعجلات السيارات وجرارات الحراثة . على الجانبين اشجار حور عالية ، تنتصب على ساقيتين يجري فيهما الماء . الهدوء صار يخيم على المكان كلما توغلا في الغابة . امامهما سار رجل يحمل منجلا طويلا . بالمنجل يحصد القصل والحشيش والقمح والشعير ، و يجمع المحصول . يرتدي غترة بيضاء وعقالا وجاكيتا اسود وينتعل جزمة من البلاستك . كان يسير متريثا واثقا من رعاية امه الارض لخطواته المتجهة بلا شك الى حقل من الحقول . اما دخان سجارته فكان يرسم وراءه ذيلا ابيض . يسير في نفق من خضرة وهواء عليل ، دون زمن ، دون اسئلة . انه يسير فقط .

قال لمرام وهو منغمر النظرات بمنجل الفلاح :

- سأنزع حذائي . ارغب في ملامسة الأرض .

قالت :

- انا ايضا . تعبت من تضبير جسدي .

نزعا احذيتهما وحملاها بأيديهما . احس بلذع حرارة التراب في قدميه . هناك قوة تتغلغل في جسده تدفعه الى القفز بحرية نحو الاغصان المتدلية على الطريق . حصى صغير كان ينغز قدميه . حشرات لاترى تحاول التخلص من الثقل المفاجئ الذي اطبق عليها . مرام فراشة عائمة في الهواء الثقيل ، لاتترك شيئا امامها او جانبها الا وتعلّق عليه . كان يقطع الورق ويحدق بالغصن وهو يهتز في الفضاء . وكانت مرام تنظر وتضحك ، تحاول الوصول بقفزة رائعة الى الاغصان . لا تفلح لانها اقصر منه . كما لم تتعود على ضرب الارض بهذه القوة التي يملكها . انها ليست متأرضة كفاية . الورود في الحقول المزروعة بالحنطة والشعير اكثرها من الزنبق البري وشقائق النعمان ، تضحك للشمس والطيور المحومة في الفضاء . ورغم انها مغطاة بطبقة ناعمة من غبار السيارات المارقة الا انها راضية . راضية بهذا المصير .

- انظري انها لا تعيش سوى فصل واحد ثم تموت ، لكنها سعيدة . نحن

نعيش عشرات السنين ، مئات الفصول ، لكننا تعساء . انني لا ارغب بمواصلة العيش هكذا . اريد ان اكون سعيدا .

- لكن هل السعادة بيد الانسان؟

- نعم ، لان السعادة ذات مصدر داخلي .

- كيف وكل مايحيط بنا محبط ويبعث على اليأس والحزن؟

- ثمة اشياء هائلة تبعث على السعادة . انظري الى تلك الضفدعة الواقفة هناك ، على تلك القنطرة . كم هي هادئة . تنظر الينا بدهشة ربما ، وربما بلاابالية . اليست كائنا جميلا؟ الا توحي بوجود حياة اخرى غير هذه الحياة التي يعيشها الانسان؟ انظري الى جرادة الحقل وعصفور الزيتون وجندب الماء .

- في هذه الحالة على الانسان ان لايفكر كثيرا بالماضي . يعيش اللحظة بعمق ويفتش عن جمال الاشياء تحت الركام .

- هكذا . . . انت في الطريق الصحيح .

قشور البزر التي يقذفانها ستتحول لاحقا الى طعام لذيذ للنمل والعصافير والعناكب وخنافس الحقول . تلك الحبة التي تسقط مع لبها سيجرفها الماء بعيدا ثم تستقر في التربة وتتغذى ثم تكبر ثم تصبح هرشا يانعا في فصل ما . هناك ، تحت ظلال الاشجار ، عشاق يتهامسون بحذر ، يأكلون الساندويج ويحدقون بهما وهما يمشيان دون هدف . يقفان على بوابة مغلقة ليلتقطا وردة المجنونة ذات البتلات النبيذية او ينظران من الشقوق نحو باحة القصر الفخم المشاد بين الاشجار . يتناول عضد شعير مكتنز بالنسغ ويجعل منه مزمارا يطلق عبره اصواتا موسيقية . تندهش مرام لهذا الناي الصغير ، وتمضي هي الاخرى لتفعل الامر نفسه . يبدآن عزفا مشتركا فيما بينهما ، عال منخفض ، متقطع ، سائب ، والضحك يسيل ليجلل اوراق القت واللفت وعيون الفراشات الملونة التي تشبه غيمة مدومة . المارة ينظرون اليهما ويتعجبون من هذا الجنون . شعر مرام الاسود يتطاير في النسيم ، بفمها مزمار اخضر تخيف بعزفها طيور الهدهد والزرازير وعصافير الغرب . الحياة تندلق امامه وعليه اكتنازها .

يعشق البنت الماشية معه ، يقبلها ، وان صح له مجال يضاجعها خلف تينة ملتفة الاغصان دون ان يراه احد . اليس بصاصا ، ابتلي بالأسرار؟ الشمس تضيء له رأسه ومسامات جسده ، الهواء النقي يملا رئته ، الارض تمنحه روحها عبر ترابها وحديدها وصخورها ومعادنها واحيائها . انها امه التي لاتخون . تذكر البحيرة والمرأة المصابة بالسرطان ورسومها الملونة . تذكر البجع والوز الابيض يرسم دوائر من خيالات خلفه وليلة الولادة العجيبة واللغة غير المفهومة . ورحلته تحت الماء تجلت له في وريقات الحور وطيران العصافير وغبار السائرين بين الحقول . تلك فصول جاهزة من كتاب ياسمين ، سطرت بغتة في ذهنه .

شجرة هائلة التاج ، اوراقها خضر مضيئة بالاشعة المندلقة عليها من السماء ، ارومتها غليظة ، قصيرة ، الفاصل بين الارض ونهايات التاج المتهدلة لا تتجاوز المترين . قبة من الخضرة تحتها اعشاب خضر نمت فيها ازهار ذات لون اصفر . السماء زرقاء صافية والهواء رائق . ثم شجرة داكنة الخضرة ، تمتص الضوء بشغف ، خلف تاجها غيوم بيض متناثرة على سماء زرقاء ، وثمة ظلال عميقة في الاسفل . الحشيش داكن ملتهب النضوج ، ثغرات الضوء في الورق ترسم اسماكا ودينا صورات وحيات ودببة باندا . شجرة ذات لون احمر ، صبغها كائن ما في ايام متعاقبة . حمرتها تشف عن اغصان عديدة تتفرع من ذلك الساق الغليظ القصير ، وقد فرشت الاوراق المتساقطة على الارض سجادة بألوان حمر وبرتقالية وذهبية . خلف الشجرة افق خفيف البياض ، بارد الطقس ، ينذر بعاصفة . تاج الشجرة غير متناسق الاستدارة ، كأنه ينتظر ريحا لتطيح به . ثم اخيرا شجرة كئيبة ، تساقطت اوراقها ، وبانت غصونها العجفاء ، وتحتها ثلج ابيض ، والافق عاصفة تهب وتهب بلا انقطاع . لاظلال ثمة ، فالشمس غائبة والافق اجرد .

– هذه هي شجرة الحياة . ربيع وصيف ، خريف وشتاء .

قال لمرام وهما يجتازان الشارع الرئيسي ، المسفلت ، ويقتربان من ذلك المطعم ، وكان ينظر الى الشجر المحيط بهما ويستل منه حكمة لاتبصر .

– اينها . لا ارى شيئا .

- انها في رأسي . فتشي عنها . تعلمي رؤية مالا يقال أو يذكر .

ضحكت مرام وتوهجت وجنتاها ثم قالت بحب :

- تحاول فلسفة الامور داما . ربما اعمل معرضا زيتيا اسمه الفصول الاربعة . لقد اوحيت لي بفكرة جديدة .

- الحياة هكذا . وراء كل اكمة حكمة . على الانسان ان يضع لنفسه خطوط حياة عامة يسير على هديها ، اي بمعنى آخر هدفا كبيرا . لكن عليه ان لا ينسى التفاصيل ، لان من ينسى التفاصيل يضيع عنه الهدف ، والذي ينسى الهدف يضيع في التفاصيل .

- ليتني استطيع النظر الى حياتي بهذه الدقة .

- هذه الحكمة لم تأت من فراغ . جاءت بسبب ضغط طبقات الارض . ذلك الثقل الهائل الذي يحول التراب الى جمشت وفيروز وتوباز وكرستال وألماس . كلما زاد الضغط يقترب المرء من الالماس .

- لا افهمك .

- عليك الجمع بين سعيد وياسمين .

- من هو سعيد؟ ومن هي ياسمين؟

- التجربة والحكمة . دعينا نجلس كي اقرا لك من كتاب ياسمين .

الطاولات تنتصب في داخل السياج . النساء والرجال جاءوا الى المطعم للاستمتاع برؤية الطبيعة . كؤوس وزجاجات ملونة . كباب وسلطة وتبولة وبزر ومكسرات . مكعبات الثلج عبثت في دلاء فضية اللون ، تناثرت على سطوحها قطرات صافية من الندى . خلف السياج ابقار سود مبقعة بالبياض تجتر تحت اشجار السفرجل ، واطفال فلاحين يلعبون في حقول القمح . في الشارع سيارات تمر دون انقطاع ، وليس بعيدا عن كتف الشارع جيش من الفراش كان يرقص امام انظار الجالسين . قالت طفلة صغيرة لامها : سأذهب الى الارجوحة . قالت لها امها لايمكن ، سيرى الناس لباسك الداخلي . ردت البنت بثقة : سأشلحه اذن . ضحكت مرام لهذا الحوار الذي كان يدور في الجوار ، واخرج هو اوراق البارحة

التي كتبها على ضوء شمعة ، بعد انقطاع الكهرباء واختفاء الأطفال من الحارة .

***

مقدمة الجسد ، البطن والصدر والحنجرة ، ثم الوجه الذي يحتوي على الشم والذوق والبصر . حساسيتنا تكمن في مقدمة الجسد . انه طاقة الخلق لدينا ، الخلق والابداع . قضية ان نعطي ونأخذ ، لكي تنساب الامواه الجوانية ولا تتوقف . ان نعبر عن حضورنا في هذه الحياة . نقول للوردة انت جميلة عطرة ، وللضبع انك كائن مرعب . للواجهة المتصنعة انك نافرة ولبيت الطين انت بسيط . هنا نلتقي بأهم عضوين : القلب والحنجرة . القلب للحب والحقد والتسامح والشجاعة والود ، والحنجرة للقول والتعبير عما يختلج في دواخلنا ، عما ينبغي ان يقال ونسكت عنه . ان يعمل المرء مع هذا الجزء من الجسد منتهى السعادة . به نواجه الحياة ، الحاضر ، الآن ، ننجح او نخفق ، نهرب او نواجه . رغم ان الاحزان والآلام يمكنها التواجد في منطقة القلب لاننا بشر ولسنا ملائكة . لكن وضعها تحت مسبار الوعي امر ضروري . الوعي قائد الروح والجسد . المايسترو . انه شعور محرر لتمييز النعومة ، الحب ، الانفتاح . كل ذلك يقبع في الصدر .

منح الحكمة ، وعلاج الروح ليسا شيئين يستطيع الشخص عملهما ، انهما خاصية موهوبة ، تأتي من روح الكائن ، مثلما تمتلك بعض الاحجار الكريمة خاصية التهدئة ، ومثلما تمتلك القطط ميزة التوازن . شيء على الانسان ان يعيشه داخليا ثم لابد ان يجده هناك . موهبة مثل الشعر والموسيقا والغناء والعشق . كن واضحا تر بوضوح . علينا رؤية انفسنا بوضوح ، ثم نكون حساسين لما نحتاجه حقا لنعمل باتجاهه . حواسنا المعروفة هي الشم والذوق والنظر واللمس والسمع ، اضافة الى حاسة سادسة لايمتلكها الا اولائك الحالمون ، المتوقدو الذهن ، السابحون في بحور العرفان . الحواس الاثيرية هي الاحساس بالمثال ، الحضور ، الوضوح ، التنبؤ ، السماع بدقة . هناك حواس ذهنية من امتلكها

محظوظ : الحكمة الروحية ، الرؤية الالهية ، التمييز . في حين تمتلك الروح حواسها ايضا ، انها المثالية والعرفان والرؤية الكونية والبداهة .

قالت ياسمين وهي تفرك يديها بأوراق الريحان وتمطر النافذة باشعة بصرها الحالمة بسر بعيد : سنعمل على شيئين يهمان الجانب الامامي من الجسد هما الصوت واللون . حين اوجه اتباعي اقوم بمساعدتهم كي يستخدموا قدراتهم وطاقاتهم وابتكاراتهم . لا اركز على مشاكلهم وعقدهم فقط . يمكن للعقدة التي يحملها الشخص ان تختفي حين يتعلم من تجاربه ، ويراجع نفسه ، اين اصاب واين اخطأ . من هنا تكون المحادثة والبوح والتعبير مفيدة الى اقصى حد . عادة مايبني الانسان منظومة من الافكار والسلوكيات والهواجس والتبريرات حول العقدة التي يمتلكها . يتم العمل على تلك العقدة فتتحرر طاقة هائلة ، الطاقة التي كانت مستخدمة سابقا كغطاء وتبرير لتلك العقدة . هذا ما ادعوه بالطاقة السالبة ، الضائعة هدرا . لذلك ما ان يتجاوز الشخص تلك العقدة حتى يحس كما لو انه كان نائما واستيقظ . كما لو كان محاطا بقشرة بيضة صلدة ثم فجأة تكسرت تلك القشرة وولد عاريا في الهواء والنور والخضرة . ان وراء تلك العقدة او العقد ، وهي ماندعوه بجزء الشخصية ، المهيمن احيانا على الانسان ، تتوارى هوية الفرد التي نسجها خلال تعايشه ونضاله وصراعه اليومي مع الحياة . عادة ما يحدث خوف هائل ومقاومة حين يبدأ التحول ، اثناء عمل الشخص مع روحه . علينا ان لا نتدخل كثيرا في ذلك الصراع . اننا نوجه ونقود ونوضح ونعلل ونضيء ، اما النتائج فستولد ببطء ، واحيانا بشكل غير محسوس . ربما لايحسها الشخص نفسه في البداية ، الا ان المحيطين به يلمسون عمق التحولات . علينا ان نضع مخططا للخلاص فقط .

نشعر احيانا اننا اصبحنا جزءا من تلك العقد والمنظومات ، ولا نستطيع العيش دونها ، ذلك وهم ، الآلية التي خلقناها حول العقد . نخاف ، نثقل ، نغضب ، لكن خلف كل ذلك ، وبدلا منه ، تأتي ذات يوم ، الخفة ، البساطة ، الحرية ، الحيوية ، الطاقة الكونية الشاسعة التي سنكون جزءا منها . من الضروري

جدا العناية بحياتنا الداخلية ، نكون واقعيين بالتعامل معها ، اذا كنا واقعيين بالنظر الى مشاكلنا التي نمتلك ، سنعرف كذلك ، متى نكون راغبين في الخلاص منها ومتى لانكون . كل شيء وله وقته المناسب . التعامل بصدق مع هذه الرؤية ، ومع انفسنا ، تجنبنا صرف الوقت والطاقة على اشياء لانرغب الخلاص منها او معالجتها . كما نتفادى ذلك الشعور المعجز باستحالة تحقيق الخلاص . ثمة خلاص دائما . اقول بصدق ، ان القدرة على التخييل ، وصنع الواقع الذي نريده نحن ، اعظم هدية منحها الانسان .

طوى اوراقه المكتوبة بخط مجعلك بالكاد يقرأ ، وقالت مرام بمنتهى الجد :

– ادخلني في هذه التجربة وضعني في الكتاب . هذا ما كنت اسعى اليه طوال حياتي . انني كنت نائمة ، والآن احس انني استيقظ . اريد الدخول في عالم ياسمين .

– سأدخلك تجربة الماء . وهي جزء من كتاب ياسمين .

– كيف . هل نمضي الى البحر؟ الله ما اجمل امواجه وقواقعه وصخوره . عندي منها ثلاث مرطبانات ، كلما امضي الى هناك اصرف جل وقتي في جمع الصخور . الصخرة الحمراء ، والبنية ، والبيضاء . الصخرة المحتوتة من الوسط . وتلك الشبيهة بوجه عظاية . كنت اضع خيوطا من الاشن والطحالب في المرطبانات فتتحول الى جنة بحرية بحق . وكثيرا ما امسك ، في وحدتي العميقة وسط الغرفة ، بعد ان قطعت علاقاتي مع اخوتي وامي والجيران ، امسك محارة كبيرة ، واتملى في خطوطها والوانها ونظامها الهندسي . ثم اقربها من انفي فاشم رائحة السمك والحيتان والاخطبوطات وقناديل البحر والمرجان . اضعها على اذني فيصطخب الموج ، ويتعالى نواح الريح ، تهاوي الصخور في المد والجزر ، ثم اضع تلك المحارة امام عيني ، تحت ضوء الشمعة الكهربائية الابيض فالمح شراعا بعيدا ينوس ذات اليمين وذات الشمال . يتقدم نحوي ، يكبر ثم يكبر الى ان يبتلعني بياضه فاغيب عن الوجود . . . . . .

***

تغيم شجرة الدراق امام عينيه ، ويجلس في ضباب . تتداخل الاشياء في رقصة سماوية ، تشارك فيها الاوراق ورؤوس البشر وطيور الفاخت المتنقلة من غيضة الى اخرى ، ورموش العيون المنطبقة على صور بعيدة قادمة من دنيا الخيال . يرتفع البرقع الشفاف امام العينين ، لونه نبيذي ، والعينان تنظران بدل وغنج ، والمرأة تتأهب للرقص ، بكامل جسدها . معاضد اليدين المحلاة بالفصوص الحجرية الحمر والاصابع ذوات المحابس التي من ذهب ، والروح المتوثبة للقصف والمتعة . ترقص ، بعد ان شدت على خصرها شالا من حرير ازرق ، ثم ارتدت خلخالين ذوي اجراس فضية صغيرة . انفاسها تتدافع ، رجلاها تتبعان ايقاعا داخليا تدوزنه وحدها . ترفع يديها بحركة افعوانية ثم تهز عجيزتها يمينا وشمالا ، تقدم فخذا وترفع اخرى ، تدور على نفسها او تواجه عيونا مستطلعة مندهشة معبأة بالشهوة والاعجاب والدهشة . تبادلها الرقص شجرة التوت وشجرة السيسبان وشجرة المشمش الفجة الثمار . فاختات السماء وعيون البقر ودوامات الريح واصابع البنات اللواتي نزعن سراويلهن الداخلية . لم كل هذا الاصرار على الرقص؟ كيف يكمن الحزن العميق خلف هذه الملامح المنغلقة على نفسها؟ اية قوة تحرك الوركين والنهدين والعينين والقدمين؟

في الظل والضوء ، بين العتمة والنور ، عرائس من افكار تتواثب حول جلنار فاقع الحمرة . خلف الراقصة المتوثبة الروح بطة برية وقفت بخيلاء . رقبة متلعة ومنقار احمر والريش ابيض واسود ، والوقفة متأملة . قرب البطة جذمور شجرة اشبه بفرج ، يتكئ على لفة اعشاب وبقايا ساق وتليل من الحصى الابيض . على بعد امتار من البطة تل من الاخشاب ، برزت العروق من بعض القطع كأنها اصابع عجفاء . مئات الاصابع الرمادية كادت اعشاب الارض ان تنمو عليها وتمتصها غذاء لانساغها . لامياه ثمة . لابحيرة محاطة باشجار اليوكالبتوس . افق من شجر وطيور . ينظر خلل الضباب ويرى دوامة من العليق الجاف ، لونه اصفر ، نبتت اوراد بيض في ثناياه . عليق يميل الى اليمين تحت فعل النسيم غير المرئي ، وخلف العليق اغنام ترعى . بيض وسود ورمادية ، رؤوسها اجمع تندس في عشب

الارض واوراده من نرجس ونفل وخبـاز وحـمـيض وشـوك غض ، وتلوح بين العشب صخور متروكة من قرون . على حافة النهر ، المياه اللاصفة ، المياه الضحلة الزرقاء الخالية من السمك ، على الضفة اللطيفة الانحدار وقف الراعي متكئا على عصاه . الى ماذا ينظر؟ ينظر الى النهر . وماذا في النهر؟ فرسان بنيتا الجلد . تقفان بأبهة فائقة تريان انعكاس الحمرة على المياه . او تريان تدفق الغرين من جبال بعيدة الى سهول الشوفان . هكذا الامر دائما . حصان يقف وسط نهر جار . او راع يتأمل حياته الماضية . او ماشية لاهية عن سكين الجزار بالعشب الاخضر الذي تحت ابوازها . في البعيد ابقار ترعى ، واشجار بدت مثل اشباح في عتمة الحقول . . .هو ومرام وغيوم التأملات .

***

قالت ياسمين وهم جلوس حولها : القضية ليست سهلة . خاصة لمن لم يشبعوا حاجاتهم وهم صغار وشعروا انهم غير مرغوبين ، ولا جذابين . من الممكن ان يؤثر الشعور على العضلات في جانبي العمود الفقري ، فيحس المرء انه لايستطيع الوقوف والثبات . لايملك الحق في مواجهة العالم والحصول على ماهو بحاجة اليه . من السهولة ان يتداعى الشخص في منطقة العمود الفقري . على الواحد ان يؤمن انه يمتلك شجرة داخلية صلبة الساق يمكن له الاتكاء عليها . انها شجرة الحياة . الاكتاف ، الذراعان ، مستسلمة ، ناشفة من الطاقة ، طاقة العمل والخلق والحركة لتغيير المحيط . نحن نحمل كثيرا من الاعباء القديمة على الظهر ، والكثير من المشاعر غير المصرح بها . حين نحبس كل تلك الاعباء ، حين نكبت مايحيطها من احاسيس ، تحتل لاحقا كامل العمود الفقري ، تتحول الى نوع من الصدفة المغلقة . كل تلك المخلفات التي لانرغب رؤيتها ، والعمل عليها تخبأ هناك ، في منطقة الظهر . هذا يفسر المشاكل الكبيرة في الظهر التي يعانيها اليوم عدد هائل من البشر . الطفل ان لم يجرب الحق في التعبير عن مشاعره ، يمكن ان

يتولد لديه صراع داخلي حاد . يصبح شخصا مشوشا تجاه مايفكر به ويحس ، لانه يجاهد في السيطرة على تلك المشاعر والافكار . بالتالي يحاول السيطرة على الآخرين والمحيط . وهو ما يصنع ضغطا هائلا حول الاعضاء التناسلية والصلب . ذلك الضغط يمكن ان يكون كبيرا كلما ازدادت الاحاسيس المحبوسة في منطقة الظهر . وفي لحظة معينة ، وحين يكون الضغط اكبر مما يجب يخرج العمود الفقري عن مكانه ويصبح الانسان بحاجة الى علاج فيزيائي لارجاع العمود الفقري الى مكانه . لكن العلاج يبقى مؤقتا ، لان المشكلة لم تحل .

ثمة رموز يمكنني تقديمها ، كي تساعد على العمل . الرمز الاول سميته ملاك المغامرة . نرى الحياة مغامرة ممتعة ، ورحلة عجيبة لابد من القيام بها . انها قضية ان نخطو خارجا لاكتشاف العالم . الانسان يمكنه ان يحول كل شيء مهما صغر الى مغامرة ممتعة . يذهب شخص الى البحر ، كي يسبح ، مثله مثل الكثيرين . ماذا يمكنه ان يعيش في تلك اللحظة؟ يستلقي على الرمل ، يتحسس طراوته او جفافه . يحدق في الكائنات التي تعيش بين تلك الذرات الصغيرة وقلما يشاهدها المرء او يلتفت اليها . ديدان صغيرة ، تبحث عن طعام او رفيق تديم معه استمرار جنسها . منها الطائر والداب والزاحف والمتشقلب . تأخذ حفنة من الرمل بين يديك . الرمل متشابه ، او هكذا يبدو . لكن حين يحدق اليه الانسان بتركيز اكبر يرى عالما آخر .ثمة الرملة البنية والسوداء والبيضاء والملونة بمشحات خضر والعميقة الصفاء مثل الماس . ثمة الرملة المدورة والمسطحة والمتآكلة الحواف والمنخورة التي توحي باشكال حيوانية او بشرية . اما مايتراكم على الساحل من اشن وحيوات وصخور ونباتات ، فيمكن للواحد ان يقضي حياة كاملة في معرفته وتصنيفه .

لحظات رائعة يقضيها المرء في تأمل ماكان عابرا اوغير مرئي .

الثاني دعوته ملاك الطاقة . القوة والعزم ، حيث يجب ان لانخاف من استخدام قوانا التي نمتلكها . نحن نمتلك خيالا واسعا اذا عرفنا كيف نكون احرارا مع انفسنا . ما يؤطر الذهن هو تلك الصدفة من الخوف والتردد والقلق المحيطة

باجسادنا . متى ما اتسع الجسد وصار الانسان حرا ، ستتبرعم لديه قوة داخلية يحسها كل من يقترب منه . قوة تهيمن ، تجذب ، توحي ، بل وتقرأ ماسوف يأتي ، وتهجس بكينونة الاشياء والبشر . كلما اتسعت الحرية اصبح الحدس اعمق واشد صدقا . لا تتعلق بشيء ، لن تخاف من شيء . علينا الوصول الى درجة لانخاف معها حتى من الموت ، وهذه اقصى حرية ممكنة يبلغها الانسان . الموت عملية لايمكن فصلها عن الحياة . تحول يخضع له كل شيء ، جمادا كان ام حجرا . والنهاية القصوى ، التي مابعدها نهاية ، هو ان نتحول الى ضوء . الضوء هو المنتهى و لاشيء بعده .

رمزنا الثالث هو ملاك الوحدة . حين نوفق بين الجزء اليمين من الجسد والجزء اليسار . بين القسم العلوي والقسم السفلي . بين الماضي والحاضر .لايمكن ان تشق طريقا في الحياة اذا لم تعمل بوحدة متكاملة . التشتت عدو النجاح . تضع هدفا في الحياة ، تروم الوصول اليه . تستجمع حواسك اجمع ، تمركزها في الطريق الصاعد الى الهدف . تستحضر الماضي ، تسخره ، تنظر الحاضر بصفاء ، الى ان يجتمع كل ذلك في مجرى هادر يسير الى محيط الهدف . كان عندي صديق يدون كل ما عاشه في حياته لكي يتخلص من عبء الماضي . تلك طريقة ناجعة في العلاج الروحي المستخدم ذاتيا . اكتبوا اكتبوا ، لا تكتموا شيئا . ادق الاسرار تصبح لعبة وملهاة اذا وضعت على الورق او قيلت لشخص آخر .

اذا شدتك شجرة في جانب الطريق ، وغصت متأملا في اوراقها وساقها وثمارها ، تأخرت ساعة الوصول . ان فكرت بصعوبة الطريق ، وما تلاقيه من اهوال ، لن تصل ابدا . هذا ما ادعوه بالوحدة . ان تصبح كتلة واحدة ، جسدا وروحا ، عقلا وعاطفة ، ماضيا وحاضرا . هنا والآن ولاشيء غير ذلك . . . .انه العمود الفقري الذي يربط اعلى الجسد ، مع مراكزه الروحية ، بأسفله . الجانب الامامي بالجانب الخلفي . الماضي والحاضر . من مهماته تنظيم وتنسيق وضبط ماتمتلكه من طاقة ، كي يمكن لنا استخدامها ببساطة وقوة .

كان يتابع بشغف ماتقوله ياسمين . وفكر بكتابة سيرة حياته منذ الولادة .

الألوان ، الأصوات ، الروائح ، الأحداث ، خفاياه ، عقده الداخلية وفضائله . حاول ان يحتفظ بذهنه معها ، الا ان تداعيات الافكار لم تلبث ان سحبته قليلا قليلا الى نفسه . صحيح ومقنع ماتقوله . لكن كيف يصل الى هذه الوحدة التي تتكلم عنها . ينظر الى ماضيه ويجده شظايا ، ودوائر حلزونية وطبقات متراكبة بعضها فوق بعض . كل طبقة لها لونها الخاص وتركيبها الخاص . ثمة ازمان واماكن . كل زمن يختلف عن الآخر . كل مكان له نكهته . عمره يشبهه احيانا بالصناديق رغم ان ياسمين سمتها دوائر الروح . كل صندوق وله موجوداته . له اشخاصه واحداثه . شجره وابنيته . مدنه ومتاعبه . انهاره وشوارعه . اسماؤه وأكلاته . بل له ايضا مواسمه وفصوله التي لا تتشابه . وكأنه وليد اكوان اخرى لاتخضع لسريان زمن واحد . فكيف له عجن كل ذلك لصوغ شخص واحد لا شخوصا عدة بجسد واحد؟

جرب ان يفتح صندوقا لا على التعيين . فماذا وجد؟ هو وسعيد الذي عبر معه الحدود في يوم ثلجي عاصف . التقاه في قرية جبلية لا يذكر اسمها ، تتكون من عشرة بيوت ، فلاحوها ، او سكانها يعيشون على تهريب البضائع والزراعة وتربية الابقار والاغنام والبغال . لبثا في تلك القرية عدة نهارات . رأيا الشمس كيف تغيب خلف قمم الجبال ، والرعاة يعودون بقطعانهم القليلة الى زرائب تحت البيوت .اكلا خبزا مخبوزا على صاج ، وشربا لبنا ممخوضا بشكوة من جلد الماعز . يتذكر الطفل الذي رآه فوق سطح البيت ، كان يلهو وحيدا مع ماعز ذي قرنين مخيفين . كم عمره اليوم؟ لا بد انه صار شابا . كان الماعز يطارده فوق السطح . وكان قلبه يقفز من مكانه كل مرة اقتربا من حافة السطح . لم يكن ثمة سياج . وكان البيت يشرف على واد سحيق العمق . يصرخ على الطفل فلايسمعه . كان يفصل بينهما جدول ماء . لم يسقط الطفل في النهاية . الا ان تلك الصورة لم تفارقه رغم مضي السنين . شجرة الجوز العتيقة لا زالت في خياله . عمرها من عمر الجبل كما قال احد المهربين . ساقها اصبح كتابا مفتوحا لكل عابر . رموز دينية وادعية ورسوم وتذكارات وقطع قماش معلقة على الاغصان وعشرات

القصص التي دارت حولها . سعيد كان ينظر الى انواع الصخور بعينين خبيرتين ويخبره بانواعها ومكوناتها وفوائدها واستعمالاتها بل ويقدر عمرها ايضا لانه درس علم الجيولوجيا في الجامعة . كانت الدروب التي اجتازاها لاتخلو من قصص طريفة ايضا ، كل ذلك ظل منسوجا في دماغه ، يتأمله ويجزم انه عاشه لاكثر من قرن . تلك كانت حياة بكاملها .

ثم يقفز بين صناديقه ليجد واحدا عتيقا منزويا تحت الركام . يعالج اقفاله ، يفتحه بعد نفخ الغبار عنه . واذا به في مدينة قديمة تقع وسط صحراء . اكثر المرات يشك انه زار تلك المدينة . لكنها هناك ، في داخله ، برجالها الراطنين بلغة لا يفهمها واغطية رؤوسهم المدورة المصنوعة من الوبر . تلك الابنية الرمادية المقامة من الطين ، الابنية الكابية التي يدخلها البشر مثل اشباح خائفة . السيارات الغريبة التي رآها ، وما تحمله من آيات قرآنية ورموز لدرء العين والحسد وطرد الشياطين . الفاكهة التي لم يسمع بأسمائها قبل ذلك . السراويل الطويلة والنعالات الجلدية التي ذكرته بالسلاجقة والبويهيين والمماليك . كأنه عاش في عصر اندثر قبل مئات السنين . وكان يجول مع واحد من الاصدقاء على الفنادق باحثين عن مأوى يبيتان ليلتهما فيه .

ماذا كان يفعل في تلك المدينة؟ كيف ذهب اليها ومن دله على الطريق؟هل كانت المدينة حلما رآه ذات يوم ونسيه؟ هل اختلطت الحقائق بالاوهام والاحلام في صناديقه؟ واذا اراد ان يكون بلورة واحدة ، فهل يعالج احلامه التي رآها على مر آلاف الليالي ليعجنها بالاحداث الحقيقية ايضا ام يستبعدها؟

***

راحت ياسمين تحدق في عينه كأنها توجه كلامها له وحده ، او انها احست بسرحانه ورجوعه الى القرون الماضيات من حياته . قالت : سندخل عالم التأمل .انه تمرين بسيط يعلمنا كيف نضع لانفسنا حدودا ، نصنع ارضا نسميها

مملكتنا .

وقفوا مسدلي الاذرع ، على شكل دائرة ، اغلقوا عيونهم ، لايسمعون سوى الصمت المطبق . قالت ياسمين بصوت واضح هادئ : استنشقوا الضوء والطاقة الى الاسفل . اتصلوا بالمناطق والنقاط التالية . مركز العينين . الفم . السرة .الاعضاء التناسلية . العجان . المخرج . الخاصرتين . العجز . الظهر . الرقبة . قمة الرأس . اعيدوا الاتصال مرة اخرى . الطاقة والضوء . دعوا عشرات الشموس تتغلغل في تلك النقاط ، تمسحها ، تضيؤها . تكشف ما عتم منها . تنظف الخلايا والعضلات والاعصاب . سنكون شفافين مثل الضوء . شهيق عبر الفم محمل بالضوء والطاقة الكونية القادمة الينا ، نحن المخلوقات النجمية من الفضاء البعيد ، من تلك الانفجارات العملاقة والسيلانات غير المعروفة التي شكلت الحياة ذات يوم . استمروا بادخالها في النقاط السابقة الى ان تصلوا الرأس ثم ازفروا بقوة . اصنعوا سلسلة من الضوء مرة فمرة فمرة . انها حركة الطاقة تدور في الجسد ، تكشف خبايا اللاشعور ، يسيرها عقلنا الحاضر دائما . امضوا الى القلب واستقروا هناك . جسدوا فيه تلك المواصفات المرتبطة بالعمود الفقري : المرونة والانضباط والقوة .

بدأ الضوء القادم من الستارة الموسلين يعتم قليلا قليلا .اصبحت العتمة تحتل زوايا المكان . ذابت تقاطيع شجرة المطاط فاندغمت بعضها في البعض الآخر حتى حسبها في نظرة خاطفة واحدا من الجالسين ، ينتحي مكانا قصيا . بعد ربع ساعة جلسوا حول تلك الشمعة المضيئة متماسكي الايدي ، عيونهم مغمضة ، يرسمون نهاية سعيدة لهذا اليوم ، الى ان ارتخت يد ياسمين فانتهى كل شيء .

في الطريق الى البيت ، وكان يركب قطارا ، كان الغروب ساحرا . السماء حمراء وبنفسجية ، في الافق البعيد نوارس تحلق وسنونو ، وعلى جانبي السكة اشجار ذات اوراق ذهبية . كلما رأى ورقة يخاطبها بأسف قائلا ، انني لن اراك مرة اخرى . اوراق مذهبة او ملونة تسبح في هواء بارد ، هواء خريف في طريقه الى الانتهاء . نحن مثل تلك الاوراق المتساقطة . تبرعمت ذات يوم ، واخضرت مليئة

بالماء ثم جففها الصيف وهاهي في طريقها الى الزوال . لكن لا . انها لحظة سريعة ، حين رأى فيها انه خالد ، ولن يزول ، وان تلك البيوت والاوراق المتساقطة والقطار والارض التي يعيش عليها ، كل ذلك سيتحول ذات يوم الى ضوء .

قال سأجد جزءا من نفسي ، كنت احب دائما العمل معه . انا مكوّن من قلق وشجاعة وارادة وحب وصبر وانغلاق وبعد نظر وغير ذلك من الاجزاء . والقطار ماش صوب البيت فتش في اجزائه فوجد الانبساط . انه قلق ، وبحاجة اليه . ثمة تشنج في ساقه عليه ان يجد له علاجا . ثمة دروع سميكة تحوله الى قوقعة مصمتة . انه يخاف من نفسه ، من تلك الوجوه البشعة المحتبسة في جوفه . قال له الفيلسوف الشاماني ذو اللحية الطويلة وهو يتفرس في الدوائر حول عينيه ويتقرى تعابير وجهه : فتش عن العلاج في داخلك . . . . . .

تخيل نفسه مستلقيا على عشب اخضر . الشمس مشرقة . ينهض ناظرا حوله . هناك طريق امامه . كان الطريق يقود الى بيت . مشى نحو ذلك البيت بثبات . نظر الى البيت وحفظ شكله . كان من ثلج ابيض . وعلى واجهته كتب بخط عريض : بيت جزء الشخصية . الصندوق ، او الدائرة . مضى حول البيت وتأمله جيدا . سمع اصواتا تأتي من الداخل . انها ناعمة . ذهب الى الباب الرئيسي وطرقه بيده . لابد له من رؤية الانبساط ، كيف يبدو . قال لمن في الداخل ، اولائك الذين يحتجبون خلف كواهم ونوافذهم واسرارهم : انني اريد ان اتحدث مع جزء شخصيتي ، اريد ان اعرفه كيف يبدو . وماهو لونه . لم يسبب لي كل هذا الالم . اريد ان اعرفه جيدا ، وان اكون صديقا له واخا . من سوّاه ومن عدّله؟ من لمله ومن ضيقه؟

طرق وانفتح الباب وواجهه حيوان غريب يشبه الديناصور او العظايا . كان مشوها ذلك الكائن . قال لنفسه سأحدق فيه كما هو ، لن اخاف من منظره او هيئته المشوهة . الا يسكنني ، الا يعيش في داخلي ذلك الحيوان؟ فلم اتحاشاه؟ كان يقف بثبات ، ينظر اليه بعينين ودودتين ، بل وفي نظراته فرح عجيب . فرح من يعرف انك تفتش عنه بلهفة . يحيط جسده اشعاع احمر ، يتلظى ، الا انه

كان اليفا له رغم غرابته .

سأله : كيف حالك؟

قال : لست بخير ، انت تظلمني .

قال له : لماذا؟

قال : انك تخاف الناس .انت كائن مغلق ، مشتت ، مسحوق الأرادة ، لايستطيع ان يضع حدودا لنفسه . تخاف الناس لانك تخاف ان يخترقوك ويتجاوزوا على رغباتك وممنوعاتك .

قال له : ما الذي استطيع عمله كي تكون بحالة افضل؟

قال : انك تخشى الناس لانك تخشى نفسك ، لا تستطيع مواجهتها ، فيها كثير من البشاعات . تمتد منذ طفولتك . انك تخاف من دواخلك . عليك ان تعرف ماهو الشيء الذي تخاف منه .

قال له بحزن : ما الذي افعله .

قال : انت على الطريق الصحيح . امض نحو الشوارع والحارات والازقة وابحث عن جديد . الناس كتب مغلقة عليك ان تقرأها . انت ايضا كتاب ، فدع الآخرين يطلّون على سطورك . انت على الطريق الصحيح فامض فيه . الرحلة متواصلة . قال هذا ثم اطبق الباب ودخل البيت .

الناس كتب مغلقة عليك ان تقرأها .

تلك الجملة مازالت تتوهج في رأسه ، حتى هذه اللحظة وهو جالس خلف الكومبيوتر الصغير ، منتظرا وصول مرام . وكان حوله عشرات الكتب مكدسة على الأريكة والطاولة وعلى المقعد ، تنظر اليه بود . . . .

الفصل التاسع

قال لمرام وهما مضطجعان في السرير العريض : في ذلك المجمع ، اصبحت اعرف بسيد مسبحة . لانني كنت احمل في يدي عقد المرجان الذي قرأت طالعك فيه . اشتريته من احمد الخول بعشرة دولارات . قال لي انه وجده في سوق النفايات ، لكنني وكما قدرت اما ان يكون سرقه من شخص ما ، او حصل عليه بطريقة غير مشروعة . كأن يكون باع جسده لشخص سرق ذلك العقد واحرقته الشهوة فرضي ان يبادل العقد بجسد احمد . او دفعته حاجة النقود لشراء بطاقة طائرة يخرج بها من هذا الجحر المسمى مجمعا . العقد من مرجان ، لكثرة ما داعبته اصابعي وحسبت حباته ، تبينت انه يتكون من ثماني وستين قطعة . تفصل بين كل قطعة واخرى حبتان من النمنم الشفاف ، المائل اللون بين الابيض والاصفر . خيط العقد من النايلون الرفيع ، يغلق العقد ويفتح بشنكال حديدي ناعم يكاد لايرى . احببت ذلك العقد وقررت اعطاء احمد اي مال يطلبه ، فرضي بعشرة دولارات منذ المساومة الاولى . في ذلك الوقت لم يكن بي هوس بالمسابح ، كنت اعتبرها مضيعة للوقت ، تلائم الشيوخ والعاطلين عن العمل . لون كل قطعة يشابه القطعة الاخرى ، الا ان هذا في البدء ، اما اذا تأمل الشخص جيدا في كل حبة ، وزالت دهشة الرؤية الاولى ، سوف يرى كثيرا من

الاختلافات . حقيقة ان الاشياء بما فيها البشر بحاجة الى زمن طويل لكي تكتشف بعمق . انهم كتب مغلقة .

كل حبة مكونة من ثلاث طبقات ، الفوقانية ، تشبه العاج الابيض ، ذات سماكة قليلة ، والطبقة الوسطى من حبات العقد برتقالية ، او زهرية اسمك ما موجود في القطعة واجمل ، لانها تضفي الحيوية والالق على ذلك العقد . ثم الطبقة الداخلية الصغيرة ذات اللون الصدفي .لون العيون التائقة الى ماض لن يعود ، ولون السفرجل البري بعد نضوجه ، ولون الصحراء التي لم تمطر غيومها . في الطبقة العليا خطوط سود ، خط في كل حبة ، وهناك بعض الحبات بعدة خطوط ، او ببقع سود . القطع تشبه قطع سمك معد للشي على نار منقلة هادئة ، محدبة من الاعلى مقوسة من الاسفل ، والشخص الذي رتب القطع لم يراع نظاما معينا في رصفها ، اذ اجد احيانا قطعا متقابلة او متظاهرة ، وكثيرا ما تغيرذلك النظام بين يدي فاحسب القطعة العاشرة مثلا تدير ظهرها للتاسعة ، لكن في اوقات اخرى اراهما متقابلتين . كنت اعجب كل العجب ، وآمنت مع نفسي انني احمل عقدا سحريا لم يمتلكه انسان قبلي .

– الا تعتقد انك تتكلم عن وهم؟

– ربما . الا يخلق الأنسان لنفسه وهما كي يواصل الحياة؟

– لكل مكان وهمه . سمه وهم المجمع . . . . . .

من طول ما حدقت وحسبت قطع المسبحة او العقد ، كثيرا ما وجدت المشحة السوداء في القطعة الاربعين دائرية في يوم السبت ، وحين اعود اليها في الخميس اجد بدلا منها خطين مستقيمين متجاورين يمتدان من الظهر الى البطن . وهذا ما جعل ذلك العقد تسلية لي لاتحد ، اثناء عيشي في المجمع .

في الحقيقة صرت اميل الى العزلة ، انا وذلك العقد المرجاني . لم استغرب حين اطلقوا علي لقب سيد مسبحة . اذ كنت اقضي الاوقات دائرا في الممرات قرب الغابة ومحاذاة كابينات الحراسة ووراء المطعم وخلف الحمامات . حتى سعيد لم اعد التقي به الا في المطعم او اثناء النوم . الا ان ما راح يتكرر لي في المنام

حول سعيد ، كان مقلقا حقا . هل هي نبوءة سبقت موته؟ ولماذا لازمني ذلك الكابوس طوال مكوثي في المجمع؟

كان كابوسا دون شك . سحرني فيه منظر نهر واسع مكتظ بالاسماك والجثث والعروق . حقول حنطة يغمرها فيضان عارم . امواج تلاطم حافات البيوت . في الوسط من النهر اطفال يسبحون ، بينهم سعيد . الامواج شعر اطفال . العيدان الطافية حول الرؤوس ريش نعام . سعيد يصيح سيغرقني النهر . النهر موجة تلطم موجة وأجراف متآكلة ، ضحايا غرق وسباحون مهرة يخفقون بالعبور من ضفة الى اخرى . في الافق عدة شموس تضيء مسطح الماء . اسماك حمر تشع من القاع . لها اشكال مدورة او مستطيلة او ثعبانية . كانت تنهش جثث البقر والغنم من كل الاتجاهات . سلاحف لاصفة الدروع تمضي في تسلق جذع نخلة بليل . سعيد يصيح سيغرقنا النهر . لم ار صخورا في النهر ، ولا حواجز مرجانية كتلك التي تكثر في البحيرات والبحار .

كنا ، صبية المدينة ، نتجمع فوق السدة متأملين مايجري امامنا . ماهي الا برهة حتى فوجئنا بانفتاح هوة غريبة تلف المياه لفا . ترسله الى القاع . رأينا ثقبا اسود محشوا باطراف ممزقة ورؤوس اغنام وعيون بارقة وعروق صفصاف تفسخت في مكانات بعيدة ، حملها النهر الى ضفاف مدينتنا . كان سعيد يقاوم الانجذاب الى الثقب بعضلات راخية ويأس واضح . سورة الماء اشد من عصب اليدين . راحت السورة تطوي جسد سعيد الى جوفها رويدا رويدا . غاب سعيد في باطن النهر . غبنا في خوفنا وعجزنا دون ان نفعل شيئا . وحين جاءت امه تسائلنا عن مصيره قلنا لها دون خجل :

بلعته الارض ياخالة .

اخبرت سعيد بأمر الحلم ، النبوءة ، الكابوس ، فأجابني بسخرية :

انت تتنبأ بموتي .

وهذا ماحصل بعد سنوات وكنت في مدينة اخرى ، لي اصدقاء آخرون وكاد سعيد ان ينمحي من ذاكرتي لولا ذلك الخبر المفجع .

دأبت على التجول وحيدا في ساحات المجمع ، قرب الغابة ، وفي الممرات الواصلة بين المطعم والبنايتين ، بعد ان ذاب الثلج ، واصبحت الشمس اشد حرارة من ذي قبل . خصصت الطريق الواصل بين الغابة ونهاية السياج لي وحدي . استيقظ صباحا لاتناول فطوري في المطعم واتجه الى الطريق . مسبحتي لاتفارقني . اروح واجيء ، انظر الى الغابة واتأملها . اتغلغل في اغصانها واعشاشها ، واحلم بطيورها الحرة التي تطير فوق المدينة والاصقاع البعيدة . ترى الجبال والطرق والقرى وتفرح بالحقول والغابات . الباشق والنسر والصقر . أحدق الى كابينة جندي الحراسة واتحاشى نظراته بخوف . اعتادوا على مشيي في هذا الطريق ، بل وسموا الطريق ايضا بطريق السيد مسبحة . وهذا ازعجني كثيرا ، اذ انهم وكما فهمت من بعض تعليقاتهم ، يظنونني مجنونا . لم اكن مجنونا ، لكنني كنت امر بفترة تأمل طويلة ، ساعدني على تجاوزها ذلك العقد المرجاني وانفرادي بنفسي .

تأملت بهؤلاء البشر ، انواعهم واشكالهم وعاداتهم ، وراقبت مايقومون به كل يوم . تأملت في الانسان ووجدته غامضا . كم هم متشابهون ، لكنهم مختلفون في الوقت نفسه . متشابهون اذا نظر اليهم المرء وهم واقفون على باب المطعم في انتظار فتحه ليتناولوا غداءهم ، او في غرف الحمام وهم يتزاحمون على مكان خال ، او في ساحة اللعب حين تبدأ العابهم الصبيانية . الا انهم مختلفون حين يقترب الانسان منهم ويسمع احاديثهم ويناقشهم في بعض الامور الخاصة ، او طموح حياتهم المستقبلي . كان السفر بعيدا عن المجمع هدف الكل .

اخبرت سعيد باكتشافاتي وعجبي من هؤلاء الناس واستمرارهم بالعيش والضحك والتنكيت واللعب رغم خروجهم من كارثة . اعتقدت انهم مجانين ، يهتمون بتربية دجاج او بيع لحم مشوي او مطاردة صبيان ونساء في حدائق المدينة . انهم لايمتلكون عقلا ، عقولهم مغيبة بلا شك . رد سعيد وكنا جالسين قرب الغابة على صخرتين متجاورتين وندخن بمتعة ونتسمع الى صوت الحارس الذي انطلق باغنية قديمة شاسعة الجمال ، مليئة بالحزن الجبلي والفقدان الصحراوي وقساوة الايام :

- لقد درست الجيولوجيا ، علم الصخور والطبقات الارضية . الاحجار الكريمة ، جمشت ويسر وعين الهر والتوباز ، العقيق ،الجزع ، اليشب ، الفيروز ، البلور ، الطلق ، البايزهر ، الزمرد ، الزبرجد ، الماس ، الياقوت ، هل تعرف كيف تتكون؟

- اظن انها من منتخبات الصخور ، ومن كرامها ، مثلما نجد رجالا كرماء بين انذال . بقدرة قوة عظمى لانراها ، تضع هذا في ذاك كما لو انها فرّان ماهر .

-في قولك شيء من الصحة ، الا ان القوة العظمى التي تتكلم عنها ، هي ضغط الطبقات الارضية . ذلك الضغط هو الذي يصنع كرام الصخور .حين لايوجد ضغط ترى التراب الذي لاقيمة له .وكلما زاد الضغط تزداد قيمة المعادن . الى ان نصل الى الالماس وهو اصفى حجر خلقه الله على الارض . صفاؤه جاء بعد معاناة هائلة لذراته ، حتى تماسكت ولم يعد فيها شائبة . هؤلاء الذين تراهم ، لايختلفون كثيرا عن الاحجار . الاغلبية تراب ، والنادر احجار كريمة .

- كيف ؟ وهذه الحرب ، والزلزلة العظمى ، والسفرة الشاقة بين حقول الالغام والجبال والثلوج ، الم تخلق منهم جمشتا؟

- الا ماندر ، لانها لم تقع مباشرة عليهم . واجهوها بروح القطيع ، والمواجهة الحادة عادة ماتكون فردية . هذا النوع من المواجهة هو الذي يصنع الجواهر الصافية .

استقر سعيد في قاع تلك البحيرة ، مجذوبا الى صخورها ومرجانها ومخلوقاتها التي كان يستل رؤيته الفلسفية منها . لكنني في تلك الايام لم اخمن ، انه سيواجه مصيره ذاك . خاصة وخاله اتى الى البلاد منذ زمن طويل واصبح تاجرا معروفا ، وكان يزوره في المجمع بين فترة واخرى . اخبرني سعيد ان خاله يرغب بتزويجه واحدة من بناته . لكنه لايفكر في الزواج ، كل ما يرغب به هو الخروج من مجمع المجانين . وهذا ما تحقق بعد اقل من شهر ، اذ اخرجه خاله بكفالته من المجمع واسكنه في بيته ، لكنه رحل قبل الزواج . وما جلب العزاء لروحي ، التي تتذكره دائما ، باعتباره رفيق رحلة العمر خلال الجبال وحدود

البلدان والثلوج ، انني رايته في بحيرة ياسمين ، ارتديت عالمه المرجاني وعشت لحظات موته ، وتمثلته حالا في السمك والاشن والاخطبوطات وقناديل البحر التي شاهدتها تحت الماء .

- لماذا لم تبق مع سعيد في تلك المدينة؟

- لم احبها . هناك مدن لاتشعر الشخص بالطمأنينة .

- وهذه المدينة؟

- لقد نادتني من بعيد . نادتني لأكتب كتاب ياسمين .

- ما الذي حصل بعد خروج سعيد من المجمع؟

- بعد خروج سعيد من المجمع بقيت وحيدا تماما . ليس امامي الا ذلك الطريق ، والعقد العجيب المصنوع من مرجان . صرنا متلازمين ليل نهار .

اصبحت تسليتي الاخرى مراقبة الجنرال بطرس وعلي مربي النمل ووهاب راعي الدجاج . وهم لايبعدون عن دربي كثيرا . فالجنرال يجلس منذ الصباح وحتى المساء ، تحت شجرة سرو كبيرة قرب السياج ، لاهم له سوى متابعة اخبار العالم عبر راديو صغير يضعه دائما على اذنه اليمنى . وكان مصدر كافة الاخبار العالمية في المجمع . تلتقي عيوننا فلا يأبه لي وكأنني غير موجود . اظن انه لم يتذكر لقاءنا في اول يوم دخلت فيه المجمع . اما علي ، فقد استدل على عين نمل اسود ، كان يجلس قربها ، وفي يده حبات من الرز ، وفتات من الخبز ، يجلبها من المطعم يوميا الى مخلوقاته . يتكلم معهن ، يناجيهن ، ويفصل بين نملتين اذا ما شاهدهما تتشاجران على حبتي رز او قطعة خبز . يقول لهما وكنت اسمعه خلسة : لماذا تتشاجران ، الرز كثير والحمدلله ، والخبز كذلك ، وعلي لاينساكن . انه يفكر بطعامكن قبل ان يمد يديه الى الصحن .

بل واطلق اسماء عليهن ، الا ان جميع تلك الاسماء كانت انثوية . سمرة ، حسيبة ، سناء ، دلال ، فيلة ، عزيزة ، فاتن ، نعيمة ويدللها احيانا باسم نعومة . والاسماء على مايبدو غير ثابتة ، تتغير بمزاج علي وروحه الفكهة . في قاعتنا كان يعيش علي ، وهو في اكثر الاحيان ينهض فجأة من سريره ويقول للحاضرين :

نسيت اطعام نملي ، فيمضي الى خزانته ويخرج كيسا مصرورا بعناية يحمله على كتفه ويمضي خارج القاعة . هل استطاع احد ان يعرف كيف جاء علي الى هذا المكان؟ كلا . ولعل هذا السؤال اكثر مايريد القاطنون جوابا واضحا له . كيف وصل الشخص الى هذه المدينة؟ والدوافع وراء السؤال كثيرة . الاخطر بينها هو معرفة اهواء الشخص السياسية ، او الى اي طائفة دينية ينتمي والى اي مدينة او قرية يعود وماهو مستواه التعليمي . وعلي مرة ينسب مجيئه الى الجبال ومرة الى البحر ، مرة الى انه كان جنديا في المعركة ومرة انه كان ثائرا ضد السلطة . اي سلطة ، واي بلد؟ لا احد متأكد بالضبط .

كان ثمة الكثير من العيون والعسس والشرطة السرية في ذلك المكان . الكل يتجسس على الكل . انهم كائنات عجيبة . ما ان يقفوا في الطابور لاستلام حصصهم من الطعام حتى يتحول سلوكهم الى سلوك غر او ضبع ، يصبحون مخاتلين متحفزين لينشبوا اظفارهم بوجه الكائنات الاخرى .

اما راعي الدجاج ، وهاب ، فقد جلب دجاجة وديكا من سوق المدينة ، بعد ان اخذ رخصة من العسكر ، حراس المجمع ، وربطهما في زاوية من السياج . كان في كل صباح يطلقهما في الحديقة ويظل يتابع حركاتهما في الساحات وامام البنايات خوفا من هروبهما الى الغابة . يجلب لهما الرز والفاصولياء والخبز ، وكانت الخطة التي في ذهنه انه سيستثمر البيض الذي تعطيه الدجاجات في عقد صفقات تجارية . يجمع مالا جيدا ويشتري دجاجا اكثر ثم يعمل مفقسة في المجمع ويبيع البيض والفراخ . وفي النهاية سيتجمع لديه مبلغ يستطيع به شراء بطاقة طائرة ليسافر الى لندن .وهو بين الحين والآخر ينطلق بأغنية حزينة ، شعبية ، تغنى في الاهوار والحقول والوديان ، تسترسل مع احزانه حتى تبلغ ذرى الاسبندار . تنخفض مع اله الى ان تمس اجنحة الفراش الليلي ونمل الارض وآثار الاقدام في التراب . يغني وهاب ، فيتوقف الجميع امام صوته وانكسارات حنجرته ، كأنه يرش الآذان برذاذ سحري غير مرئي . من اين للبشر القدرة على احتباس كل تلك الآلام؟ وكل تلك الوحشة؟وكل ذلك الخوف مما سيأتي؟

***

حتى اليوم لم استطع نسيان كابوس المجمع . لاتتخيلي كم كان يتراءى لي دائما في مركز القلب المغني . وقتها كانت الدقائق تنمط وتسيل فاشعر بدبابيس غير منظورة تثقب روحي وثمل متوحش يسير في جسدي . يضيق النفس فأحس كما لو ان رئتي من رخام . يضيق الهواء فيصبح قبضة من نار . كنا نتجمع وسط الساحة ، قبل كل غروب ، لا اعرف لماذا . نتجول بحركات هستيرية عابثة ، دون هدف . يصطدم احدنا بالآخر ، ليس بسبب ضيق المكان ، انما بهاجس غريب يوحدنا مثل فئران التجارب . كانت ساعة ملائمة للمشاجرات ، تستخدم فيها كافة الادوات . الكلام البذيء ، الايدي ، البصاق ، السكاكين ، قطع الخبز الجاف ، الاحذية ، التراب . يحدث الامر بعد ان تتلون النوافذ بحمرة الغروب وتؤوب الغربان الى سرو الغابة ويتأهب العسكر لبدء مناوباتهم المسائية .

ذات عصر سمعنا صراخ شاب فجأة فحسبنا ان عقربا لدغته . لكن صرخته دلت على ابتهاج طفولي . لقد اكتشف لعبة غريبة . تجمعنا لرؤية شيء جديد آخر من عبث هذا المكان . كان الشاب يطارد عقربا قرب سياج المبنى الفاصل بينه وبين الغابة . لا ادري كيف جلب نفطا ورشه من قنينة صغيرة حول العقرب . رسم دائرة من نار . التففنا نحن بدائرة بشرية نرقب المشهد . حاولت العقرب اختراق محيط الدائرة اول مرة . لسعتها النار فارتدت الى المركز ثم حاولت ثانية الخروج من جهة اخرى . حاولت العقرب اكثر من محاولة فردتها النار . يبدو انها فهمت الامر . انها محاطة بالجدار الملتهب من كل الجهات وليس هناك من امل . بعد لحظات وقفت العقرب في منتصف الدائرة . كنا نحدق بخوف كما لو كان الأمر يعنينا . رفعت جسدها الامامي بنبل حصان ثم ضربت جسدها بابرتها الرفيعة ضربة نجلاء لاتخطئ ، وماتت .

قال واحد من المتفرجين بصوت عال : الفاتحة على روح شهيدة الحرية .

ثم تعالت الضحكات من كل جانب . سكبت انا دمعتين حارتين . تخيلت

نفسي بحق ذلك العقرب المسكين .

لم يكن المشهد اول مشهد للانتحار .لقد اصبحت لعبة محاصرة العقارب بالنار ودفعها الى الانتحار هواية . التقطها مهندس بائس بلحظة تجل فطبقها بعد شروق الشمس بدقائق وسط الساحة المواجهة للمطعم . رش كمية كبيرة من النفط على جسده واشعل النار وسط ذهول المصلين والحرس والجنرال بطرس الذي كان خارجا للتو من حمامه الصباحي . دأب المهندس على قطع الساحات دون ملل ، مضربا نهائيا عن الكلام ، ولم تجد معه كل صنوف الاغراء في حمله على الحديث .الا انه لم يغب يوما عن لعبة العقارب . لقد عاش سنتين في المجمع .

حالة الانتحار الثانية كانت لرجل في الخمسين . افرج عنه قبل اسبوع من موته ، وقد سجن بسبب ادعائه النبوة كما اخبرني مراقب القاعة ستار . حين تأكدوا من حالته النفسية اطلقوا سراحه . وسمحوا له بممارسة جنونه كما يود . عاد الى المجمع دون ان يكف عن دعوته ، الا انه استطاع كسب مريد يخدمه ويردد اقواله . كان يخرج من قاعته الى ساحة المطعم ، ليبدأ بترديد آياته التي ابتكرها على غرار قصار السور . وكنا نتجمع حوله ساخرين وغير مصدقين وآسفين . في ذلك اليوم قرر الرحيل عن هذا العالم العاق هو ومريده ، ليضع نهاية حياته ودعوته التي لا يستحقها الغافلون ، على حد قوله . حدث الموت اشتعالا امام باب المطعم ، قبل توزيع الغداء بدقائق ، فلم يذق احد منا طعاما طيلة النهار .

اثناء تلك الايام اصبحت اخشى الموجودين كثيرا . اخاف منهم . اخاف من انتحاراتهم ولعبهم ووشاياتهم وثرثراتهم . انتحيت جانبا ورحت اصرف ايامي في المشي ، والتأمل في ماحولي والبحث عن طريق للخروج من البلد كله . كانت اي كلمة عابرة يمكن ان تؤدي بقائلها الى السجن والتحقيق والشك . لم امنح ثقتي ، بعد خروج سعيد من المجمع ، لاحد . ارتاح فقط للمجانين وانصاف المجانين ، لانني لا ادخل معهم باحاديث جدية . كانوا يعيشون الاشياء كما هي . يسمون الشجرة شجرة ، الدجاجة دجاجة ، الباب بابا ، او يغوصون باوحال احلامهم واوهامهم ، التي لاتؤذي احدا . وظل العقد سرا غامضا لي ، ولعبة امارسها متى

اشاء . اصبح عالمي برمته . بل ورحت اقرأ الحظوظ لبعض الموجودين الذين اثق بهم قليلا ، عبر حباته . عبر الوانه وبقعه ومشحاته . وذلك حسب تاريخ الميلاد ، وهو ابتكار صنعته بعد تأمل طويل في عالم المرجان .

كنت اجمع ارقام عيد الميلاد وانتقي بعددها قطعا من العقد ثم اروح اتكلم عن حظ الشخص جليسي . ارى خطا يشبه البوابة فاقول للشخص انك ستسافر قريبا ، لان البوابة علامة الرحيل والدخول الى عالم جديد . ارى بياضا فاقعا فاتخيله صرة من المال ستهبط على محدثي ، او سهلا من الحمرة فامنحه هوية المغامرة في سماء غائمة . كما كانت سمات الوجه خير مساعد على تلك المهزلة . وهكذا لم تمر ايام على بدئي هوايتي الجديدة حتى اطلق علي ، اضافة الى السيد مسبحة ، لقب الساحر . ان الشخص ما ان يصبح مميزا بشيء حتى تضيق دائرة الاصدقاء ، ويتحاشاه الناس .

– لكن قراءتك لحياتي غير صحيحة . لم اتزوج شخصا مغتربا ، ولم يغتصبني احد .

– كنت ارغب بادهاشك لا اكثر . قراءة شخص آخر لا تضبط دائما . . . . .

ثم تضاعفت عزلتي كثيرا ، واصبحت تسليتي الوحيدة هي ثمل علي ودجاجات وهاب ، وحكايات الجنرال ومغامراته في الحمامات والقاعات والشرفات والمطعم . وهي تشتمل على السرقات واللواط والتجسس على الكلام وافتعال المشاكل مع ادارة المجمع .

صباح الجمعة ، جاء سعيد لزيارتي ، وكان قلقا على مصيري . حدثوه عن حياتي في المجمع وعزلتي التي كنت اغوص في مستنقعها . كان يخشى علي من الجنون او الانتحار . جاء وقال لي :

– تعرفت على شخص يعمل في تنظيم سياسي وهو قادر على تدبير جواز مرور مؤقت الى دولة مجاورة .

ثم صمت قليلا وهو يحدق في الغابة وغربانها السود ، ويتملى في الحصى المفروش عند قواعد السياج ، ويطقطق بمسبحته البايزهر المشبعة برائحة خاصة .

استدرك كلامه بعد نفثة هائلة من الدخان ، رشها في وجهي :

- لكن بشرط ، هو الانتساب الى التنظيم . . . .

لم افكر طويلا بالامر . نظرت الى بندقية الحارس وكانت موجهة الى صدري . وعام في الهواء صوت وهاب ، الباحث عن قرار يخلو من الاحزان . كنا جالسين على الصخرتين اياهما قرب نمل علي ، وليس بعيدا عنا الجندي يطلق اغانيه الجبلية الحزينة هو الآخر ، بلغة اخرى لا نفهمها ، والوقت بعد العصر . تلونت الشبابيك بالقرمز وآبت الغربان الى اشجار السرو وراح البشر يتجمعون في منتصف الساحة . في الهواء ذبذبات حادة التأثير ، مقبضة للقلب عاصرة للروح .

قلت له وانا انظر الى حبة مرجان ارتسمت عليها بوابة بيضاء مرقشة بالسواد :

- موافق .

حدقت في داخلي فألفيت انني اتقبل اي شيء ، واي عرض ، واي مساومة ، مقابل الخروج من هذا السجن . هناك اوقات لابد للمرء ان يقدم فيها تنازلا ، لانقاذ روحه .

بعد فترة سكوت قال :

- وهكذا فعلت انا دون اي شعور بالندم .

ثم صمت مرة اخرى وحدق الى وجه مرام .

كانت تغط في نوم عميق . . . . . .

الفصل العاشر

دخل مركز القلب المغني ، مطمئن البال ، ممتلئا بأحاسيس ناعمة ، في صباح مشرق سماؤه زرقاء . احس بحب للون السماء وأشعة الشمس المنسكبة على الاسفلت ، وخطوات الناس التي تطرق على الرصيف ، وبط البحيرة وبجعها الذي كان يتشمس على الضفاف . قال للباب الخفيض ، من خشب السنديان ، صباح الخير . رشق الورود والنباتات النامية في الحديقة بنظرات مودة . بارك حشرة المن وصرصار الحقل ودعسوقة الخس وفراشة الملفوف . واجهته رائحة الدارسين وعطر اليانسون ما ان دخل الممر . ابتسم للسجادة ذات الالوان الطيفية وهمس للصور المعلقة على الجدران بتحية الصباح . انه يجد طريقه شائقا ، والرحلة لاتنتهي ، يغوص في دواخله ويمجّد الجسد . البيت يمتلئ بالموسيقى ، وليس من صوت بشري . صور الاذهان فقط تطوف في مسكن ياسمين مثل ارواح تائهة .

جلس في الدائرة . في خيط المرجان ، ذي الحبات المنحوتة من بشر لهم وجوه وافكار وعقد ومشاريع . الحبات التي تتغير في كل مرة يمسها ، تلك هي الأخرى حبات سحرية . سحرية وغامضة . ياسمين تجلس في الصدر ، ترتدي اليوم ملابس وردية ، وتحتذي حذاء خفيفا ورديا ايضا . قرطاها زهرتا لوتس بلاستيكيتان لونهما وردي . بدت امامه كائنا ورديا يشرح القلب . ماتزال

الابتسامة الغامضة على وجهها . عيونهم مغمضة ، جلوسا يسمعون صوت الموسيقى . تلك موسيقى لاتنتمي الى عالمهم هذا . آلة هوائية ، مفردة ، ضخمة الصوت ، ذات ايقاع رتيب . رتيب لكنه متغير ببطء ، لايحس بتغيره الا من يركز عليه بدقة متناهية . وهي فترة تأمل حر في الموسيقى . يستطيع الشخص ان يسوح معها على هواه دون التحكم في حركة ذهنه . سياحة موسيقية ان صح القول ، يتجرد الانسان معها ولا يبقى في داخله سوى نفسه .

كان يسمع الموسيقى كشيء ثانوي ، شيء خارج روحه . يطرب لها او ينساها لاينغمر في الاشياء حوله او في خيالاته . اليوم ، وفي فناء القلب المغني ، تعلم ان يعيش الموسيقى ، يتغلغل في ثناياها ، يعدها نهرا جاريا يسبح فيه . يضع كل ذهنه فيما يسمع ، يرقب العلو والهبوط ، يعيش اختلاف النغمات ، صغيرة وكبيرة ، ثخينة وناعمة ، سلسة وخشنة . يعي تعدد الآلات ، وانسجامها او تنافرها ثم الهدف النهائي الذي تروم بلوغه . اخذته تلك الموسيقى الى سهب واسع . احتضن التلال الرمادية بين ساعديه ، ربت على ترابها وصخورها ، ثم وضعها في قلبه . احس بتكسر الاعشاب الجافة تحت قدميه ، ونخزته اشواك العوسج التي مشى بين اغصانها . مرغ جسده على طراوة العشب النامي في المنخفضات ، وادهشته قشور البيض المتناثرة بين جذور العليق . السلوى طارت امامه محلقة في الفضاء فتتبعها وطار معها فرأى مسارب المطر على وجه الارض ، والتماعة الصخور الكرستالية وعتمة الكهوف التي حفرتها بنات آوى وأول البتلات تواجه دون وجل اشعة الشمس . جلس في مقهى واجهته زجاجية في مدينة بيضاء . المقهى يطل على شارع للمشاة . وجد روحه يرقب البشر ، وكم وجدهم غامضين .

كان جالسا في تلك المقهى المضببة الزجاج يرقب سيلا من الناس لاينقطع . وجد نفسه في سجن ، في زنزانة ضيقة مكتظة بعشرة اشخاص ، وتملأ اسماعهم خطوات حارس مدجج بالسلاح . على جدار تلك الزنزانة حفرت نخلة طويلة محملة بالعذوق . لابد ان سجينا مات او خرج من الزنزانة بعد ان حفرها

بأظافره . . . .

رأى طرقا مليئة بالبشر ورعاة يمرحون في ظل عباءاتهم وجمالا تعلك العاقول . سمع الجرذ يقضم الخنفساء والصخرة تتحطم في القاع بعد ان هوت من قمة التل ، وهفهفة الاغصان الكثة الورق في الريح الطلقة الهابة على السهب . ايقن ان الحياة مليئة بالجمال . وان كل ماهو كائن جميل . بل وارتفع مع تلك الموسيقى الى خارج الارض . فاذا الارض كرة صغيرة مدورة ، ذات شكل ممتع . امسكها بين يديه وتأملها ، وضعها في قلبه مع كل ما تضم . بشاعاتها وجمالاتها وحروبها وغاباتها وانهارها وبحارها وبشرها ومخلوقاتها العجماء وافكارها . مباءاتها واخطاءها ودورها وعرصاتها والوانها ، الاحمر والبنفسجي ، الاخضر والبني ، النبيذي والاصفر . الوردي والاسود ، الرماني والعنابي ، النهدي والاشهب . الابلق والمرقش ، كل شيء كل شيء ، حتى بحيرات المرجان .

و بخشخشة طويلة لاوراق تكنسها الريح تذروها في الفضاء ، غابت الموسيقى ، ورجع الى حضن الصالة . حدق في الوجوه ، كل وجه يمتلك قصة ، عاشها لابد مع انفلات الموسيقى في يومنا هذا .

جلبت المعلمة حزمة من الاوراق البيض ، وزعت لكل شخص منهم عددا منها مع علبة من الاقلام الملونة . ثم قالت : الحياة جميلة ، متناسقة ، محكومة بتوازن فذ وخلفها حكمة لاتحد ، الا ان الانسان يجاهد للوصول الى مرحلة التحكم بعقله . بافكاره وشطحات خياله . والوصول الى هذه المرحلة وصول الى ضفاف الحكمة وبلوغ التوازن . مرحلة الارادة الحرة المجردة التي تتوشح بالحب الكوني . علينا ان نعرف متى نضحك ومتى نحزن ، متى نغضب ومتى نرضى ، وكيف نضع حدودا لاجسادنا . كيف نواجه هذا العالم بهذه الطاقة غير المحدودة التي نمتلكها . من الضروري جدا ان نمتلئ بالحب ، وان نحول الحياة الى مغامرة كبيرة . لانها مغامرة بحق . الوجود مفروض علينا ، لكن كيف نعيش وجودنا؟

جانب السخرية من الجوانب المهمة في حياة الانسان . علينا معرفة كيف نسخر ، لان السخرية لعب ، واللعب من صفات الانسان الحي النامي ، الذي

يظل ينظر الى الاشياء بعيني طفل . السخرية كسر لرتابة المألوف ، وخلق وابداع . انها جزء من الشخصية لابد لنا من تعلمه وعيشه وتفهمه . لاينبغي لها التحكم بحياتنا ، انما هي شيء لابد من امتلاكه . امتلاكه واستخدامه في الوقت المناسب . الاوراق التي امامكم والاقلام الملونة التي بين ايديكم ، ستكون اداة للسخرية . لتحويل الاشياء الى صور مضحكة . انه اللعب على توازن الوجود . اللعب بوعي وخلق وابداع . كل واحد يرسم الاشكال التي يستطيعها بأقصى مايمتلك من سخرية .

لامقدسات امام اللعب . كل شيء يمكن ان يكون مجالا للسخرية . علينا امتلاك الجرأة لتغيير عاداتنا المألوفة ، واحاسيسنا المألوفة ومصادر وعينا المألوفة . نمتلك وقتا للرسم ، ووقتا لمشاهدة ما انتجتموه ووقتا للتعليق عليه . سنبدأ الآن . وسأشارككم بهذه اللعبة الفذة التي تعلمتها من واحد من اساتذة الزن المشهورين . رجل بلغ مئة وخمسين سنة وظل طفلا . كان لايخاف الموت لانه لايخشى تغير الاشياء . كان جريئا في ابتكار ماهو شاذ وغير معقول ، وكل الاشياء التي يخاف الذهن احيانا التفكير بها .

حقا يمكن للانسان ان يخلق علما جديدا بهذه الخدعة البسيطة . يركب اشياء ، يؤالف بين مالايتآلف ، يدمج هذا بذاك ليخرج كائنات لايراها كل يوم . هو اسلوب لتمرين الخيال وشحذ التصور . وهذا امر ليس بالصعب على صعيد الفكر ، لكن ان يضعه الشخص موضع التنفيذ جرأة زائدة . يمكنه رسم حمامة لها رأس جمل ، وبيتا معلقا فوق قوس قزح ، وياسمين نفسها وقد اصبح جسدها جسد بقرة ضخمة ذات اضرع وذيل واظلاف . رجل بعين واحدة في منتصف رأسه ، بحيرة ماؤها من الكرستال الذائب ، افق بثلاث شموس ، واحدة في الغرب والاخرى في الشرق والثالثة في السمت . لكن هذه الفكرة فكرة صاحبه ، الرجل الجالس هناك منكبا على اوراقه . لازال يتذكر حلمه عن الارض الجليدية التي تشرق عليها شمسان ساطعتان . يمكنه تخيل نافذة طائرة في الهواء ، درفتاها تصطفقان في ريح عاتية ويسمع لها صوت مرعب . او عجة عملاقة تكفي لاطعام

مدينة كاملة ، او نهر من عسل او لبن ، وعلى ضفافه تطير او تحط نساء جميلات عاريات بأجنحة ذهبية واقراط تتدلى من آذانهن ، ولهن عجيزات ضخام يتيه الرجل في بياضها . كل ذلك جائز وممكن . لكن عليه ان يدهش ياسمين هذه المرة بخيالاته غير المطروقة . الخيالات التي لن يفكر بها احد غيره .

***

رسم شجرة ضخمة ، اضخم مايتصورها عقل ، ومد جذورها الغليظة الى باطن الارض . جعل تلك الجذور تتغلغل في كتلة ضخمة لها هيئة كتاب عملاق ، تنتهي فيه كل الجذور . والجذور جذور نخيل و يوكالبتوس و عفص . كل الجذور متشابهة . من ذلك الكتاب تتغذى الجذور ، تمتص الحروف والكلمات والاسطر . الافكار والرؤى والخيالات والمحاججات والاشعار والقصص . الجذور تتفرع الى جذيرات ثم تتفرع الجذيرات الى شعيرات دقيقة عددها ملايين ، تتوحد كل شعيرة في حرف من الحروف . في الاعلى رسم اغصانا مشعشعة نضرة ، بأوراق يانعة عريضة ، وفي نهاية كل غصن صور زهرة خماسية الاوراق ، انبثق من وسطها كتيب صغير . صور مئات من تلك الكتيبات على تلك الشجرة ، واطلق اسماء عليها ، فحملت اغرب العناوين : كتيب الحب ، السمك البحري ، العلوم الفضائية ، البرق ، الالكترونات ، نقد الجسد ، تواشيح البيوت الدينية ، الفلسفة ، الغناء ، الموسيقى ، العرافة ، الرعاشات المائية ، اشكال الورق البري ، الرمال ، الطبقات الارضية ، التأمل ، الهندسة ، فيثاغورس ، الشعائر .....

اما ذلك الكتاب الضخم الذي تتغذى منه كل تلك الكتيبات فلم يعثر له على اسم . وجد من الصعب حصره في عنوان محدد . انه عنوان العناوين ، ومصدر الكتب كلها ، فتركه غفلا . هو قطع فخار وشمع ولحاء نخيل وورق بردي وحرير وعاج وطين وجلود ثعابين وشرائح ذهب وفضة ورصاص وبرونز وجلد ورق .

لقد تحدر من كل ذلك ، لكن الا يتردد الأنسان كثيرا في نسب كل الاشياء التي يراها بتعددها وتنوعها الى مصدر معروف ، لذلك يبقيها مجردة لاتخضع لتأطير؟ مصدر يضع له كل شخص اسما يرتئيه ويناسب مزاجه وعقله وامكاناته؟ انها صورة جادة وفلسفية ، ولايهم ذلك ، فكثيرا ماتكون الافكار الجادة مضحكة وساخرة . لقد راودته احلام كثيرة حول الكتب . حين كان يعيش في ذلك المبنى مع سعيد والجنرال بطرس ووهاب وعلي ود لو يستطيع قراءة كل كتاب يقع بين يديه . جميع تلك الكتب العتيقة التي كان يجدها في النوافذ والرازونات وتحت الاسرة وعلى طاولات المطعم . رغم ان هذه الرغبة رغبة ساذجة ، الا انه فكر بتحقيقها عمليا بتلخيص الكتب واختصارها في كتاب واحد يقرأه دفعة واحدة . وهذا مادفعه في تلك الفترة الى تلخيص اي كتاب يقرأه . وقد ترك تلك الملخصات ، عندما سافر ، مع سعيد ، الذي مات غرقا ولم يعرف مصيرها قط .

رسم كرة أرضية ، بمختلف الالوان . دائرة متألقة ، تستند الى قرن صغير ينتأ من ثور ، تستقر منذ القدم عليه ، ورسم الثور واقفا على مسطح مائي هو بحر البحار ، بينما يستقر البحر ذاك على اظفر لكائن عملاق ، لم يستطع ان يحدد اعضاءه داخل الورقة . كما لم يجرؤ على تخيل عظمته وضخامته فلم يبين سوى الاظفر ، الذي طلاه باللون الزهري وملأ اغلب الصفحة تقريبا .

الكرة لاتسقط ، والثور لايتحرك ، والبحر خال من الامواج ، والاظفر لجسد لاتحده الاوراق . اعجبته الرسمة فرتشها بألوان مذهبة واضفى عليها اشعة هابطة من مصدر علوي لايبين .

استوحى الرسمة الثالثة من الواقع الذي عاشه في تلك المدينة . امرأة جميلة ذات وجه دقيق ، وعينان ناعستان ، تجلس على صخرة عند شاطئ البحر ، وتحدق الى افق بحري بعيد ، فيه جزر واشرعة وبواخر وغيوم ، تنتظر قادما من تحت الماء ، ربما يكون حبيبا او صديقا او قريبا ، نصفها الاسفل سمكة ضخمة ذات زعانف وحراشف . الذنب يضرب الماء والماء فيه القناديل البحرية والاشن والرعاشات والمحار ، وتخيل المرأة تلك ، الكائن الذي يربط الأنسان بعالم الماء . لابد ان يكون

قد قدم منه . انصاف اسماك ، وانصاف بشر . في الماء تكتمل الكينونة ، وتنتعش الخيالات وينتمي الأنسان الى مصدر الاشياء . الم يحس بذلك وهو تحت ماء البحيرة؟

في الورقة الرابعة رسم نفسه .

جسد لا يحمل سمة غريبة الا في جزئه الاسفل . فالرجلان ، وربلتاهما تحديدا ، تضخمتا بشكل هائل . صارتا ساحتين لمعارك دارت في حياته السابقة . دبابات واشلاء وخناجر وسكاكين ، توابيت ووجوه صارمة تحدق بعيون واسعة غاضبة مؤنبة وطائرات . دروب جبلية وبغال ومآذن وكهوف خربة ومقابر واشجار محروقة ونباتات تقطر من اوردتها دماء قانية . اهذا حقا ما يربطه بأمه الارض؟

جمع الموجودون اوراقهم امامهم ، ثم اعطتهم ياسمين ساعة للاستراحة . قالت امضوها في الحديقة ، كل واحد يتأمل في موجوداتها . لاتتكلموا فيما بينكم . فترة الانتقال من الانفعالات الداخلية الى الانفعالات الخارجية . تمتيع الحواس كما عبرت عن ذلك . فالانسان بحاجة ان يعيش ، بين فترة واخرى ، لحظات يخرج فيها عن ذهنه وافكاره . ربما من هنا يأتي حب الطبيعة عند الناس . مجتمعاتنا الحاضرة محكومة بالتأمل الداخلي والحسابات المجردة . هي بحاجة الى الابتعاد عن المجردات كي تلامس المحسوسات . تلامس البري والفطري والحوشي الذي لايخضع الى قاعدة ولا يدخل في تنسيقه الانسان . مثلما يحتاج المرء احيانا الى الفوضى ، لكسر جمود القوالب التي رسمها لنفسه او رسمتها له مهنته . ربما تدخل السخرية التي نعمل عليها اليوم في باب الفوضى وكسر الاطر والقوالب .

***

بدت حديقة ياسمين فسيحة ، تحت اشعة الشمس ، وهي تحيط بالبيت من جميع الجهات . قسمتها الى مستطيلات ودوائر ومربعات ، تتخللها المماشي وبقع

الشيل المعدة للجلوس . تحتل تلك الشجرة الضخمة ، شجرة الجوز البري ، الفسحة الواسعة الكائنة خلف البيت . في بعض الاقسام اشادت ياسمين تليلات من التراب زرعتها بانواع الاشجار والنباتات ، دون انتظام ، لذلك تجاورت الهيدرا مع البغونيا والمطاط والسيوف وثمة سرخسيات وخنشار وكف العذراء . جرز نامية من الخبيزة والبامياء ، الزهور والصباريات وحشيشة الفيء ، كانت كلها تشتبك فيما بينها لتصنع غابة مصغرة لاتخضع لترتيب او تشذيب .

في مشاتل اخرى امكن له الوقوف برهة لتأمل الرائحة التي كانت تسري في خياشيمه ، خليطة هي من القرنفل والفل والياسمين والورود والبنفسج الافريقي . الالوان لاتحكمها قاعدة ، فكثيرا ما يتجاور الاحمر مع الازرق او الابيض مع البنفسجي ، ولاحظ ازهارا منقطة بعدة الوان ، فعجب من ذوق ياسمين في اختيار كل ماهو مدهش . عند زاوية من السياج الخشبي رأى اشجارا مزهرة هي بنت القنصل والفل المجوز والتمر حنة والورود بانواعه والابصال الشبيهة بالزنابق ، وقد كتبت قرب كل شجرة او نبتة اسمها واين تنمو في الكرة الارضية .

البيت الزجاجي الصغير ، المقام قرب مخزن آلات الحديقة جذب فضوله فدخله . وجد نباتات كتب عليها ، نباتات حدائق الشرفات ، فسار ليقرأ ماتحتويه . الاسبرجس ، السرخس الريشي ، راخي شعره ، سفندر ، الشيح ، المنشور ، القطيفة ، نبات الخروع ، عنبر كشمير ، الاقحوان ، لسان العصفور ، بسلة الزهور . شعر كأن نباتات الكرة الارضية تحت نظره ، وعجب من تنوعها وجمالها . كيف يختصر الانسان عالما كاملا في حديقة صغيرة؟ ورجعت اليه فكرته التى رسمها على الورق . فكرة الكتاب العملاق الذي يغذي الكتب كلها ، الحاوي لمعارفها واسرارها . هل يمكن الحصول على بستان يحتوي على كل نبات هذه الارض وشجرها ؟ سؤال ارعبه . لكنه تأمل في الفكرة طويلا . ماالحاجة لذلك . المهم هو ان يعرف المرء مبدأ النبتة وجوهرها . لان كل مايشاهده من تنوع ، يستند الى الفكرة عينها . النمو والنضج والاثمار ثم الموت ، الذي يكمن في داخله قوة النمو الجديدة . هل يخضع البشر الى المبدأ نفسه؟

خرج من البيت الزجاجي ومشى في ممر ضيق على جانبيه شجيرات فراولة ، لما تنضج ثمارها بعد ، وانتهى به الممر الى حقل ، مزروع بالورود والملفوف والفراولة ، وتركت الحشائش المتطفلة تنمو على هواها . بدا الحقل الصغير مثل ارض بكر لم تمسها يد . انحنى ليرى دقائق النبات وتخاريم الورق وأوردته ، ليرى الاشكال الدقيقة في الزهور والسيقان الملونة . جلس في ذلك الحقل ودس رأسه في الخضرة ليشاهد العالم المتخفي تحت الاوراق . كانت هناك قرية كاملة من الاحياء . المن والنمل . البقة الخضراء ويرقات الفراش . ابرة العجوز الذي يسمى في مدينته ابو مقص والحشرة النطاطة . العنكبوت الاحمر والمن القطني . لاغمة الاوراق وعثة الغراب والخنافس والبزاق الاسود يدرج على فتات الارضية الرطبة . أكلة ساق التفاح والنمل الاسود ودودة الارض والسوسة ودبور العنب الذي يرف بجناحيه متململا من عسلوج التف على جسده . وقبل ان يبدأ بتأمل كل مخلوق من هذه المخلوقات بدقة وتفحص ، سمع رنين جرس ياسمين يدعوهم الى الصالة فأجل النظر والتأمل الى يوم آخر .

اعطتهم ياسمين عشر دقائق يعيشونها مع موسيقى الغابة ، المألوفة لاسماعهم . اصبح هو يتعرفها نغما نغما وآلة آلة . انها موسيقى تخاطب الجانب الألهي في الأنسان . . . . . .

بدأت ياسمين باقرب شخص لها من اليسار ، وكانت تلك الفتاة التي تشعر باضطهاد امها لها ، فطلبت منها نشر اوراقها ، وتوضيح صورها .

رفعت الفتاة اوراقها وشرعت في قراءة الرسوم .

قالت : هنا مربع من البرونز ، ذو سماكة معقولة ، يبتدئ منه درج صغير الدرجات ، يصعد الى الاعلى ، لكن بتعرج خفيف ، والتواءات تشبه طابوقا مرصوفا بعضه فوق بعض . على الدرجات آثار اقدام لشخص صعد الدرج وواصل الصعود ، وهاهو يقف الآن على آخر درجة . الرجل اليسرى ترتكز على الدرجة الاخيرة ، واليمنى على ماقبل الاخيرة . جسده ناحل ، وملامحه ليست واضحة . يداه مرفوعتان الى الاعلى ، وهو يقف في لحظة خاطفة من التأمل . حين يرفع

الرجل الرجل اليمنى لابد ان يضعها على درجة جديدة ، لكنه يحدق امامه فيجد ان الدرج مقطوع ، وليس امامه سوى الفراغ . فما الذي سيفعله ياترى؟

هذه الرسمة تمثل اربعة قضبان تنتهي بسقيفة صغيرة ، اشبه ببيت على شكل عمود مجوف . للسقيفة سقف يقوم عليه كرسي مريح ، تصميمه ذو مسحة تقليدية ، ويقف عند اسفل البيت رجل . يقف مفكرا ، ففي الاعلى كرسي مريح يشرف على اصقاع وآفاق عجيبة ، ولكنه يظل واقفا مفكرا في معضلة هذا الحال . فالجلوس على ذلك الكرسي يتطلب منه الصعود ، والوسيلة الوحيدة لذلك الصعود هو الدرج الواقف عليه . لكن الدرج ذو درجات مقلوبة ، انه يقف قائما تقريبا ، فكيف الصعود؟

الرسمة الثالثة ، عشرات الكراسي يقف بعضها فوق بعض . كراس مثل تلك التي شاهدناها في السقيفة ، كل كرسي يستند على الذي تحته برجل واحدة ، وآخر كرسي يقف قلقا في الفضاء ويقف عليه ديك منفوش الريش يصيح . يظن انه سيجلب الصبح الى الأرض . انها لعبة الكراسي القائمة على توازن مفقود .

الرابعة هذا القوس الواسع الشبيه بسيف حاد ، يستند مقبضه على كتلة من البرونز ، ويجلس على تلك الكتلة رجل رافع رجليه في الهواء ، بينما وقف على نهاية القوس رجل نحيف بلا يدين . ما الذي يعني هذا؟ انها لعبة التوازن . كل شيء حولي في حالة توازن قلق . هذا امر نادر في الطبيعة ، او في الناس حولي . فكل الاشياء تميل الى الاستقرار ، الى تغلب عنصر على آخر ، حتى البشر ، لابد ان يوسموا بطابع خاص ، هو شخصيتهم الغالبة . الهازئون ، اليائسون ، المكابرون ، الكاذبون ، ونادرا ما التقيت بشخص يقف في برزخ التوازن القلق . ربما تنوجد هذه الحالة بلمحة خاطفة لكنها سريعة التلاشي .

الرجل الكهل كانت رسومه من نوع آخر :

قال : عصفور بمنقار ابيض ، مدبب ، وعين حادة تحيطها بقعة ذهبية لوزية الشكل ، جسد العصفور بريش اسود ، وفي الظهر قنزوعة صغيرة بحلقتين بيضاء وسوداء . الذيل ريشتان صفراوان فيهما حزوز سود . بطن العصفور ذات ريش ناعم

قهوائي ، وقادمتاه غليظتان تنتهيان باصابع ، وهو يقف وقفة متأهبة . هنا نلاحظ تحت قدميه كائنا صغيرا ، هوالانسان ، لكن تفاصيله غير واضحة . كيف نرى عصفورا اكبر من حجم انسان؟

هذه القبة السوداء التي ترونها امامكم لن اخبركم عنها . سيأتي هذا لاحقا . سأخبركم عن الاشياء المرسومة على تلك القبة . هذا البرج الملون ماهو الا رأس زرافة ينتهي بقرنين طويلين . القرنان يكادان ان يلامسا قمة تلك القبة السوداء وهما بلونين ابيضين . في صدر الزرافة حزوز ملونة بالاخضر والوردي ، وفوق الحزوز كتلة تشبه العين ، وفوق العين اثر كأنه اثر حذاء صغير . الى جانب رأس الزرافة كتلة بيضاء تشبه سمكة او صاروخا في طريقه الى الانطلاق . في نهاية الفم شعيرة تنفرج الى قسمين ، والسمكة مفتوحة الفم ربما تتأهب لاصطياد فريستها . وتحت الفم خطوط سود وزغب ومسننات تشبه الامشاط ، وقد بدت هذه الكتلة كما لو انها تنتأ من قاعدة تلك القبة . القبة المليئة بالاشكال والرموز ، هذه التي ترونها امامكم ، ماهي الا خوذة جندي متروكة في صحراء . لقد مات ذلك الجندي لكن الاشكال الجميلة باقية حية . انها حية في رأسي ونقلتها لكم على الورق بالاقلام الملونة .

انها الساحرة . تمسك بيدها سمكة ميتة . امامها هيكل عظمي لسمكة اخرى ، ذات اشواك متناسقة ورأس هامد . خلف الساحرة قصر منيف لاتظهر الا بوابته وهي تنحصر بين عمودين ضخمين ، وعلى البوابة زخارف من النخيل والغزلان والحروف الكبيرة . ثمة طائر في منطقة معتمة يتجه الى تلك الساحرة بطمأنينة . طمأنينة الضحية السائرة نحوقدرها المميت . ثمة ايضا افعى تسعى وقدر معد على ثلاثة حوامل يتصاعد منه البخار ، ولا احد يعرف مايحتويه . وفي البعيد اثر لاطلاقة اخترقت جدارا من الحديد ، حافات الحديد تمزقت وتناثرت مشكلة ثقبا غير منتظم على ذلك الجدار . يلف كل ذلك ماء ازرق ، فيه حيوانات بحرية لامألوفة وفقاعات ماء وينابيع تتصاعد من قاع صلد . كل هذا المشهد يمكنني تخيله في قاع بحر حيث تقطن الساحرة التي نحلم كلنا بلقائها . او ربما

تقيم تلك الساحرة في قاع نهر . ولم لا . اليس المياه مصدرا للسحر؟

اخيرا انظروا الى هذه الورقة . انها بيضاء تماما . لقد تخيلت كرتنا الارضية وقد اقتربت من الشمس قليلا فاحترقت الغابات وجفت المحيطات والانهار ، وغاب الانسان من سطحها ، ولم تبق سوى صحراء البياض هذه . لم لا . او تخيلوا الامر عكس ذلك . ابتعدنا قليلا عن الشمس فتجمد كل شيء . اصبح سطح الارض مغطى بالثلوج ، اصبحت الارض كلها قطبا . لم لا . كل شيء جائز .

المرأة المصابة بالسرطان قالت انها لاترى في الحياة اي سخرية . كل شيء جميل فيها . حتى الاشياء البشعة توحي بالمرح والسعادة . لقد استوحيت من هذا الرسم تصنيفات للانسان . لذلك رسمت رسمة واحدة فقط . هذا الرجل مخطط الوجه بالاسود ، استخدمت هذا اللون ليتلاءم مع البشرة الداكنة السمرة ، وجعلت لسانه يتدلى من فمه شديد الحمرة . رسمت عينيه حادتين ، ذاتي بريق ، ووضعت دوائر من السواد على شدقيه حتى بدا مُثل نمر . انا اصنف البشر حسب الحيوانات . كل انسان ويحمل طبيعة من طبائع الحيوانات التي نعرفها . هذا الرجل يشبه النمر . متوثب ، متحفز ، يرى ويراقب مايدور حوله حتى لو بدا كأنه لا يلاحظ شيئا . لكن ما ان يتحرك شيء يهمه حتى يرصده بدقة . تراه يظل مطاردا فريسته حتى يوهنها ثم يلتهمها .

في البدء يترصد الفريسة جيدا ، يضع ستراتيجية للايقاع بها ، من ثم ينقض . اذا فشلت خطته اثناء الطراد يغيرها بسرعة حسب ايقاع الضحية . ثمة ضحايا يفهمن الخطط ويتحسبن لها ويحفظنها ، الا انه وحسب خبرته ، يوحي للضحية ان خطته ستكون بهذا النحو مما يجعل كل احتياطاتها تتجه لمجابهة تلك الخطة في حين ينفذ هو خطة اخرى غير متوقعة فتسقط الضحية دون حول او طول واحيانا بسهولة . وهناك الرجل الضبع ، لم ارسمه هنا ، وهو تعب الروح ، بليد ، دنيء ، لكنه يشبع بطنه من المريضات والاموات اللواتي لا يحتجن الى ركض وتعب . وهناك الانسان الارنب ، والانسان الثعلب ، والجرذ ، والصرصار والعثة والديك والجمل والحوت الى آخر القائمة . ذلك ما اتخيله في هذا الجانب من الحياة .

إمرأة اخرى اطلعتهم على اوراقها ، التي حملت رسوما متشابهة . ابتسمت لها ياسمين وقالت انها فكرة طريفة . لكن ما الذي حملته تلك الاوراق؟ دمى وجوه لايمكن عدها . دمى لاتنتهي . وجوه بشرية متشابهة لكنها تختلف في بعض التفاصيل . شعر اصفر ، احمر ، اسود ، بني ، سبط ، مكعكل ، ملفلف ، مفروق ، مجعد ، طويل ، قصير ، محلوق ، والعيون لاحصر لاشكالها والوانها . الانوف مسطحة ومرتفعة وطويلة وقصيرة ومفروشة ومدببة وواسعة الفتحتين وضيقة الفتحتين ومائلة ومتدلية على الشفتين مثل خرطوم الفيل . الوجوه وجوه بشرية لكن التفاصيل تختلف . قالت : البشر دمى والارض مصنع دائم الانتاج . اننا دمى تخلقنا ارض ذات عقل غامض . هل عقل هذه الارض منها ام ينتمي الى مكان آخر؟ هذا هو السؤال .

الشمعة وسط الحلقة تميس ذبالتها يمينا وشمالا . ارتسمت في ذهنه اثناء التأمل جرة الفخار التي جلبتها زوجته من الحقول . تجلت له كما لو يراها امامه ، السنابل الخضراء المائلة الى الزرقة وهي لم تكتمل بعد . وردتا العليق الواسعتا الجرم ، بتلك الاهداب البنفسجية ، والاشواك الخضر المحيطة بها . ورود الجوري الفاقعة الحمرة ، وعقد الياسمين المتضوع بالرئحة . لقد وضعتها على طاولة الاكل في المطبخ ، واحس ما ان رآها وكأن الريف دخل الى بيته . ثم بدأت المزهرية الملونة الملفوفة بالعطر تتناءى ثم تتناءى الى ان غابت عن ذهنه . كل ذلك مترافقا مع موسيقى الغابة البطيئة ، الرتيبة المعبرة عن عمق الوجود ، جوهر الورقة الساقطة في الارض ، وروح العصفور الواقف على غصن الزيزفون ، وعمود الشمس المنساب خلل العتمة تحت غيطة التوت البري ، وذبذبة قدم انسان مر في الطريق الضيق تحت اغصان العفص .

الفصل الحادي عشر

اوقف مرام تحت رشاش الماء وقال لها : سأدخلك التجربة لكن من دون بحر . لن نشوي السمك هذه الليلة فقد اتخمنا من الاكل . لن احدثك عن ياسمين ، سندخل عالم الماء سوية ، بجسدين عاريين وروحين ظامئين للوصول الى معنى كل شيء . من طحلب الزير الى الق المجرة .

في حياته كلها ، كان الماء عنصرا منظفا ومطهرا . وهذا ما أكدته لهم ياسمين لاحقا . ففي كل مرة ينتهون فيها من الدروس او المساجات تنصحهم بأخذ حمام حال وصولهم الى بيوتهم . كانت تعتقد ان الماء يجدد الجسد . اما هو فكان في كل مرة يرتكب فيها موبقة من موبقاته يعود اليه . يجعله يدخل الى ثناياه ، ويلامس جلده ، شعره ، اسنانه ، اعضاءه التناسلية ، اصابعه وعينيه . يقف فيه ، اذا كان يسبح في نهر او بحر ، او يقف تحته في الحمام ، ويعده صديقا يقابله بمتعة . حين يتعرض الى موقف مزعج ، او يقابل شخصا غير مستساغ ، او يخوض حوارات بغيضة تستهلك طاقته النفسية والروحية والجسدية ، اول ما يقوم به هو الدخول الى الحمام . كل تلك الانفعالات غير المرغوبة يحسها مثل طبقة لزجة تغطي مسامات جسده ، يصبح ثقيلا ، وبطيء الحركة ، وما ان يزيل تلك الطبقة حتى يشعر وكأنه زهرة لوتس تحت رذاذ من المطر .

الخطايا التي يرتكبها تزول ، تنمحي من ذهنه ويحس كما لو انه طفل . لا يعرف ، رغم دراساته المتنوعة ، سر الماء هذا . هل يكمن الامر في انه العنصر الاول الذي تشترك فيه كافة المخلوقات؟ ام انه منح لهذه الكائنات الارضية من مصدر بعيد ، كوني ربما ، وهو الذي اوجد فيه خاصية التطهر؟ او في بعض الاحيان يظن ان كيفية تعامله مع الماء هي التي تخلق هذه الخاصية ، خاصية التطهير الروحي . فهو لا يعانق الماء المنساب على جسده الا بكامل الوعي والتركيز . يعانقه مثل حبيب . يضع كل حواسه فيه . يتلمسه بخلايا الجسد ، يشمه بأنفه ، يراه بعينيه . يبقي عينيه مفتوحتين لكي يراه ينساب فيهما ، ويسمعه حين يمر متراكضا على اعضائه . يضع ذهنه في ملمسه اثناء ركضه على ركبتيه وساعديه ورجليه وصدره وبطنه . تتصاعد في داخله مسرات عميقة ، ويتسع صدره ويشعر بالمياه تتغلغل في قلبه واحشائه الداخلية . بل ويمر بحالة من الوجد الصوفي ، فيطلق اصواتا شاكرة لهذه المتعة الفريدة التي يعيشها مع الماء .

يرى من خلال القطرات المتراكضة على رموش عينيه اطيافا ملونة والوانا قزحية عجيبة ، فتختفي عنه برهة اصوات العالم الخارجي والمشاكل اليومية ، الليل والنهار والبيت الساكن فيه . تختفي الاسماء من ذاكرته ، والمدن التي عاش فيها ، والمكان الذي ولد فيه ، هو وذكرياته ، ويحس نفسه فائق الاتساع . تصبح اللحظة خلودا ينتفي فيه عامل الزمن . وتلك الاحاسيس هي التي حاول ان ينقلها الى مرام . شعر انها مستمتعة لكنها لم تخبره عن عمق ما تحس به . كانت مثل طفل بين يديه . بجسدها الضئيل المنحني قليلا ، وشعرها الخشن ومؤخرتها الصغيرة وثدييها النافرين .

يمد اصابعه خلل الشعرويحمل الماء الى الجذور ، يتلمس الشعر شعرة شعرة ، يهدهد البصيلات ويمسد فروة الرأس بحنان ، ينزل الى الرقبة ويتلمس اعصابها ، يضغط ويشد ويفرك بمعونة قوة الماء وسحره . يطلب منها حصر ذهنها في المكان الذي يتلمسه من جسدها . يقول لها فكري بهذا الجريان الهائل فوق الخلايا ، امتصي طاقة الماء . عند الصدر يعمل سدا بكفيه ليحجز المياه بضع ثوان على

صدرها بارز الاضلاع . يرفع كفيه فتنحدر موجة كبيرة الى البطن والعانة ، لتنشطر الى شطرين كل شطر الى فخذ . يجعلها تنحني الى الامام ليسقط الماء على مفترق مؤخرتها ثم يتغلغل في الكهف المعتم جارفا في طريقه شهوة الجنس ، والخجل ، والكبت ، والمتعة ، والالم ، والتقلص ، والشد . لايبقى سوى تفاصيل الجسد الراضية بوجودها ، المستمتعة بهذا الالق المتجسد على شكل قطرات لاشكل لها . ومع الماء يدخل الضوء ، ليمنح الزوايا روح العري والتقبل والقناعة . كل ذلك تحت نور الوعي المسلط من مكان ما في جسدها الصغير .

ينشد لها بصوت رخيم : بلغ العلى بكماله/كشف الدجى بجماله/حسنت جميع خصاله/صلوا عليه وآله .

لقد خلقني وفي بحار ابديته أغرقني وفي بيداء ابديته حيرني ، تارة يطلع من مطاله ابديته فينعشني وتارة يدنيني من مواقف قربه فيؤنسني وتارة يحتجب بحجاب عزته فيوحشني وتارة يناجيني بمناجاة لطفه فيطربني وتارة يواصلني بكاسات حبه فيسكرني . ذبت من هيبته فرقا وتمزقت من محبته قلقا . فلما افقت من سكرة وجدي به قيل لي : ايها العاشق هذا جمال قد صناه ، وحسن قد حجبناه ، فلا ينظره الا حبيب قد اصطفيناه . . . .

بخار وماء وأضواء ، وكان على الجدار المواجه لعينيه عنكبوت يمشي ، متريثا ، يتفادى رذاذ الماء . ثمانية ارجل طويلة ، يتمسك بها في السطح الخشن ، تحمل جسدا ضئيلا اصغر من حبة حمص . يوجّه قبل ان يخطو لامسيه الاماميين الى كافة الاتجاهات ، وحين يتأكد من عدم وجود خطر ، يمشي بتمهل . جسده يصعد وينزل كما لو كان محمولا على ارجوحة . تقمص هذا الكائن الحي ، كي يعرف ماذا يفكر . لكن هل تفكر حقا هذه المخلوقات الصغيرة الجرم؟ هل تعرف شيئا عن وجود المحيطات والبحار والجزر البعيدة؟ هل تعرف شيئا عن بلدان الثلوج وسروها وسناجبها وآفاقها المخضرة الالقة؟ هل تملت يوما في الصحارى التي لاتحد او شاهدت ناطحات السحاب؟ لابد انها تتأمل بهذين الكائنين اللاهيين امامها ، المتحركين حركات غريبة راقصة . الروائح التي تصل هذا الكائن خليطة من زنخة

المازوت ، وعطن الملابس المكومة منتظرة الغسيل وعطر الصابون الفاغم . رائحة الطلاء والحديد والماء ، رائحة الجلد المعبرة عن الانفعالات والاهواء الداخلية . الكون خليط من الروائح والظلال والطعوم ، يتهجس كل ذلك من مكان ما في اعضائه المتحركة . كم تمنى ادراك ما يفكر فيه هذا الحيوان الصغير السائر الى الاختفاء خلف خزان الماء الملتهب .

يرفع زند مرام الى الاعلى واضعا اياها تحت رشاش الماء ، كي يسقط مباشرة على المنطقة تحت العضد . ينفلش الماء مثل مروحة على جانب القفص الصدري ويتغلغل في مهاوي الاضلاع ومرتفعاتها . كان خلال ذلك يفرك بأصابعه منطقة الاضلاع بخفة ، مثل من يحاول رسم لوحة فنية بالماء . تنقضي دقيقة ، يديرها على الجانب الآخر ويكرر العملية السابقة . كانت مستسلمة تحت يديه ، وعيناها مغلقتين تتأملان في صوته المترنم دون انقطاع : بلغ العلى بكماله .....بلغ العلى بكماله . . .

سألها : ماذا تحسين؟

قالت : انني في حلم .

قال لها : حدثيني .

قالت : ارى صورا تترى لبيوت . كل بيت يختلف عن الآخر .

قال : صفيها لي .

قالت : هناك قصر من طابقين ، هيئته تدل على انه من البيوت القديمة . الطابق الاول فيه ثلاث شبابيك من الخشب ، لهن اباجورات تنفتح الى الخارج ، وزجاج الشبابيك على شكل مربعات ، وتضيء تلك الشبابيك اشعة شمس مثل الذهب . باب المدخل مصمم مثل الشبابيك ، فوقه قوس جميل مليء بالنقوش ، كلها من الجص . الطابق الثاني مليء بشبابيك ، مغلقة معتمة ، واغرب ما يثيرني هو غيمة من الزرقة تتجه نحو القصر ، كأنها دخان حريق الا انها ليست بحريق . غيمة ساقطة من الافق ، تبدو السنتها مثل اصبع حيوان عملاق يوشك على هدم القصر . الطابق الثاني لا أرى سوى شبابيكه . لكنها مفتوحة ، احدها

اصفر والآخر رمادي ، والشباكان الخفيضان يبدوان اقل زينة من العلويين . وفي الجوار تبدو شرايين رمادية لشجرة يابسة ناتئة من جدار ابيض ، تمتد تلك الشرايين الى الامام دون توقف ، مما يدخل الرعب في داخلي . يظهر لي بيت يلتهمه الحريق . اجمل بيت رأيته في حياتي . واجهة من تخاريم ونقوش على شكل دوائر واقواس ونجوم ، بيض ورمادية وحمر ، فوقها افريز طويل ، فوقه نافذتان مسدلتا الستارتين وعلى كل جانب من النافذة رسوم لملوك واباطرة بالبسة فخمة وطيلسانات وأعمة وصولجانات . فوق الشباكين جائز مزخرف بالورود الحجرية وفوق الجائز قوسان احدهما كبير والآخر صغير ، في كل قوس دلايات مقوسة من الحجر وفوق كل ذلك تلك النار الهائلة التي تشتعل بالخشب والحديد والطابوق والزخارف والقرميد .

لم تلتهم النار كل ذلك الجمال ؟

ارى فراشة كبيرة الحجم . جناحاها يشبهان مروحة صينية ، مزركشان بالورود المتفتحة ذوات التويجات الواسعة ، ويحيط بالجناحين دانتيلا مخرمة سوداء . فم الفراشة وردة مذهبة واسعة تتعلق بها اجراس صغيرة مذهبة . ذيل الفراشة يحمل نفس الوردة ذات التويجات الستة ويتدلى منها ذات الاجراس والسناسل . للفراشة الطائرة رنين وازيز ، تطير مرحة فوق الزخارف والمنمنمات والاقواس والدوائر والسنة النار . هذا ما اشاهده تحت سيلان الماء على صدري . . . . . .ماذا يعني كل ذلك؟

- بدأت تتوغلين في مرحلة التخييل .
- كيف؟
- اصبحت قادرة على صنع عالم آخر .
- كنت امتلك هذه القدرة من قبل . الست رسامة؟
- الا انك لم تعرفي تسخيرها لبلوغ الهدف .

***

كانت الفراشة الكبيرة ملصقة على الجدار ، فوق الخزانة تماما . فراشة توشك ان تطير ، بل هي طائرة ، رغم انها ملصقة في الجدار ، تهز اجراس ذيلها ولوامسها كما لو كانت في مهرجان . فراشة عملاقة لاتنقصها سوى الروح ، كي تدب طائرة في غرفته الواسعة .

وضع شريطا في مسجلته وبدأ صوت المنشد المعلم ، يتعالى الى الاسماع . صوت متحدر من غابات الروح وتلافيف الذاكرة البعيدة . يصعد احيانا من الارض ليكشف عن اصل الانسان المخلوق من تراب وماء وامشاج ومادة ثقيلة . واحيانا يسقط من الاعلى ، من المجرات البعيدة وغوامض الكون ، والالوان المشعة لاختلاط النجوم ودورة الافلاك وسريان الانوار في هذا الوجود المظلم . السنتور ، والعود ، والبزق ، الكورال المتناغم مع صوت المغني الرخيم . تمتلئ اعطافه بحالات الوجد والسمو ، ويمجد في دخيلته كل ما حوله . هذه البنت المبتلة بالماء ، العقد المرجاني المعلق على العمود ، الفراشة المصنوعة من قماش ودانتيلا سوداء واقراط ذات اجراس ، وصورة المسيح المحاطة بالالم والطمأنينة وهو ينظر الى الارض ، والازهار البلاستيكية التي تزين بابي الخزانة وسنابل القمح الموضوعة في الاناء الخزفي . يسدي الشكر والامتنان لياسمين التي علمته الحب والحكمة ، فالوجود قائم على هذين القاموسين الممتلئين بالصفات ، الواسعين سعة الحياة التي ينبغي عيشها .

– اين تعرفت على ياسمين؟

سألته مرام وهما مضطجعان على الفراش ، بعد ان قربها منه .

– لم اعد اتذكر .احيانا اظن انه كان في الحلم . واحيانا اؤمن انني التقيتها حقيقة .

– الا تتذكر وجهها وجسدها؟

– امرأة ناعمة ، صغيرة الجرم ، شعرها يميل الى الشقرة ، وعيناها زرقاوان واسعتان .

– هل تشبهني؟

- نعم ، لكن ليس في الشكل . لقد بغت وفسدت واخطأت ، ثم استيقظت ذات يوم ، وقررت تغيير نهج حياتها . عرفت ، وربما علمها شخص ما ، ان التغيير لابد ان يبدأ من الداخل .

- كيف التقيت بها؟

- رحلت مع ذلك الحكيم في الطائرة . قال لي : عليك ان تجد حلا لجسدك من خلال روحك . نزلت في مدينة بعيدة باردة ، ثلجية الهواء ، للبشر فيها سمات ساكنة ، وكان علي ان اشتغل كي اعيش . وجدت عملا في مسرح للأطفال . كنا اكثر من خمسة اشخاص ، نمثل ونصنع الديكور ونكتب نصوص المسرحيات ، وهي مشاهد ساذجة ، مليئة بالمهرجين والاشجار الناطقة والحيوانات الناطة ذات الذيول والاجنحة . مدير المسرح كان يمتلك حماسا فائقا للعمل . كل صباح يحاول ان يعلمنا التمثيل . ويقول ان التمثيل يبدأ بالجسد . اذا لم يكن الممثل يمتلك جسدا مطواعا فمن المستحيل عليه تقمص الدور .كل صباح نجلس في صالة المسرح الكبيرة وهي تقع في حي سكني ، وكان زبائننا الاطفال من ذلك الحي ومدارسه . نجلس عشر دقائق على الارض نتأمل . فالتركيز كما قال المدير ضروري ايضا للممثل . بعد التأمل نبدأ تمارين رياضية لتحريك الجسد . تتواصل التمارين اكثر من ساعة . نقف مثلا على قدم واحدة ، دقائق ، محافظين على توازن الجسد . نرتكز على الابهام الكبير في القدم او ندوّر ايادينا دورانا حرا للحظات ، او ننحني كي نضع ايادينا على الارض ونبقى هكذا . كان كل عضو من اعضاء الجسد يحس بوجوده .

بعد ايام من التمارين ، بدأت احس ان روحا جديدة تدب في داخلي . جسدي يمتلئ بحيوية فائقة مصاحبة بفرح سري كان يستقر في صدري . بدأت انظر الى جسدي باحترام وحب . تلك هي البداية . صرت احس بالعلاقة السرية بين الروح والجسد . اخبرت مدير المسرح بهذه التحولات التي كنت امر بها ، فنصحني بالذهاب الى مركز القلب المغني . قال ستجد هناك ياسمين ، تكلم معها وهي ترشدك على الطريق . اعطاني رقم الهاتف ، ولازلت اذكر الابتسامة

الودودة التي منحني اياها . ابتسامة هي بين الشفقة والود والرثاء لسذاجتي ، وكأنه كان يعرف العالم الشاسع الذي سيتحتم عليّ دخوله ، دخوله من دون خروج . الداخل الى ذلك العالم لايمكنه التراجع مرة اخرى ، مهما كانت الظروف .

- اين كنت تسكن؟

- كنت متزوجا . كنت اعيش فترة من الاستقرار في تلك المدينة الباردة .

اخذ النعاس يدب في جسده . اطفأ الضوء ، وتمدد جنبها . راح يستمع الى صوت المنشد وحيدا في هذا الليل . يتلوى مع طبقاته ، يعيش خيباته ، ينفرد بتجلياته فتأخذه الى الاعلى ، الى السماوات المنبثة فيها نجوم بعيدة وانوار هائمة على هواها . يسكن في القرار ، ويرفعه صوت الطبل الى الهواء ، يرتجف ويترجرج ويتماوج ، خفوتا وقوة ، صعودا ونزولا . ثم يسترسل مع موسيقى الناي ، يصبح نغمة مديدة اثيرية فينمحي من عالم المادة الثقيلة ويتحول الى حلم غامض في رأس عنكبوت يدب في الظلام .....

الفصل الثاني عشر

هدوء عميق يمورفي داخله ، لامس ما اخفى وما اعلن ، ما فكر فيه وما عاشه ، ما دفعه في قعر روحه وما طفا على السطح . كانت روحه هادئة والمحيط حوله هادئ ايضا ، يعيش انسجامه الخلاق . رافقته تلك المشاعر حين ركب القطار المتجه الى بيته . جلس جنب النافذة وكانت الشمس على وشك المغيب . لقد اختلف العالم تحت بصره تماما . بدا زاهيا ، قدسيا ، منسجما ،يسري الحب فيه وتتآلف عناصره وتندمج في كل واحد . الاشجار ، الناس ، البيوت ، الافق ، كل ذلك اضاءته شمس خافية في مكان ما من السماء . اصبحت العمارات عناقيد عنب ناضجة ، والكلاب زهور ماشية في الطرقات ، والاشجار بشر زرعت جذورهم في متاهة الارض . شعر ان القطار يسير في نفق شفاف من هواء ثقيل ، او مادة روحية لاترى ، في سفر طويل لاينتهي . كل شيء يراه حلما لاغير . مادة متجسدة باشكال لكنها في طريقها الى الزوال . القباب الفخمة والواجهات المصممة بزخرف جميل والحدائق الغناء والطرقات الحاشدة بالسيارات والمشاة ، اطياف تجسدت امامه لكي تجلب لروحه المسرة .

على الجانبين اشجار التوت البري والعفص والورود المجنونة وزهرات الصبار المحلقة في فضاء العيون . القطار سائر ، يتوقف بين فترة واخرى في المحطات ،

يصعد بشر وينزل بشر ، وهو جالس في مقامه ، متأملا حياته التي لاتنتهي قصصها . يتأمل بما سيفعلونه الليلة . قالت ياسمين سنجلس في الساعة التاسعة مساء ، كل في بيته . نفكر في شيء واحد ، هو القسوة . كيف يعيش كل واحد منكم القسوة في حياته او كيف عاشها . ستتوجه سبعة رؤوس الى الفضاء متأملة في هذه الكلمة التي اصبحت انجيل عصرنا . كيف نعيشها وكيف نجسدها ثم كيف نتخلص منها ، كي نعود الى اصولنا المصنوعة من جواهر شفيفة .

تأمل في الانسان فوجده غامضا . وتأمل في حياته الماضية مفتشا عن القسوة فوجدها امامه . فكر من اين يبدأ؟ وحياته لم يكن فيها اي ذبالة من حب؟ الا يستطيع رواية مجلدات ، كلها عن الوقائع القاسية والمؤلمة التي جرت له؟ كان صبيا ، ولا يتذكر اكان صباه في مدينة ام قرية ، لان بعض المشاهد كانت تأتي الى ذهنه مع دلائل تقول انه في قرية او العكس . ثمة بيت كبير ، كبير لأن عدد غرفه تربو على الستة ، وفي وسط البيت ساحة واسعة . اخوة واخوات واب وام وعمة وعم مع اطفالهما ، اما جده فكان شيخا بلغ المئة من العمر ولا زال متصدرا غرفة الضيوف . في غرفة جعلوها مخزنا للقمح والتمر والسمن كان يمارس هوايته ، التي يشاركه فيها جده . جده لانه يحب اكل العصافير المشوية . كان يوقظه صباحا ويقول ، لقد آن صيد العصافير . يلتهم فطوره ويشرب الشاي ثم يجلب الطشت الكبير . البيت يكون هادئا في تلك اللحظة ، امه واخوته وخالته مضوا الى اشغالهم وكانت اخته الصغيرة تغسل الملابس خارج البيت . يجلب السفيفة ، وهي من الصوف تنتهي بجازل خشبي مثلث تستخدمه امه في ربط برميل المياه الى ظهرها حين تجلب الماء من الساقية ، ويقلب الطشت على فمه ثم يضع الجازل واقفا تحت حافة الطشت . يرتفع الطشت ارتفاعا قلقا بحيث ان اي حركة من السفيفة تسقط الجازل فيسقط الطشت على فمه .

يتأكد من ثبات الطشت ويمضي الى الكيس فيجلب حفنة من القمح يذرها تحت الطشت ويترك القليل امام باب تلك الغرفة . ينجز المهمة ويقف متطلعا في اسراب العصافير الواقفة على حاجز السطح تنظره بعيونها الصغيرة وكأنها تتساءل

مع نفسها عما يفعله هذا الانسان هناك . يدخل الغرفة ويختبئ وراء الباب . يحس بالعصافير وقد بدأت تنزل فرادى الى الحوش ، تلتقط الحبوب من امام العتبة . وهو يختبئ خلف باب الخشب ، يكاد لا يتنفس خوف ان تسمعه العصافير ، الا انه يسمع تقدمها البسيط ووصوصاتها وهي تقدم وتحجم نحو الحبوب تحت الطشت . حتى اذا اطمأنت ان كل شيء على مايرام تكدست في الغرفة وهجمت على القمح تحت الطشت . انها اللحظة الملائمة ، يسحب السفيفة الصوف ثم يسقط الطشت على مجموعة العصافير . تلك الضجة تستجلب انتباه جده . يأتي من غرفة الضيوف ومشربه في فمه ثم يقول ضاحكا : هل صدت شيئا؟

يجلس جده قربه ، جانب الطشت ، يتحسس الظهر الحديدي الاملس ، وكأنه يستطعم الوجبة الشهية الراقدة تحته . يمدان ايديهما ليختلسا العصافير حية ، واحدا واحدا . تكون مهمته ، حينئذ ، الوقوف خارج الباب كي يفصل رأس العصفور عن جسده بيديه . ولا تمضي سوى دقائق يكون فصل عشرات الرؤوس عن اجسادها . يسيل الدم على الارض ، يتشربه الثيل والعشب ويمتصه الذباب الذي سرعان ما يتجمع على الوليمة .

يستطيع ان يرى الآن وجه جده الضاحك منتظرا العصافير المشوية المملحة التي يلتهمها دون خبز . يلتهمها ثم يحمد الله ويعمّر مشربه الخشب بسيكارة جديدة ويستلقي في المضافة ناظرا من النافذة الى اشجار النخيل في الغابة الواقعة خلف البيت . تلك كانت عينة من مشهد حياته التي مارس فيها القسوة .

***

يغمض عينيه على هدهدة القطار ليجد عينة اخرى . وجد الامر سهلا ، فثمة تراكمات من تلك المشاهد . بل يجزم ان حياته الماضية لم تكن الا سجلا لاينقطع من الدماء والذبح والقتل والفظاظات . لماذا قام بها وكيف ؟ ومن دفعه

الى ذلك؟ اسئلة لم تعد تهمه . مايهم ان يميز ظلال القسوة وبؤرها الداكنة التي طبعت روحه بألوانها . يفكر بتلك الكلبة المسكينة ، التي دفنت في الطين . ايقاع القطار وظلال الاشجار المارقة الى الوراء تهدهد افكاره وتسرقها الى ذلك الماضي البعيد . الماضي الذي صنعه جسدا وروحا ، وانشأ في داخله هذه الجذوة الفائرة للتشكل الدائم .

كان مشهدا ، ناتئا في روحه ، كلما تذكره شعر بالرعب .

قالت نساء القرية : الكلبة تهاجم قدور الحليب في مطابخ البيوت . تسرق الخبز ليلا والناس نيام . تتشمم اي فرصة لتلتهم الطعام ، واحيانا تدغرالاطفال الصغار محاولة عضهم . كانت مخلوقا يراها المرء في كل مكان من القرية . في الصيف تحفر لنفسها حفرة صغيرة تحت اشجار الخروع الظليلة او في ساقية مهملة او تختبئ في مخازن التبن بعد التهام بيوض الدجاج ، ثم النوم بدعة مثل طفل . النساء دأبن على غسل الصحون والقدور والملاعق التي تترك خارج الغرف خوف لعاب الكلبة التي تركته خلفها . كل طرقعة توحي بها ، وكل خشخشة تدل على حضورها .

حدثت المطاردة عند الظهيرة . رطوبة البساتين عالقة في الهواء ، والشمس تسقط عموديا على النخيل والبرسيم واشجار التين المتدلية اغصانها نحو الارض . كان الذباب يطن فوق السواقي وعلى الاوساخ القريبة من مطابخ البيوت . سمعوا صوت امونة وهي تصيح : اقتلوا هذه الكلبة ، خلصونا منها يا اولاد ، لقد التهمت فرخا من فراخي . كانت الخالة امونة تولول وتشير الى الكلبة التي اتجهت الى غابة النخيل . كان الصبية في حقل البرسيم خلف بيت الخالة امونة ، لاهين باصطياد الفراش الابيض ، الذي يسمونه الحمام ، ويتبارون فيمن يستطيع قتل اكبر عدد منه . مستخدمين لذلك اغصان السعف التي قطعوها من النخيل استعدادا لهذه المباراة . سمعوا الولولة فقرروا ، هو واخوته وابناء اخواله ، ملاحقة الكلبة وقتلها .

ركب ابن خالته رزاق حماره الرمادي بعد ان امسك بيده عصا مجربة في

الضرب . امسك هو سعفة يابسة تنتهي بكربة قاسية ، وكذلك فعل اخوانه وابناء اخواله . كل واحد تسلح بعصا وركضوا نحو النخيل . وجدوا الكلبة ترقد في ظل نخلة كثة السعف ، لسانها الوردى مدلى من الحر وهي تلهث بسرعة وتنظر اليهم . هجست انهم يقصدونها ، فقامت من مكانها وركضت نحو الحقول . والحقول كانت محصودة للتو من القمح . منظر البيادر وهي تتوزع في الحقول الصفراء اشبه بتلال صغيرة ، على مد البصر . اندفعت الكلبة المبقعة بالسواد في تلك الحقول واندفعوا خلفها . رزاق على حماره الرمادي يسبقهم دائما . وهو كان حافيا الا ان ذلك لم يعقه في الاندفاع وراء الكلبة . تغور في سواقي الماء فيغورون خلفها ، تختبئ في غيضة من الحلفاء فيتسللون بين الاوراق الجارحة والجذور ليجدوها لابدة في مغارة او منخفض فينهالون عليها بالعصي . يرتفع عواؤها الى السماء لكن لا احد يسمع فالحقول فارغة من البشر عدا الرعاة القليلين النائمين قرب نعاجهم . ثم تنطلق من حلاوة الروح واثبة الى ارض السنابل الصفراء مرة اخرى ويتجمعون في ثلة هائجة منطلقين خلفها .

كان رزاق لايني يقول : لقد داخت ، ضربتها على رأسها ، ماهي الا دقائق حتى نقتلها . لا تتوقفوا . لم يتعب رزاق مثلهم اذ كان راكبا ولا يبذل اي جهد . اما هم فقد بللهم العرق واصبح لهاثهم عاليا . شهوة القتل في دمائهم وروح الانتقام من تلك الحيوانة التي روعت نساء القرية تفور بين صدورهم . رغبوا باكتساب سمة البطولة في نظر النساء . مضوا راكضين خلف الكلبة رغم الشمس الحارقة ، ووجع الاشواك التي اصابت اقدامهم . احست بالعطش فاتجهت الى النهر . والنهر يلتمع ماؤه اخضر صافيا تحت اشعة الشمس . خلّفوا وراءهم اشجار التوت القريبة من حقل محمود ، وغابة الطرفاء وشجيرات العاقول اليابسة ، وبدأت الرمال تكثر تحت اقدامهم ثم خفت كثافة اعقاب السنابل .

اصوات مضخات الماء كانت تطن في الآذان ، تبعث دخانها الكحلي في الهواء . لسع الرمال الحارة في اقدامهم ، ورائحة الضفاف الموحلة راحت تهب في خياشيمهم ولا يدري لماذا توجهت الكلبة نحو الشاطئ مباشرة . ربما ظنت انهم

لن يلحقوها . او ربما فكرت انها ستعبر النهر الى الجانب الثاني لتتخلص من عصيهم واصواتهم الحاملة للموت . وربما هو العطش . حاصروها على الشاطئ الموحل فاضطرت الى الاقتراب اكثر من الماء . نزل رزاق من ظهر حماره وتقدمهم حاملا عصاه الغليظة من خشب الصفصاف . كان يرغب بنيل البطولة في قتل الكلبة . ستتحدث النساء عن ذلك في مجالسهن الليلية وفي اوقات الحشيش واثناء ملء براميل المياه من السواقي . وربما تحلم بشجاعته بضع فتيات من القرية .

دخلت الكلبة في الطين ، وتقدموا نحوها حذرين ، فهي يمكن ان تهاجمهم . اليائس يمتلك قدرة هائلة على الاعتداء . اقترب هو منها وضربها ضربة خائبة ، جاءت في الارض فتطرطش الوحل الى وجهه ودشداشته . تقدمت ببطء الى الماء . كانت اقدامها تغوص في الطين الحرّي . ذيلها يرسم شبكة من الخطوط على سطح الطين . خاض رزاق خلفها . وجّه لها ضربة هائلة من عصاه ، لم يسمعوا بعدها الا صوت عوائها المرعب . جاء طويلا حادا ، بينما نظرات عينيها الملوثتين بالوحل تحدق اليهم باستسلام ، كما لو كانت تقول لهم اغفروا لي هذه المرة فقط . لن اسرق البيض ، لن اشرب الحليب ، لن التهم الخبز . سأموت جوعا ، لكن اغفروا لي هذه المرة . كيف لهم ان يفقهوا لغة الكلاب؟ لذلك لم يغفروا لها ولم يرحموها .

ضربها هو على ظهرها فغاص جسدها اكثر في الطين . كانت الضربة الاخيرة من سالم ، ابن خالته الآخر ، وهو صبي اهبل لكن جسده متين مثل بغل . دفنت تلك الضربة جسد الكلبة في الطين تماما ، والى الابد .

بدأت الكتل الطينية تنساب الى موضع الجسد ، تتمازج ، ثم تستوي ليدخل الماء الضحل الى المكان . وقفوا فرحين يشاهدون اختفاء ذلك الجسد الصغير ذي اللونين الابيض والاسود في امه الارض . رطبا متألما عاويا حيث لا احد يسمع . وكان النهر ينساب نحو الجنوب محملا بالعروق والقش والرمال .

قال سالم ساخرا : الا نقرأ الفاتحة؟

لا احد اعار قوله اي اهتمام . ركب رزاق حماره وهمزه راكضا ليزف الخبر الى نساء القرية . كان يلوّح بعصاه لاشجار التوت والطرفاء واعقاب القمح وخيم الرعاة الصغيرة المنصوبة في الظلال . نظروا اليه نظرة حسد فسيكون الأول الذي سيزف البشارة . لحقوه راكضين كي لايفوتهم مشهد التعابير التي سترتسم على وجوه النساء . . . . . كان القطار يغذ السير بين المدن الصغيرة ، وكان في عالم آخر . يشم رائحة الطين ويسمع طنين الذباب ويرى صفرة الحقول الفاقعة كأنها ذهب سائل . وكان ايضا ، لا يزال يسمع صوت تلك الكلبة ، عاويا في اذنيه ، رغم انقضاء عشرات السنين على تلك الحادثة .

مع نفسه كان يطلب منها المغفرة ، ويتأمل في قول ياسمين من اننا يجب ان نرى القسوة في دواخلنا ، الا انه فكر ان ثمة اخطاء اكبر من المغفرة . اخطاء يجب ان تكون مفاصل للانسان في تغيير سيره في هذه الحياة .

الفصل الثالث عشر

جاءه صوت ياسمين من اعماق نائية : الافتتاح بالرقبة ، تمسيد القدمين ، الانقلاب على البطن ولمس النقطتين فوق الالية ، جانب العمود الفقري اسفل . تمسيد الارداف عميقا ، تقليص وسط الارداف فيما يستمر تمسيد الردفين . العمل عميقا بعظام القص . الخواصر . مساج العمود الفقري فيما النائم يقلص الظهر ويبسطه . مؤخرة الافخاذ . عضلات تحت الركبة . ضغط الاقدام على المؤخرة . وضع اليدين على الاطراف لفترة قصيرة . يجلس النائم ويتم تمسيد الظهر . دع النائم يرتاح على جسدك واظهر له المساندة . يضطجع النائم على ظهره ويمسد الصدر نحو القلب ، ثم توضع اليد فوق القلب لحظات . ينقلب النائم على بطنه مرة اخرى وتمسح الارداف والعمود الفقري والاطراف . ثم مساج الوجه من فم وعينين وحنكين . ضع يدا على القلب وتصور الحب والاكتفاء لغريمك . الأنسان الكامل غير موجود ، هذا يعاني من تشنج في ساقه وذاك يمتلك عمودا فقريا به شيء من الألتواء . تلك عرجاء والأخرى ذات حوض كبير لايتسق مع أعضائها . اما على الصعيد النفسي فليس هناك من لايعاني نقصا في تكوينه الروحي . الأنسان الخالي من عيوب الجسد والروح غير موجود ، لكن القضية تكمن في وعي الفرد لعيوبه الذاتية . الوعي قائد اوركسترا الروح والجسد ، ونحن لسنا

ملائكة ، فتذكروا هذا الأمر جيدا . . . . . .

كشف ضوء الشباك تلك المزهرية الموضوعة على الطاولة . ست زهرات تتدلى من عنقها الطويل . على فخار المزهرية نقوش من الارابسك ، ذات لون ابيض . بتلات ثلاث منتشرات ، اسقطتهن ريح مجهولة المصدر ، لايحط على المزهرية طير ولا يفوح منها اريج . خلف الطاولة عتمة خفيفة وشباك غير ظاهر ، لاترى منه سوى الستائر البيض الحلمية المنظر ، وارجل الطاولة اقواس تنتهي بتكويرات لطيفة . انها غرفته التي شهدت نمو الكتاب . فصوله فصول هذا الجسد ، الذي تسجل عليه الافكار والاحلام والانفعالات والخيانات والمحاسن والادوار التي خلق من اجلها كل فرد . ظل ينمو فصلا بعد فصل ، طوال الليالي التي جلسها في هذه الغرفة ليصنع حروفه وكلماته المعجونة بالتأملات .

يملك جسدا لكنه ليس ذلك الجسد . يملك المشاعر لكنه ليس تلك المشاعر . يملك افكارا لكنه ليس افكاره . كينونته في اطار آخر . انه مركز للوعي الصافي وللحب والارادة .

تلك كانت كلماتها تتلألا في السماء التي يراها من الشباك صافية ومليئة بالنجوم .

الشجرة امام الشباك ، اوراقها تعكس اضواء الحارة وتميس في هواء خفيف . كم من الايام عاشها وهو يعاقر هذه الشجرة ، التي عدها صديقته الدائمة التي ساعدته كثيرا ، منجم الحياة الذي لاينضب . كان يتأملها في الصباحات وهي تنبثق من الارض نضرة مكتنزة بالخضرة ، فيتوحد مع الاوراق والاغصان ويتخيل روحه نسغا صاعدا او نازلا . يرى اليها في الظهيرة حين يعود من المدينة متعبا ، خائفا ، متسائلا كيف يبدأ خطوته مرة ثانية في هذه الحياة بعد ان غاص مع كتاب ياسمين حتى ادق التفاصيل؟ يشاهدها مسترخية صامتة ، العصافير الضاجة بين احضانها لا تعني لها شيئا ، والذباب الطائر في الاشعة الذهبية يسرح في رأسها على هواه .

كان الاطفال يلعبون تحتها مرسلين ضجيجا لايحتمل وهي في كل ذلك

صانتة سعيدة مستقرة على هذه الارض ، تساوت لديها الفصول وماعادت التحولات تعنيها . ارتسم على اوراقها خيالات لاتعد من اطياف الماضي . رأت آلاف الوجوه التي عرفها ذات يوم وهي تنبثق من رأسه المطل من الشباك ، كي تتجسد في الفضاء المحصور بينه وبينها . رأت جبالا قطعها وبيوتا سكنها وبحارا سبح في مياهها واستلقى على شواطئها الرملية . كان رأسه مصنعا للافكار والخيالات والاوهام ، وتلك الشجرة هي الوحيدة التي تعرف سره على حقيقته . شاهدت الضوء ينطفئ في شباكه بعد شلح الملابس وغسل القدمين وتدخين سيجارة ، وشاهدت حركته الدائبة صباحا وهو يفيق من النوم . رأته يعد وجبته في المطبخ ، ويتناول الشاي على طاولته ، يتحمم ويرش العطر على جسده . يرجل شعره ويحدق في هيئته في المرآة . وهي دائما هناك . يقف على غصنها عصفور رمادي . يطير فوق تاجها حمام . يداعبها الهواء العاصف بقسوة . كانت هناك دائما ، بوقفتها الثابتة بين بيوت الحارة . انها شجرة الحياة المتغيرة بين فصل وآخر . في الصيف خضرة وفي الخريف ذهب وفي الشتاء قهوة وفي الربيع أنساغ تجري كأنها احصنة .

حدق في الجدار المقابل ، وفتش عن البنت الملونة الوجه فلم يجدها . ركز بصره حيث ينتصب الرجل ، بوجهه المتعب ، ولحيته الخفيفة التي تفاقم تعابير الالم في داخله . قالت له اول امرأة زارته في بيته ، انك بحاجة الى ايقونة لتحرسك . وجلبت له تلك الصورة في زيارتها الثانية وعلقتها على الجدار . في البداية لم يكن يستسيغ النظر الى الرجل حامل تلك الجراح وفي وجهه كل الآلام التي عرفتها البشرية منذ ان دب الانسان على هذه الارض . لكن شيئا فشيئا بدأت صورته تدخل تفاصيل حياته اليومية في هذه المدينة . هو الآخر شاهده وهو يعود سكران في اواخر الليالي ، ليلتف بغطائه وينام دون حلم . وشاهده ايضا وهو يضاجع النساء ويَمحى في لجة اللذة الخالدة . دموعه وكانت كثيرا ما يسحها حين يشعر بالعزلة ويتذكر الزوجة والابناء والاخوة والاخوات والاصدقاء الذين فقدهم في كل مراحل حياته . كانت دموعه ايضا ، يشاركه بها

دون تذمر .

ينظر اليه الآن وعلى رأسه لمايزل ذلك التاج المصنوع من شوك ، فيضع نفسه في مكانه . جسده عار ، نظراته تتجه الى الارض ، يطلب منها عونا غامضا . يداه لاتبرزان ، جروحه خافية ، والشوك على الرأس . هو والالم معجونان سوية ، في خلاياه رحمة على بني البشر ، الذين نسوا اسماءهم ومن اين أتوا الى هذه الارض . نعم كل انسان خلق ليؤدي دورا في هذه الحياة ، ومن الصعب زحزحته عن هذا الدور . هناك بشر منذورون للالم ، وهناك بشر منذورون للمغامرة وابتداع شيء جديد ، وآخرون مهمتهم عيش الحياة كما هي رغم انهم يتعذبون ويتذمرون لكنهم لايغيرون حياتهم ، ولا يحاولون . هناك بشر هم ضوء ينير العتمات ، اينما وجدوا ، مهمتهم الوحيدة هي الانارة .

على العمود مايزال عقد المرجان معلقا كما السابق . بحباته غير المنتظمة والوانه الزهرية والبيضاء والسوداء . بخطوطه وبقعه وتخاريمه ، وثمنمه الصغير الذي يفصل بين حبة واخرى . لقد سافر معه بين المدن ، وعاش برودة الشتاءات المارة على حياته ، وحرارة الاصياف المتباينة الشدة تبعا للمكان الذي حل به . قرأ بحباته حظوظ عدد لايحصى من الناس ، حتى اصبح مخزنا لعشرات القصص والخيالات والتوهمات التي كان رأسه يكتظ بها . زوج وطلق بحباته ، استمطر الثراء وكشف اسرار القلوب . فتح باب الجنان الى اشخاص ظامئين لمعرفة مصائرهم . اقتطع مرجانه من بحيرة تقع بين الجبال ، مات فيها اعز صديق عرفه في حياته هو سعيد . مات من تشنج اصاب فخذه وهو يسبح في البحيرة كما قيل له فيما بعد . ذلك العقد ابصره يشع امامه في عتمة هذه الليلة ، وهو ما ادخل الطمأنينة الى روحه وجعله يقنع بأنه حي ارزق . لازال يمتلك حواسه اجمع ، كما اي انسان طبيعي آخر في هذا الوجود . تشنج رجله لم يزره منذ وقت طويل ، لكنه حين يجس ربلة الساق يحس ببقايا من الالم الدفين ، فعرف انه وجد الطريق الصحيح ليكون طبيب نفسه . كان القلب المغني هو البداية . وان ذلك الطريق مازال امامه ، عليه ان يمشي فيه ، بعد هذه التحولات العميقة التي عاشها

ولا زال يعيشها .

يسمع صوتا متواصلا ، ماء يسيل امام بيت من بيوت الجيران ، اصطفاق اجنحة لكائنات ليلية . يدير بصره فيما حوله وهو ما يقوم به دائما ، يتفقد موجودات الغرفة وهدايا الاصدقاء والصديقات . كل شيء يمثل له قصة من القصص جرت معه في هذه المدينة . الاشياء لها قصصها ومعانيها ورموزها ايضا ، ذلك الكأس الكبير المصنوع من الفخار جلبه صديق له من مصنع فخار باحدى القرى ، وقد ملأته مرام بازهار الجوري والياسمين والريحان والعليق المزهر ، وهاهو امامه ذابلا كأن مئات السنين مرت عليه . تواجهه سلة الفاكهة ، وذلك العنقود الوردي الذي اكل نصفه قبل ان يستلقي في السرير . زينة السلة سنبلتان صفراوان شعيراتهما متناسقة ، احداهما تتجه الى وجهه والاخرى نحو ارجل الطاولة . هناك المسبحة الطويلة المعلقة في مسمار ، ظلها مفصص لكنه دون لون . لون حباتها اشبه بالكهرمان ، لكنها ليست كهرمانا .

ينير الضوء فيعم الغرفة ، ينعكس على الرسومات والاشكال فيخلق فيها حركة حية . العيون تطرف والحمام يرف بجناحيه والازهار في الحدائق تتهادى في نسيم غير مرئي . شعر كما لو بدأ يلفه ضباب خفيف ، ومن بعيد رأى بابا يشع بالنور ، ينتهي به شارع ما . ارضية الشارع مزخرفة بالازهار والمربعات كلها صفراء ، وعلى الجانبين مظلات دكاكين وأضوية متدلية ودوائر حديدية تزين واجهات وسقوفا ، وثمة رجل يسير نحو ذلك الضوء ، وحيدا ، لايرى منه الا ظهره . عم يبحث ، والى اين يمضي ، وهل ان السوق سوق بضاعة ام سوق وراقين ام نقاشين؟ كان يشبهه ، انحناءة الكتفين والرقبة الطويلة وهالة الاحلام الراقصة حول رأسه . لم يدم المشهد سوى ثانية ثم غاب ، وتركه في حيرة .

بدأ ومنذ فترة طويلة لا يميز بين الوقائع والتخيلات ، فالاسلوب الذي هدته اليه ياسمين ، اسلوب التأمل والتخييل ، جعله في كثير من الاحيان يخلق حوادث ومواقف يعيشها في الخيال ، يعيشها بعمق رغم انها غير موجودة . انها تقنية التخييل ، الذي فتح له مستوى آخر من الحياة يعود اليه كلما احس بجفاف

واقعه المعيش او واجه صعوبة في حياته . احيانا يظن ان كل ما جربه مجرد وهم ، تخييل لذهن نشط في رسم الاشياء وصياغة الحوارات وارتشاف اللذائذ . ربما كان سعيد وهما ومرام وهما وذلك الحكيم الذي التقاه في الطائرة بل وحتى ياسمين . كل ذلك جائز . وربما لم يوجد هو قط . ربما هو ميت . ربما يعيش في زمن آخر وما الآن سوى حلم من احلام ذلك الشخص ، وربما كل مايجري ان هو الا حلم في رأس عنكبوت .

تلك هي المرآة الطويلة المحاطة باطارات حديدية مذهبة ، والغصنان المزهران يلتفان على مقبضي البابين ، ورد احمر وورد بنفسجي . . . .وتلك رسمة الغجر التي حصل عليها من سوق الجمعة ، مثبتة جنب الخزانة : امرأة تعزف على الناي تحت دالية مزهرة ، ينام على فخذها شاب ملتح ، وسط حقول مليئة بالشقائق ، الوانها حمر وصفر ، وفي البعيد تلال مغطاة بالعشب يعقبها امتداد لسماء فسيحة . عقد المرجان يرقد بسلام ، وقد بدا مثل عقد من ازهار النرجس المرقشة بالنحل . وفي زاوية الغرفة القصية نسجت عنكبوت بيتا جديدا ، سيزيله اليوم . استولت العناكب على المطبخ لكنه لا يريدها ان تستولي على غرفته .

تحضره صورة ذلك الحكيم بوجهه الملتح وعينيه الرحيمتين ، الذي اتخذ دور ضوء ينير ماخفي وما عتم ، كلما خطرت في ذهنه فكرة الموت . وهي كثيرا ما راودته ، هو الوحيد في بيته هذا . مع ركام الكتب وغيوم الأفكار وضجيج الصبيان وهم يلعبون في الحديقة ، تحت شباكه . لا يريد ان يموت ، فالموت غير مريح ، لانه عالم يمتد في مكان لم يرجع منه احد . يتخيله رحلة لاتنتهي ، فيه يتحول الانسان الى جوهر خالد ، غير معروف . جوهر شبيه بروح اليشب والمرجان والشجر ورمال السواحل والرسوم المواجهة للمقهى الذي طالما جلس فيه . شبيه بروح فيروس السرطان ونغمات الشعر وتواتر الضفادع والجنادب في توالدها الأبدي على هذه الأرض . وهذا مايفاقم تردد امام الموت ، وحذره منه . يفكر : انني حين اصير اكثر حكمة سأتقبله دون خوف . . . . .

يفتح كتاب ياسمين ويقرأ لنفسه مقاطع ليجلب لروحه متعة التأمل والسعادة :

التـأمل هو الغطس في الوجـود الشـخصي ، الغطس في شيء هو دائمـا هناك . التأمل اليومي يعمق وجودك لكي يصبح بعد الاعتياد اساس الانطلاق نحو الخارج . نحن جميعا نمتلك مختلف الجوانب ومختلف الصراعات ، لكن يوجد هناك انا كبيرة واحدة او وجود حقيقي هو مصدر كل تلك الجوانب والصراعات . مثل من يجد نفسه في بيت كبير يحتوي على عدد من الغرف . لايمكن ان تكون الا في غرفة واحدة في ذات الوقت ، وفي كل غرفة تجري مختلف النشاطات التي تقوم بها . مرة في غرفة ومرة في اخرى . نحن نتحرك جميعا في تلك الغرف المختلفة وكل غرفة لها أحداثها ، وهذا يعطي صورة عن جوانب عديدة ماندعوه بالانا . في واحدة من تلك الغرف تتخذ قرارا ثم تدخل اخرى وعند ظروف معينة تتخذ قرارا آخر يختلف تماما عن المتخذ في الغرفة الاولى . تحضر نفسك لاستقبال حبيبتك ، فتكون ممتلئا بالانتظار والسعادة ولكن لسبب ما تتأخر في المجيء او تأتي بمزاج عكر فينقلب مزاجك ليصبح سيئا مليئا بالغضب . تحس انك قد جرحت او استغفلت . شعور الانتظار البهيج ، ذاك الذي بنيته في احدى الغرف سرعان ما يختفي .

حين لايصبح ثمة علاقة بين تلك الغرف ، وليس ثمة اتصال ، تصبح النشاطات الجارية في كل غرفة لاعلاقة لبعضها مع البعض الآخر . بينما يكون الشخص مشغولا مئة بالمئة في هدف ما ، يكرس له كل نشاطه وطاقته ، الا انه على الصعيد الداخلي يكون مشتتا بالحقيقة . في داخله تصطرع كثير من القوى المتناقضة ، والانفعالات فتعيقه عن تحقيق الهدف . انه لايملك القدرة على استجماع نفسه الكاملة ، لانه لايملك مرجعا ، اي الوعي الصافي . لكن دعونا نتصور ان كل تلك الغرف بحاجة الى شباك جميل يطل على حديقة ، وفي تلك الحديقة ثمة نموذج لوجودنا ، يطل على كل تلك الغرف مرة واحدة . ويمكن الدخول اليها دون مغادرة الحديقة . في ذات الوقت وانت تجلس في الحديقة يمكنك ان تنشغل باي شيء يعجبك : الافكار ،الحب ، المشاعر ،العمل ، اللعب ، الخ . حين تنتهي من اي نشاط تعود ببساطة الى تلك الحديقة ، لايمكن القول

حقيقة انك تعود الى الحديقة لانك لم تغادرها . انها طاقتك فقط . هي التي استخدمتها في واحدة من الغرف تعود الى الحديقة . بعد ذلك ادخل الى الغرفة الثانية ومارس النشاط نفسه . من هنا يمكن القول ان تلك الغرف ذاتك ، ليست داعيا للتشتت بل انك في بيتك ، في وجودك ، في حالتك التأملية .

***

في مطبخ البيت الصغير ، اخبرته المرأة المصابة بالسرطان عن نتف من حياتها . كان يصغي لها بعمق ، وهي تحدثه عن مرضها ومشاعرها واسرارها . كان الآخرون يجلسون في الحديقة ، حيث شمس الربيع في اول اشراقاتها المحببة . والمطبخ عابق برائحة اليانسون والقرفة . قالت له وعيناها تشعان بالحزن المتألق ، لشخص يودع الحياة : كنت اطمح في ان اصبح رسامة . كنت ارسم بجنون ، مسحورة باوراق الشجر والوجوه والبيوت وكل ما أراه في حياتي ، اطمح الى تحويله الى فن . غروب الشمس وراء الجبل ، غابات الزيتون ، الافجار المجلجلة خلف حقول القت والباقلاء ، الاحصنة التي كانت تدهشني ، بوقفتها الشامخة . كنت امتلك هاجس ان كل شيء في الحياة يمكن ان يتحول الى قطعة فنية جميلة . ارسم على الكارتون ، على القماش ، على الجرائد ، على كارتات المعايدة ، وعلى القماش . ثم تزوجت من رجل اعمال لايهتم كثيرا بالفن . وكالعادة كان الاطفال واعباء الاسرة والاقرباء والزيارات والواجبات الاجتماعية ، ثم بدأ الرسم ينزوي شيئا فشيئا بعيدا عن اهتمامي . كنت اقول انها مرحلة وتنتهي ثم استعيد نشاطي ما ان يكبر الاولاد . انجبت ولدين ثم اصابني ذلك الداء اللعين في ثديي . راجعت الاطباء وقرروا ان علي ازالة الثدي الايمن كي لاينتشر المرض في الجسد . وهكذا فعلت . قالوا لي بعد فترة ان الامور تسير سيرا حسنا .

بدأت اخاف من الورقة . اخاف ان اكشف اعماقي في الرسم . قلت لنفسي علي ان اتجه الى الامومة مرة اخرى . ثم انجبت صبيا ثالثا . ولد بحالة جيدة .

عشت معه احلى اللحظات وكان بديلا عن الفن الذي هجرته . كرست له كل حياتي . رغم انه كان ضعيف البنية الا انه كان بصحة جيدة . بعد ستة اشهر ، حدثت الكارثة . كانت امي تنام عندي في البيت . وكنت اثق بها ، ربما الوحيدة التي كنت اترك الصبي بين يديها اذا خرجت في مشوار .

ذات يوم رجعت الى البيت ووجدت الصبي في حالة ليست طبيعية . اخبرتني امي انها كانت تتحدث في التلفون والصبي على ركبتيها ، وهي جالسة على الاريكة . اهملت الصبي ، ونسته ، فوقع من حضنها على رأسه . قالت لي لقد خرج قليل من الدم من انفه . عرضته على الطبيب فقال لي انه أكل ضربة قوية على رأسه . واعتقد ان ثمة نزيفا داخليا قد حصل . واشك ان رأسه قد اصطدم بحافة الطاولة الحديدية او بشيء صلب . منذ تلك اللحظة توقف نمو الصبي . كانت السنوات تمر عليه دون ان يتطور ذهنيا . اصبح متخلفا عقليا واصيب بالشلل في جانبه الايسر . لم يعد قادرا على تحريك يده او رجله ، وترهل فمه وتوقف نمو اسنانه . لم استطع البوح بما حصل ، اخبرت كل من سألني عن حالة الصبي ان الامر يعود الى سبب وراثي . هناك اختلاف بين مورثات زوجي ومورثاتي . وهذا ما ظهر في المولود الثالث . لم استطع القول ان ابني اصبح معوقا بسبب اهمال امي . اصبح وجوده قضية حياة او موت بالنسبة لي .

احببته اكثر من اخويه الصحيحين . كان لايأكل الا من يدي ، لاينام الا على صدري ، لا يضحك الا حين اضحك . اصبح حياتي كلها منذ الصباح حتى ساعة النوم . اصنع له الالعاب وارسم له اشكالا غرائبية يتسلى بها . احصنة مجنحة وقططا بشوارب طويلة ورجالا ضخمي الاعضاء وبيوتا يخرج من مداخنها دخان ازرق على هيئة سنونو وعصافير وغربان . اما حياتي الشخصية وطموحاتي الفنية فقد دفنتها في اعمق نقطة من روحي . بدأت احس انني اتخلف يوما بعد آخر عن ما يدور في الوسط . لم اعد اذهب الى معارض الفن والندوات الثقافية والمسارح كما كنت افعل ايام شبابي . حتى الكتب مللت قراءتها ، ولم يعد لدي وقت كاف لذلك . اصبح الطفل لايطيق انشغالي عنه .

ذات يوم احسست بحاجة الى اخراج كل المكبوتات التي في داخلي . مرضي ، شقائي بالصبي ، مشاريعي التي مضت دون رجعة ، تخلفي واهتزاز ثقتي بنفسي . أمسكت الاوراق وبدأت ارسم . كنت ارسم ما بداخلي دون اعتبار الى المواصفات الفنية والقواعد التي تعلمتها في اكاديمية الفنون . كانت ثمة مشاعر ورؤى واحلام مختزنة في داخلي علي ان اخرجها الى الضوء . رسمت الحياة التي كنت اطمح الى عيشها :

امرأة عارية مكتنزة الثديين .

حصان جامح عرفه طائر في الهواء .

فتاة عارية ذات جديلة طويلة تصل الى ردفيها ممسكة بزهرة عليق تحدق اليها بنظرات مستغربة . لون الجديلة قهوائي . لون الزهرة قهوائي . لون الجسد قهوائي ايضا . جسد من قهوة .

امرأة عارية تجلس على كرسي هزاز اشبه بالسلم ، تمسك طفلا عاريا وجديلته كانت تشبه سنبلة قمح مكتنزة بالحب ، المرأة من القهوة والطفل ايضا . من المرأة برز ثدي ضخم اسود الحلمة امام فم الطفل .

اعجبني لون القهوة فرسمت به مئات اللوحات . صغيرة وكبيرة ، رسمت بيوتا صغيرة محاطة بشجر السرو وعناقيد عنب على ضفاف بحيرة ، وجبلا يتدرج في النزول كي ينتهي بنبع فوار ، وحقل حنطة تطير فوقه طيور دراج ، واحصنة محمحمة في سباق . احجام بعض اللوحات لا تتجاوز العشرة سنتمترات مربعة . التفاصيل الصغيرة تشد انتباهي بعمق ، وتصرفني عن حالتي النفسية التي كنت اعيشها . اعرف انني سأموت قريبا ، لذلك بدأت اعشق الحياة . كل شيء فيها جميل . اتطلع في ورقة تفاح ساقطة في الحديقة ويأسرني جمالها ، حافاتها المسننة وتخاريمها والعروق المتناظرة في سطحها . انغمر في السماء ، المرتسمة من الشباك ، فأتوحد مع الزرقة اللامتناهية ، واعيش مشاعر وجد غريبة تفصلني عما حولي . اعشق الماء ، هذا النقاء الآسر ، اتذكر كيف قدتك الى البحيرة ، تمنيت وقتها لو اننا لن نتوقف ، نخوض في البحيرة الى ان نختفي ، لكن ياسمين هي

التي اشارت لي بالرجوع .

كانت اصعب فترة عشتها في حياتي الاشهر الاولى بعد موت الصبي . اما الايام القصيرة التي قضاها في النزع فكانت كابوسا حقيقيا ، كابوس ام يموت طفلها الذي كرست له حياتها . اصيب ابني البكر بنكاف حاد ، سرعان ما التقطه الصبي . ولان مناعته ضعيفة ، شل المرض جسده كاملا وحوله الى خشبة متيبسة . اطرافه لم يعد يحركها واسنانه منطبقة بقوة وعيناه ما عاد يفتحهما . بكيت ، سهرت ، حزنت ، فقدت الشهية ، يئست ، ولم يعد يثيرني اي شيء في هذا الكون . لم اعد اخشى الموت . وذات يوم التقيت بتلك الصبية التي تعرفها ، في جلسة شاي عند احدى الصديقات ، واخبرتني بالقلب المغني ، فقررت المجيء الى هنا . حكيت لياسمين كل شيء وقد ساعدتني كثيرا في اجتياز المحنة . ايقنت ان الحياة والموت عملية واحدة ، تتم مادامت الكائنات على الارض . كل شيء يتحول الى نور في النهاية . اصبح كل شيء جميلا ، حتى مايبدو بشعا للعين او الاذن . وانا اليوم في حالة من الطمأنينة الداخلية شبه المطلقة . . . .

***

خرج من البياض ، من صحراء رملية رملها ابيض ، مستوية ممسوحة ، او بقعة زيت بيضاء هائلة ، او ظلام دامس او من فراغ . رأسه يموج بالقصص والحكايات ، بالاشخاص وضحكاتهم ، بالنجمة التي رآها تلهث في ظلام الجبل ، وتلك التي يراها كل يوم ثابتة امام شباكه . يكتب ويشطب ويدون ويغذي الكومبيوتر بكل ما يرد الى خاطره عن فترة الماضي . بدأ يحس انه يكتب نفسه ، يتحرر من مشاعر قديمة بعضها يعود الى الطفولة . اصبح منذ فترة لا تأتيه اية احلام ، او ان اتت فهي غير واضحة ، مختلطة ، غير معقولة ، ازمانها غير مدركة ، اماكنها ليس فيها شواهد ، تدل على بلد بعينه . هو الذي رأى كثيرا من الامكنة ، مدنا وقرى

وبلدانا وبحارا وصحاري ، عرف آلاف الاشخاص ، واليوم ، يقطن في هذه الغرفة الواسعة التي هي جزء من بيت صغير مكون من مطبخ وحمام وممر مسقوف بالبلاستك ، وتقطنه ايضا حمامتان صغيرتان ، وعشرات العناكب والصراصير .

بيته مركون في هذه المدينة التي لم يعد يهمه كيف وصل اليها . الا انه بدأ يعيش ايقاعها ويتعرف على شوارعها وناسها وجوامعها وحقولها ، يهمه من كل ذلك عيش الحاضر بعمق ، ليخطو بعدها الخطوة التالية . من اين جاء لا يعلم ، الى اين يمضي لا يدري . كيف يدبر اموره لم يعد الامر صعبا ، فهو يتقن كثيرا من المهن . درس اختصاصات عدة ، ويتكلم اكثر من لغة . ما الذي يفعله في هذه المدينة امر ماعاد يهمه فقد كف ، ومنذ فترة عن السؤال . يريد ان يحيا يومه بعمق وقوة ، دون التفكير بالماضي . دون رسم خارطة لما سوف يأتي من ايام وشهور وسنوات . كائن من لحم ودم واحلام ورغبات ، لايطمح الى شيء اكثر من الحفاظ على حياته . مثله مثل صخرة الجبل الساكنة منذ ملايين السنين او قطرة الماء الساقطة من السماء وهي تغور في الارض وتتحول الى ورق وديدان وعرانيس ذرة وزهور ومحيطات . شخص تساوت لديه الاشياء والكائنات حتى اصبحت كلا واحدا . ما عاشه الامس يعيشه غدا . وما سيعيشه في الغد كان قد رآه في حلم او يقظة او تأمل ، او ربما عاشه قبل آلاف السنين . الا يؤمن احيانا ان عمره يتجاوز القرون؟ وانه كان في زمن آخر ومكان آخر باسم يختلف عن اسمه؟ لم تعد الاسماء تهمه كثيرا رغم ماتوحيه ، انه موجود وكفى!!!!

الفصل الرابع عشر

ثم حدث الامر بعد اتقان دروس ياسمين .

قرر هجر البيت والزوجة والاخوة والاخوات . جاء قراره اثناء التفرج على ذلك الكرنفال العجيب الذي فتح عينه على عوالم اخرى لم يرها سابقا . اتبع هواه وميل قلبه الذي لايخطئ . نظر الى الجانب الساخر من الحياة ، جسّده له الكرنفال بعمق . اتبع تعاليم ياسمين ، وصارت الآفاق اللانهائية تنفتح امامه . واذا الحياة لعبة معقدة وممتعة ، انها ليست مشكلة ينبغي ان تحل انما مغامرة ينبغي عيشها جسدا وروحا . الشجرة والبناية والنهر الغاص بالسمك والاجساد وانفعالاتها كلها آيلة الى زوال . الحياة والموت قطعة كاتو ينبغي التهامها . هذا ما آمن فيه ليلة الكرنفال .

دخل عند المساء برفقة عدد من الاصدقاء لتزجية الوقت برؤية الالعاب والتماثيل والمسرحيات المقدمة في الساحة . كان الملعب شاسعا مكتظا بالبشر ، من كل صنف ولون . ضجة موسيقى غير طبيعية ترتفع في الهواء . صبيان وبنات وشيوخ وعجائز . شقر وسود وملونون . انيقون وشحاذون . لصوص ومخنثون وباعة ونشالون . الكل هناك ، لرؤية الكرنفال . اخذوا مجالسهم على مدرج خشبي وراحوا ينظرون الى الممر الواسع الذي يلف الملعب امام المتفرجين . في الوسط

اعمدة عالية تنتهي بمصابيح كبيرة موجهة الى كل الجهات كانت تكشف ادق التفاصيل . والملعب شعلة متوهجة وسط مدينة واسعة الارجاء عالية العمارات محاطة بجبال عليها تماثيل انبياء ورسل يباركون القاطنين ليل نهار . انهم تائهون في ظلام الكون لايراهم احد . بل لاينتبه لهم احد . يسبحون دون صوت ، يتأملون قانطين من هؤلاء البشر اللاهين بالعابهم وتماثيلهم ومسارحهم التي اخترعوها من قبضة من الاوهام . وبين الحين والآخر يعلن المذيع عن الفرق المشاركة .

فرقة البطاطا ، فرقة العرانيس البرية ، فرقة الشعلة الذهبية ، فرقة الاشجار المدارية ، فرقة رماة الرماح ، فرقة النبّالة ، فرقة العرائس ، فرقة الاقنعة ، وغيرها وغيرها كثير من الفرق . وبعد سمفونية موسيقية قصيرة بدأت الاحتفالات ، وكان بدؤها مصحوبا بشعالات نارية اخذت تزمجر في السماء . تنفجر الشعالة ليفرقع ضوء غريب . احمر الشرارات وبنفسجي واخضر . اصفر فاتح مصحوب بالدخان . مفرقعات ترسم اشكالا لحظية الاختفاء ، وكان يعد نفسه في حلم حقا . دائرة واسعة من الشرر الاحمر ، ترتفع قليلا قليلا لتشكل مخروطا بهيا يضيء اقصى الاضاءة ثم يبدأ بالتلاشي تدريجيا حتى يخلف في العين اشباحا من الدوائر والمثلثات والاشكال . مفرقعة اخرى ترقش رقعة من السماء بتكوين مثل النخلة ذات السعف والخوص ، تتداخل التفاصيل فيما بعد وتصبح كتلة هلامية من الدخان والضوء تستمر برهة ثم تموت . اشكال مثل البشر ، او البقر او السلمندات او البطريق القطبي او الحيتان . اشكال مثل الحيات والعقارب والعظايات المتحركة . كل ذلك قبل ان تبدأ اول فرقة بالتحرك من باب الملعب الفسيح لتعرض حالها امام الجمهور .

تلك فرقة الخيالة . الراكبون بملابس حمر وبنطلونات بيض ، يرتدون قبعات عالية من الفرو ، بنادقهم طويلة تنتهي بسنكيات لاصقة ، واصوات حوافر الخيل تطرق الاسفلت بصوت رتيب . مشية منتظمة ، ملوكية متوارثة منذ آلاف السنين ، ووجوه الفرسان حليقة بيضاء وسمراء ، وابتسامات خيلاء على وجوههم . كتب

على مقدمة اللواء الذي كان يحمله مقدم السرية . . . . الحرس الملكي . اي ملك؟ لم يعرف . انه ملك مطلق لاينتمي الى مكان او زمان ، والملوك بحاجة الى حراسة دائما ، ولا يدري لم ذكره المشهد بالجنرال بطرس حتى انه ترقب ظهوره راكبا على فرس اشهب حاملا سيفا لاصفا بيده .

مرت الفرقة من امامهم ، ثم اعلن المذيع عن دخول فرقة نادي الشرق الراقص .

راح يترقب الكتلة الهائلة المتقدمة نحوهم . اضواؤها ساطعة ، زوائدها تتحرك بخفة ، وثمة التماعات منيرة تتبعثر فوق وتحت ، شمالا ويمينا . كتلة هائلة اشبه بسفينة . فوق عند القمة تقف امراة هي الملكة ربما ، ثابتة لاترمم . تلبس ثوبا من اسلاك مفضضة ، وتضع تاجا من الفضة ايضا ، ثوبها الابيض ينشق عند الفخذين ليكشف عمودين بضين من اللحم ، وكذلك النساء المرافقات . كلهن يقفن او يؤدين رقصات هز البطن والرقبة والتثني في الهواء كاشفات عن افخاذهن الممتلئة وبطونهن المثبتة على موضع السرة منها جواهر لامعة . ينطلق من العربة النسائية غناء عال يقول : ياسائق التاكسي ، خذنا على الفردوس . ياسائق التاكسي التاكسي خذنا على الفردوس . . .انهن راقصات الشرق يتقدمن الى فردوسهن الارضي ، يخلبن عيون جمهور ظامئ الى الاجساد والبهارج والرقصات .

ثم فرقة البطاطا وكانت ساخرة بحق . لامست روحه بعمق اكثر من غيرها . بل وذكرته بتلك الامسية العجيبة من اماسي القلب المغني . تذكر الكراسي القلقة والارض الواقفة على قرن ثور والبياض المطلق الدال على الموت والشجرة المثمرة كتبا وكتيبات . ثم تساءل مع نفسه ، كيف تتحول الحياة الى ثمرة بطاطا؟ ثمرة كبيرة ، صغيرة ، مسطحة ، متطاولة ، مبعوجة ، منقطة ملساء القشر ، متغضنة ، متجذرة ، نامية . كل شيء اتخذ شكل ثمرة بطاطا . امرأة بطاطا ، عصفور بطاطا ، ارنب بطاطا ، عجيزة بطاطا ، لسان بطاطا ، عنقود عنب بطاطا . كل انواع البطاطا كانت تتحرك حركات مضحكة يؤديها اقزام صغار ، توزعوا تلك

الاشكال . وقفوا على اعلى صاري مركب ، وعند قمرات مضيئة ، وشكلوا عجلات تدور ، ودخانا يتصاعد ، واضوية تنير العربة المتقدمة في الشارع وهي تكتظ بالعالم البطاطوي . شدما ضحك تلك اللحظة ، واعجبته الفكرة جدا . تخيل اصدقاءه الجالسين حوله ثمرات بطاطا ضخمة ، والبوظة في يد السيدات بطاطا والقبعات والجزمات الضخمة والاعضاء الجنسية المستترة خلف الملابس والمظلات وكل شيء ، لايعدو ان يكون ثمرة بطاطا كبيرة ذات جلد املس او متغضن . وكان اصدقاؤه ينظرون له ويعجبون من ضحكه المرتفع . لم يروا مايضحك في عربة البطاطا . حتى بلغ به الخيال انه تخيل نفسه ثمرة بطاطا . ثمرة كبيرة موضوعة فوق جمر موقد . يشعر بالحرارة تلهب جلدته الرقيقة ، والنار تسري في خلاياه البضة الصفراء فتفريها فريا . تحول لونها من الاصفر الناصع الى الاصفر العكر . اما جلده فقد اسودّ بعضه وترمّد البعض الآخر . تخيل جسده ينضج ببطء ، وتخيل اصابعه تقشره بعد النضوج ، ثم تملحه ، والبخار يتصاعد منه ، وتخيل فمه ينفتح بشهوة ليلتهمه .

فكرة طريفة ان يتخيل نفسه التهم نفسه الثانية التي استحالت الى بطاطا شهية . فكر ان هناك كثيرا من الالعاب الطريفة في هذا الوجود ، منها فكرة تحول الانسان الى حبة بطاطا . . . . .

جاءت فرقة الغابة ، تطلق امامها صفير ببغاواتها وزئير اسودها وزقزقة عصافيرها وعواء ثعالبها . النمر يرتدي ثوبا مرقطا وذيله طويل التف على مقدمة العربة . الاسد فاتح شدقيه دائما وثمة مصباح احمر في فيه يكشف عن لسانه الاحمر مثل زمرد هائل . القرد الطائر ينط من دكة الى دكة وهو يتعلق بحلقات حديدية وسلاسل . الدب يضرب بيديه على صدره ذي الوبر . اما الشجرات الباسقات فكانت تميس في الفضاء تعلو هاماتها اشعة تشبه الاوراق ، اشجار سنط او سرو . تلة من بلاستيك يقف عليها ارنب هائل ، وكهف من عظام فيل ينيره حرذون متنقل من جانب الى آخر .

السمكة ذات الاسنان ، هناك ايضا . وقفت مجموعة منها على ذيولها . سمك

النهر المرعب الذي يستطيع افتراس انسان كامل وتعرية لحمه من عظامه بدقائق . اسنان منشارية ، صغيرة لكنها حادة ، تفتح وتنغلق امام النظر وتبعث في الروح القشعريرة . يتخيل انه يقع في النهر ثم تتجمع عليه تلك الاسماك المتوحشة ، هذه تنهش فخذه فتدميه ، تلك تعضه من وجهه ، والثالثة من ردفه والاخريات تجذبهن رائحة الدم فيصبح كتلة لذيذة من اللحم لتلك الاسماك ذوات الاسنان . وحين تجاوزت العربة الغابة واختفت الاسماك المرعبة من امامه شعر بالفرح . مازال على قيد الحياة ، ينتظر العربة القادمة علها تقدم له شيئا بهيجا .

اجساد عارية الا جزء بسيط يستر العورات . اجساد سمراء ، مصقولة ، متناسقة . تلك اجساد اعضاء نادي المخنثين ، بوجوههم المطلية بالاصباغ ، وحواجبهم المزججة وشفاههم الرقيقة الناعمة ، والعيون السود الناعسة وهي ترمي الجمهور بنظرات ولهى ، وترسل القبل وتطيّرها عبر الهواء الى عشاق غير منظورين . مخنثون تضخمت ارادفهم وتكورت ، وبالسراويل الفاضحة الصغيرة الملونة التي يرتدونها بدوا كأنهم حوريات هبطن من الجبال المشجرة التي تطوق المدينة . جسد زعفران وابنوس وفل . جسد من عروق مرمرية يشع بالعرق والشهوة والنزوات المحرمة . اولائك كائنات شاذة الوجود واقفة بين عالمين . لاهم اناث ولاهم ذكور . كيف له فهم مايفكرون به وما يحملون من رؤى عن هذه الحياة التي يحيونها؟

صار الجمهور يقابلهم بالصفير والتصفيق ، اما هم فيقابلونه بالقبل والنظرات الناعسة والابتسامات . نعم ثمة الكثير الذي يجهله في هذا العالم الذي يعيش فيه . يجهل سر الخنثى ، وسر الماء وسر النجمة الشاعة في الافق الغربي وسر زهرة اللوتس التي حدثتهم عنها ياسمين واعتبرتها رمزا للتناسق الخلاق . سر زوجته الغاضبة دائما لا يفهمه ، وسر البنت النزقة التي لاتشبع من الجنس ، يود الوصول اليه . نعم ثمة غموض في هذا الكائن المدعو انسان ، عليه ان يستجليه ويقع على جوهره .

كانت الفرق تترى امامهم في الشارع . رماة السهام ، عباد الشمس ، صندوق

بندورا ، شعاب المرجان ، التي شبكت بين منعرجاتها اجساد بحارة وسباحين ودنانا مليئة بالخمور وخوابي ذات كنوز عتيقة . ورق اللعب ، اسماك المحيط ، المذنبات الكونية ، القنبلة النووية ، وقد مثلت باشعاع بيضوي متدرج وغازات بيضاء ذات رائحة تشبه رائحة الكبريت . الساحرات وفرقة الاقنعة التي استهوته فشدّت كل انتباهه .

كل فرد من افراد الفرقة ارتدى قناعا ، او وقف ساندا واحدا من الاقنعة الافريقية او الهندية او اقنعة شعوب الاسكيمو امامه . لم ير في حياته هذا العدد الهائل من الاقنعة او هذا التنوع فيها . قناع ملك الدانتيلا ، ذو انف كبير ، ولحية خفيفة مشذبة وله فم واسع يمتد من الاذن حتى الاذن ، شعرات رأسه مفتولة الى الاعلى على شكل رأس فجل . قناع الجد الكبير ، عبارة عن عصا مسطحة طويلة ، في الأعلى قنزوعة صغيرة هي الرأس يأتي تحتها لطخة سوداء تمثل العينين وثقب صغير هو الفم ثم الجسد بلا يدين ولا رجلين . قضيب طويل مخدد بالكتابات غير المفهومة والرموز المتحدرة من الاسلاف القدامي الذين خطوها ذات يوم في التراب او على واجهات البيوت الخشبية او حفروها في جذوع الشجر . قناع شجرة البطم ، عبارة عن قرنين طويلين ثبتا على خوذة من الذهب الاصفر ، ثبتت على ساق شجرة البطم . قناع الموت وقناع الخديعة وقناع الفرح الذي جسده وجه لبوذا ، وقناع الغضب المصنوع من مادة بلاستيكية تتحرك فتفرش تعابير غاضبة ومرعبة في الفم والانف والاسنان والعينين . قناع زهرة النارنج وقناع ملك البحر وقناع العضو الذكري الذي بدا متهدلا يسيل من طرفه ذباب وقنافذ وافيال وبشر ودبابات ، هي اجمع ، من الضوء المتلامع الذي يغمر الوجود بماء الحياة .

اي تنوع هذا الذي يراه امامه . اية اسرار ينطوي عليها هذا المشهد الذي يراه كل يوم امامه في الشارع والمقهى والغرفة والبحر وشجرة الزيزفون؟

نعم ، قرر ان يأتي الى هذه المدينة ولا يبارحها . لقد تراءت له في الحلم ذات ليلة فعشقها . عشق قبابها وشوارعها وياسمينها وبناتها الدعجاوات العيون ورائحتها الهابة من اقبية التاريخ . فيها سيكتب ما علمته اياه ياسمين ، وما دله

عليه الحكيم ، وسيكتب حكاية سعيد صديقه الذي عضه التشنج واضجعه في شعب مرجان تحت غمر من مياه بحيرة بعيدة . سيوقف روحه على ان يكون حامل رسالة امين . ينذر الروح كي تتحول الى ضوء يكشف المخبوء ويضيء المعتم . . . .

وهذا ما حدث ، فقد اومأت له مدينة اخرى .

***

دلف الى اليسار وواجهته بوابة عتيقة ، تقوم على ضفة النهر ، تشكل مدخلا الى المدينة القديمة . آجرها وصخورها البيض تحمل كتابات يصعب قراءتها ، تنتمي الى عهود بائدة . اشعة الشمس كانت غطاء شفيفا للحروف والمنمنمات والمزاغل . لم ير احدا في الشارع ، وكان اليوم القا ومضيئا ، يحمل في ثناياه طزاجة وجدة . شعر كأنه بدء الحياة على الارض . خطواته ترن على البلاط الكونكريتي . الشارع يحاذي نهر المدينة الضيق ، البيوت متهدمة ، الشبابيك مغلقة على اشياء قديمة مكدسة تبين من خلل الشقوق ، بينما تنفتح شبابيك اخرى مخلعة على غرف لايقطنها احد . سيأتي يوما ليكتشف ما تحتويه تلك الخرائب ، ويعرف لم هي باقية لحد الآن دون ان تهدم او يقطنها بشر؟ اشجار تين بري نتأت من الجدران الطابوقية ، اوراقها زرقاء تتهدل اغصانها نحو المياه .

كم هو خفيف ممتلئ سعادة ، يحس ان اليانسون والكمون والبهارات والكزبرة ، زهرة الالماسة والنعنع والكركدية وجوزة الطيب ، القرفة والفلفل الاخضر ، وكل تلك العطور والالوان التي رآها في السوق قبل لحظات ، تتضوع في داخله وتمده بالحياة . كان كثيرا ما مر في هذا المكان ، متجها الى المقهى ، لكنه حين يكون خاليا من المارة يصبح له طعم آخر . كأن كل شيء حوله لاينتمي الا اليه ، اشجار التين وزخارف الاحجار القديمة والبلاط والازقة الباردة الظليلة التي يمر بها وسوق الاقمشة والازهار النابتة في شرفات البيوت . تفاءل خيرا برؤية رجل يرتدي

عمامة حمراء تنتأ منها قماشة زرقاء . لحية الرجل بيضاء مثل القطن ، طويلة مشذبة ، تتهدل على صدره . كان يرتدي عباءة مقلمة زرقاء ، حائلة اللون ، تحتها سروال عتيق رمادي لايصل الى كعبيه . الرجل يتوكأ على عصى من خشب التوت او الجوز . كانت العصا ملساء مثل زجاج صقيل . ذكرته بجده ، وحسب ان الرجل ينتمي الى المكان اكثر منه . فكر انه ينسجم بزيه وهيئته مع قباب الجامع القريب ومآذنه وتوريقات فنائه وثرياته . انه كتاب حي متحرك ، لو يتسنى له تقليب اوراقه لفعل . ربما يجده شبيها بكتاب ياسمين .

دخل فم السوق ، وتفرج على البضاعة ، وكان يجتاز البقع الشمسية التي تتموج على ملابسه ساقطة من سقف السوق نصف الدائري . اتجه الى المقهى التي جعلها مقرا له . فكر ان يشرب قهوة او شايا ويتملى قليلا بتلك الايام البعيدة التي عاشها في الكتابة . لقد سلم مخطوطة كتاب ياسمين الى الناشر ، وها هو بحالة روحية صافية ومزاج الق . انه جديد مثل هذا اليوم . اخبره عقد المرجان بعد ان استطلع اسراره وظهرت له خطوط مشرقة على الحبة التي اختبرها ، ان نجاحات كبيرة لازالت امامه . اما الحبة المدورة ذات المشحات السود فهمست له بوصول رزقة الى يده . ورغم انه لا يؤمن كثيرا بمقولات عقد المرجان ، ويعتبر الأمر وهما لذيذا ، الا انه ومنذ الصباح ، تفاءل خيرا . لقد انجز مشروعه الطويل وكتب ما اراد التعبير عنه . عاش خلال الكتابة ذكريات كان يظن انه نساها ، او كانت متوارية لاتحتاج الا الى باعث صغير لتظهر امام مرآة الوعي .

لكن ماذا بعد الكتاب؟

هذا السؤال استيقظ معه ما ان افاق صباحا على اصوات العصافير في الشجرة المواجهة لشباكه . قال لنفسه ان الانسان يجد الحلول لتساؤلاته حين يواجه الاشياء القديمة . فمن القديم لايبقى سوى الجوهري ، ذلك الذي يفتح افقا امام المرء .

المقهى التي يقصدها ، يلوذ اليها مثل حمامة تبحث عن زاوية هانئة ، كلما هجرته صديقته او احس بحاجة الى العزلة مع نفسه وتأمل البشر واستشراف

ماسوف يقوم به مستقبلا . او كلما وجد حاجة في التأمل بالاشياء القديمة من بيوت وشوارع وسمات بشر وزخارف . فيها يجد نفسه راسخا والجميع متحركون . توقع ان يبصر مرام جالسة جوار النافذة . لم يجد احدا يعرفه . لم يجد سوى العتمة الخفيفة تلفع الجالسين .

امامه كانت الاراكيل والكؤوس ، وكانت الاواني خلف حاجز خشبي سميك مشبك وضعت عليه آيات قرآنية وكتابات وحكم وصور للمدينة قبل عشرات السنين . لهيب النار اخضر يضخ الحرارة الى سماور فضي ضخم ، منقوش بالاشخاص الراقصين . صبي يقف خلف الحاجز ينظم الكؤوس ويراقب النار وطلبات الزبائن . المخرمات في الحاجز الخشبي على هيئة ورود وازهار كبيرة ، واعلى الحاجز شرفة داخلية من خشب تحولت الى مخزن للاشياء العتيقة . على الجدران صور قديمة للمدينة العتيقة بالابيض والاسود ، بدت بسببها المقهى وكأنها من مخلفات عصر مضى . ربما هذا ما كان يجذبه اليها ، حيث يحس وكأنها تمتلك تاريخا غير مكتوب دونه الرواد على مر الايام . تاريخ بارز في رائحة خشبها وضوئها المندلق من السقف وشبابيكها وارضيتها الاسمنتية الحاملة لتراب ازمان لم تستطع مكانس الارض ازالتها . طبعات اشخاص مروا هنا وماتوا ، او غادروا المدينة الى بلدان اخرى بحثا عن حياة افضل او طلباً للاقامة او المغامرة .

ثمة شاب يدخن الاركيلة ، شعره اصفر ولحيته صغيرة لاتغطي سوى الذقن المعتنى بها ، وكأنها شغله الشاغل . جمرة الاركيلة تقف خائفة مثل عصفور قلق على غصن صغير ، ترتكزعلى التبغ المخروطي البليل لاهثة ، حية في لهاثها . كان الجالسون يثرثرون حول حياتهم اليومية ، كان يسمع نتفا من حواراتهم التي تدور حول انواع المسابح وسعر البطاطا وتجارة البيوت . كراس من خشب وطاولات من خشب عليها مفارش بلاستيكية مزينة بورود ودلال قهوة ، على كل شرشف كتبت عبارة اهلا وسهلا . الثريات تتدلى من السقف . مصباح كبير تحيط به ثلاثة مصابيح اصغر حجما . المصابيح على هيئة تنانين . تتدلى من المصابيح ، شراشيب من النمنم الملون ذكرته بعقده المرجاني ، الذي لم يفهم سره ، حتى

الآن . حاولت مرام ان تسرقه منه ذات يوم ، وجده في حقيبتها السوداء ، وهي بين هازلة وجادة ، لكنه يعتقد انها كانت جادة . قالت انه عقد يجلب فألا حسنا لمن يحمله . ومرام غادرته بعد ان لم تعد تطيق صرامة حياته التي يحياها . لكنها اصبحت اكثر ذكاء في الرسم . لاحظ ان معاشرتها له تركت في روحها آثارا لن تزول . وهي تعد معرضا اطلقت عليه اسم شجرة الحياة .

على الجدران ثبتت مصابيح أخر تكونت من جزئين ، الاول مثبت في الجدار على هيئة تنين تندلق من فيه حلقة معدنية تحمل الجزء الثاني : المصباح المشرشب . وكانت هناك موسيقى خافتة تنطلق من مكان ما من فضاء المقهى المكتظ . امامه دلايات بلاستيكية من الورق الاخضر والورود الحمر الفاقعة اللون . اما بيت النار المليء بالاواني فقد انفرشت امامه كرمة من البلاستك ، تتدلى منها عناقيد خضر ، تبدو طازجة لعين الناظر . هذه التفاصيل غير المرئية الا للعيون المدققة ، الباحثة عن رموز البشر عبر الاشياء الصغيرة المتوارية خلف الواجهات ، هي ما كان يجذبه الى المدينة القديمة . كذلك هموم الناس التي يبعثرونها في حواراتهم ونظراتهم وحركات اصابعهم ، طريقة مشيهم وضحكاتهم الرانة مثل فخار .

الرجل صاحب اللحية السكسوكة كان يمص اركيلته ذات المشرب الزجاجي بلذة ، وهو يتأمل نقطة ما في الجدار المقابل . عيناه لاتطرفان وافكاره محلقة خارج الجدران . الآخر الجالس قبالته يمتلك شاربين كثين ، ينظر خلل الشبابيك الى الشارع . في السقف منور زجاجي يضخ الضوء الاصفر الى المقهى ، الزجاج ابيض اصفرّ من كثافة الدخان . آلاف الليالي من الدخان المتصاعد من افواه الرواد . دخان اركيلة ، سجائر ، دخان الفحم الهارب من بيت النار ليجد له منفذا . كانت هناك ثلاثة شبابيك تطل على الشارع ، حيث تواجهه جدران مزينة بالمرمر الملون ، ابيض واسود واحمر ، تشكلت لتكون ورودا هندسية الرسم ، تقع عليها اشعة الشمس فتتحرك وتكاد تطير في الهواء . اشجار دفلى ذات ازهار حمراء كانت تنمو خائفة قرب باب الحلاق وتكاد تصل الى مشبكات النوافذ المصنوعة من

قضبان حديدية سود . قوس يطل على قوس وبلاطة تعانق بلاطة . مربعات من زجاج معشق تنتهي بنصف قوس الوانها قزحية واحمر وازرق واصفر ولازوردي ، وخلف تلك الالوان ستائر شفيفة ثابتة تخفي اسرار قاطنيها .

ان عبئا كبيرا انزاح عن كاهله . لقد انجز كتاب ياسمين ، كتب الكتاب وكتبه . دواخله ليست فارغة كما يحدث حين ينجز شخص كتابا ، بل هي ذات صفاء فريد . صفاء الاكتناز والحيوية والفيض الطامح الى انطلاق ثان . في المرحلة التي يصلها الانسان بعد اتمامه عملا تطلّب انجازه كثيرا من الارق والتأملات والاحتمالات والخيارات ، في وضع التصاميم الملائمة والهياكل الثابتة والزخارف الكاشفة عن الكمال . كل ذلك شهدته غرفته ولاحظه اصدقاؤه الذين كانوا يلتقونه في المقاهي والبارات . الشرود الملازم لوجهه وافكاره ونظراته ، ليس ذاك الشرود الدال على هروب من واقع او غوص في ماض . شرود الابداع والخلق والتخييل . لايجاد صور ملائمة تشع في الصفحات وتتراقص على الاسطر . مايجب ان يقال ومايجب ان يوصف .

الجالسون حوله قصص في كتاب .ينظرهم مشغولين بأفكارهم وحيواتهم وهواجسهم ، ويتساءل هل يمكن ان يصلهم يوما كتاب ياسمين؟ هل يمكن ان يكون لهم الكتاب قبسا من نور يغير ولو جزءا بسيطا من شخصياتهم وكيفية تعاملهم مع الامور؟ هل سيدلهم الى قناعة لم تولد لديهم بعد ، هي ان لاعبث في هذا الوجود ، والاشياء ترضع من ماء واحد؟ وثمة شبكة هائلة تربط بين الاشياء ، بحيث لايتحرك جزء ولو قدر ذرة رمل الا وسيؤثر في هذا الكون المحيط بمجراته وامدائه ونجومه واعاجيبه؟

ثم قاده النور الى الخارج . وتردد في ذهنه ذلك البيت الذي غناه لمرام : بلغ العلى بكماله / كشف الدجى بجماله/ حسنت جميع خصاله ، فإذا القلب نشوان والروح طربة . جلس يتأمل ماحوله ، وكان هناك طريقان . واحد الى اليمين والآخر الى اليسار . روحه عميقة الصفاء مثل الانوار المشعشعة على المرمر . يتحرك دون ان يرى ، مثل الزهور المرمرية في رجرجة الهواء العابق برائحة التين ،

او مثل ياسمين بجلبابها الاخضر على ضفة البحيرة .

الدرجات الاسمنتية تتراكب بعضها فوق بعض ، لتقود المارة الى اليسار ، الى حيث يطل ذلك الباب العملاق المصبوغ باللون البني المصنوع من الخشب . كم من الاشخاص رآهم ذلك الباب وهم يصعدون الدرج؟ وكم شاهده اشخاص فائرون بالاسئلة مثله؟ وكان الباب محاطا بأعمدة مرمزية ضخمة ، ينتهي في الاعلى بقوس من مرمر ، وفوق القوس تخاريم ضخمة من زجاج معشق ذي الوان خضر وحمر ورمادية ، مع تشكيلات من الارابسك التي تزين اغلب جوامع المدينة . باب ارتفاعه عال ، اكثر من عشرة امتار ، وعرضه حوالي ستة امتار . هاهو رجل يصعد مواجها الباب ، يرتدي سروالا فلاحيا اسود ويحمل بيده صفيحة بيضاء من زيت الزيتون . لحية الرجل حليقة وبشرته سمراء ، ولا يحمل عكازا من الجوز . بانت على ملامحه سعادة وقناعة غامرتان . ثم نساء ينزلن الدرج وهن ملتحفات ملابس سودا . رجال يذهبون الى فوق ، حيث الجامع ، ورجال ينزلون الى تحت ليتغلغلوا في الزقاق الطويل المتوغل في قلب المدينة . المدينة العتيقة ذات الشبابيك والمقرنصات والاطفال اليانعي الخدود ورائحة الطبخ ، المنزوية تحت اشجار التين .

الى يمين الباب الكبير باب ثان ، اسود مقفل ، عليه زخارف وكتابات ، لايقل عمره ، حسبما قدر ، عن الف سنة . هناك الشمار ، الرموز ، البروزات ، والباب مغلق على ماضيه . يظنه لم يعد مستعملا للدخول . لم هو باق هناك اذن؟ هناك اسرار كثيرة في هذا الوجود ، والفكرة التي جاءته في ليلة الكرنفال لم تكن نزوة او خاطرا عارضا . كل شيء سر ، حتى ماناراه اليفا . يحدق في الباب الاسود ، ويفكر بالشخص الذي زخرفه وصنعه وهندسه وطلاه . كيف عاش ، وبماذا كان يفكر ، وماهي رؤيته نحو الحياة التي كان يحيا . هل كان متزوجا ، هل مات شابا ام كهلا؟ الا يستطيع ان يكتب كتابا يروي قصة صانع الباب ذاك؟ هذا لو استطاع تتبع تاريخه ومدينته ومنبته . لم لا . ربما يكون هذا مشروعه القادم . وربما سيكون كتابه القادم عن تلك الورود المرمرية المثبتة على الجدار المواجه له . من صنعها ،

من نحت مرمرها ، من خلط اصباغها ، ومن اي منجم جاءت الاحجار ، وفي اي مدينة تبلورت واستوت؟ تلك ايضا قصة اخرى يمكن ان تكون كتابا ممتعا . وذلك الشخص الغامض ، الجالس في زاوية المقهى ، يدخن اركيلته وينظر بوداعة الى منارات الجامع المحلقة في الفضاء . بماذا يفكر؟ هل يؤمن بالله؟ هل هو سارق ام متصوف ام انسان عادي؟ قضى حياته في صنع الاحذية او ادارة مطعم او فندق؟ هو ايضا كتاب ممتع لمّا يكتب بعد .

جدار الجامع مبني من صخور عملاقة مستطيلة ، قديمة ، فيها نقوش وحفر تدل على انها شهدت آلاف السنين . آلاف الحروب والغزوات والفصول والبشرات والضحكات والدموع . وتلك المآذن السامقة الم تكن ذات يوم منارات لاديان أخر؟ مزاغل وشبابيك وطيور حمام ، وهو صاف وواضح كالماء ، جارح كشفرة . . . .

الى اليمين يبتدئ الزقاق ، ثم يتشعب مثل عروق ورقة التفاح ، تتغلغل فروعه في كل الاتجاهات ، من ظلمة الى ضوء ، ومن ضيق الى انبساط . فيه محلات لبيع اللحم المشوي والتحفيات المذهبة والبيوت . نوافذ خشب تطل على الزقاق ، والاسلاك المتشابكة تكوّن سقفا له . تمدد على الاسلاك لبلاب كثيف الورق يتحرك بدخول النسيم الى الزقاق قادما من فضاء الجامع المفتوح على الجهات . اريج الدارسين والياناسون والاعشاب البرية والقهوة المطحونة . تيار بارد منعش يتغلغل في الازقة الجانبية والبيوت الخفيضة المتوغلة في باطن الارض . كان البلاط في الارضية يضخم اصوات خطى المارين . بشر يذهب وبشر يأتي . الكل يبحث عن شيء ما . عن هدف مستوار تحت جلدة الرأس . هدف وهمي او حقيقي . الا انهم يتحركون نحوه .

هناك امامه بئر الماء ، الذي يقوم امام خان عتيق . انشئت فوق البئر قبة من الخشب ، مخروطية تستند على قضبان من الخشب ايضا . لقد اغلق البئر ذات سنة ، بشبك من الحديد ، ثم صبغ الشبك بطلاء اصفر . كل هذا جرى ذات يوم ، ربما قبل ان يأتي الى المدينة . تمنى لو يستطيع رفع الغطاء والتحديق في

الهاوية . تنحني فوق قبة البئر ، شجرة تين متوسطة الضخامة ، يانعة منعشة ، تطلق رائحة حليبها على المكان . يشم الرائحة فتبعث في روحه نفحة من سعادة . انه يشم الحياة بكل عمقها وبساطتها وعبقها . اينما صعد بصره يلمح التخاريم والاشكال التي صنعها بنو البشر لكي تخلد ، في ظنهم ، الى الابد . في وسط الزقاق اعمدة للضوء عتيقة . ذات تصاميم لاتنتمي الى عصرنا . تنتهي بعلبة سوداء كانت تضاء سابقا بالكيروسين . متى كان ذلك؟ انه جزء من تاريخ المدينة الذي يجهله . حقا انها مدينة تستحق ان يعيش فيها الانسان . وتستحق ان يدفن في ثراها ايضا .

***

ساعة وهو يحدق في الاكتظاظ البشري ، واللبلاب ومآذن الجامع والحجر المرمري واشعة الشمس المسلطة على البيوت . مشغول الذهن باختيار الجهة التي سيمضي اليها . اذا مضى الى اليسار ، عليه ان يتسلق الدرجات ويدخل الجامع كي يستمتع بصفاء المكان وثرياته . يتملى في انواره ويقرأ آياته ويتنسم اريج الادعية التي ولدت هنا وتناسلت وتكاثرت حتى ملأت فسحات الجامع وابهاءه . هل يمضي الى هناك يجلس على سجادة ويطلّق الدنيا الى الابد؟ يرتبط بهذا المدى الروحي الموشوم في الاحجار والاصوات الداعية الى الصلوات؟ يتحول الى زخرف على جدار او احفورة في باب او التماعة في خيط على سجادة ، يركع عليها المصلون؟ ام يمضي نحو ذلك الزقاق . يفتش عن كتب اخرى . يحولها الى كلمات تنفع البشر . يضيء ماخفي ويكشف ماهو مغطى .

الى اليسار التسليم والهدوء والاستقرار ، والى اليمين الكشف والحركة وآلام بني البشر . البشر الداخون الخائفون القلقون السائرون دائما نحو مصالحهم . الى اليسار ياسمين الحكيمة وموسيقى الغابة الخالدة والاشكال الساخرة وتماثيل الطين ، والى اليمين رحم الحياة الحامل بالروائح والرازونات والوجوه الجعدة

والاقدام المتشققة ومياه الغسيل وسقف اللبلاب .

انه يمتلك الخيار ، فهو صاف مثل ماء وجارح مثل شفرة .

لا بد له من انجاز كتاب الشجرة والنافذة المخرمة والرجل الاكتع والمرأة الملفعة بالسواد وتلك المتبرجة . كتاب الشوق والفرح والمتعة والصوت والبيت المهدم والرجل السكير . كتاب الكنيسة والجامع والنهر المتسخ بمخلفات البشر والجسر القديم الذي مات اثناء بنائه ثلاثة رجال .

امامه اذا كثير من الكتب عليه انجازها . . . . . .

كتاب ياسمين

تنهل كتابة الروائيّ والقاصّ العراقيّ شاكر الأنباري من روح يحتشد بالتجربة الإنسانيّة ، والقلق الإبداعيّ ، والأسئلة الأساسيّة في العيش والوجود ؛ روح يقبض على لحظة التفجّر في حياة الفرد كما في مسارات الجماعة ، في أرقى تجلّياتها وفي أسمى تكويناتها ، حيث تفيض الأسماء التكوينيّة ، والعناصر المؤسّسة ، والتشكيلات التجريديّة والمجسّدة ، ضمن سياقات تقارب - إلى حدّ التماهي - الفيوضات الصوفيّة النابعة من أعماق النفس في مواجهتها مع العالم والبشر والقوى المحرّكة في الكون .

وفي « كتاب ياسمين » يجسّد الروائيّ تجربة ذات أبعاد حياتيّة وثقافيّة ، نفسيّة وروحانيّة ، قلّ ما التفتت الرواية العربيّة إليها بمثل هذا التعمّق والتخصيص ، ففي الوقت الّذي يزداد فيه جنون التوجّه إلى عالم المادّة ، يأخذنا « بطل » هذا الـ «كتاب» إلى عوالم وشخوص تنتمي جميعها إلى الروح ومكوّناتها ، فنلتحم بعناصر الطبيعة ، ونغرق في : روائح العطر ، وملمس الأحجار الكريمة ، وصور الحكمة الخبيرة ، وزهو الأزهار الثريّة في أسمائها وأشكالها .. لنعود ، من ثمّ ، إلى ذواتنا - إنسانيّتنا ، الّتي شوّهتها ماديّة العصر ، عسى أن نعيد إليها قدراً من جماليّات فردوسها المفقود .

عمر شبانة

at nada baghdad
15960